نفحات الولاية

شرح نهج البلاغة

شرح عصري جامع

لسماحة آية الله العظمى
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء السادس
من خطبة ١٥١ إلى ١٨٠

دار جواد الأئمة (ع)

طبعة منقحة ومزيدة

www.haydarya.com

بسم الله الرحمن الرحیم

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي دام ظله

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

من خطبة ١٥١ إلى ١٨٠

الجزء السادس

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم/ ١١٥٢٠٨
التاريخ/ ٢٩/ ٦/ ٢٠١٢

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

دار جواد الأئمة (ع)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى

1432هـ - 2011 م

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

ت : 73 73 13 / 03 - 12 29 69 70 00961

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

١٥١

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يُحذِّرُ مِنَ الفِتَنِ[1]

نظرة إلى الخطبة

تتكوّن هذه الخطبة من أقسام ثلاثة:

أمّا القسم الأول: فهو حمد الله والثناء عليه، ومن ثم الشهادة بالرسالة للنبي الأكرم ﷺ وبعض صفاته الخاصة. حيث أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى الأوضاع المربكة التي كانت سائدة إبان الجاهلية ليقف المسلمون من خلال المقارنة على عظمة النعم التي أفاضها الله عليهم ببركة الإسلام.

أمّا القسم الثاني من الخطبة: فقد أخبر فيه الإمام عليه السلام عن ظهور الفتن في المستقبل والعودة القهقرى إلى الجاهلية بأفكارها وممارساتها، كالفتن التي يقودها

---

١. سند الخطبة:

لم ترد هذه الخطبة في مصادر أخرى والشيء الوحيد الذي يعتمده مؤلف «مصادر نهج البلاغة» ما ذكره السيد اليماني في كتاب «الطراز» وقد استشهد فيه بعدة عبارات من هذه الخطبة، رغم أنه عاش بعد السيد الرضي، إلّا أنّ اختلاف بعض العبارات مع ماورد في نهج البلاغة يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة. راجع مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤١.

الظلمة والتي تفعل فعلها في الوسط الإسلامي.

وأخيراً يختتم الخطبة بوصية الناس بالحذر من الظلمة وعدم الإنخداع بفتنهم والاستجابة لتحقيق مآربهم، إلى جانب عدم اتّباع خطوات الشيطان والسقوط في شراكه، والإبتعاد عن تناول الحرام وتقوى الله على كل حال.

ﮋﮊ

القسم الأوّل

وَأَحْمَدُ اللّٰهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ وَالإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ. لَا يُؤَازَىٰ فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيَوْنَ عَلَىٰ فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَىٰ كَفْرَةٍ!

الشرح والتفسير

الشمس التي أشرقت في الظلام

إنّ هذه الخطبة من خطب الملاحم التي تتعرض إلى جانب من الأحداث الخطيرة التي تقع في المستقبل وتحذّر الناس من ضرورة التحلي باليقظة ومراقبة الذات بغية عدم التلوث بالظلم والفتن والفساد .فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه والاستعاذة بذاته المقدّسة من شر الشياطين فقال: «وَأَحْمَدُ اللّٰهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ مَدَاحِرِ[1] الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ[2] وَالإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ[3]». فالإمام عليه السلام يسأل الله تعالى في هاتين العبارتين التوفيق للطاعة والعبادة والاعتصام من الذنب والمعصية، فليس هنالك من وسيلة لابعاد «مداحر» الشيطان و«مزاجره» سوى طاعة الله وامتثال أوامره، وليست «حبائل» الشيطان و«مخاتله» سوى

---

1. «مداحر» جمع مدحر، بمعنى الأمر الذي يسبب طرد الشيء وإبعاده من مادة (دحور) بمعنى الطرد والإبعاد.
2. «مزاجر» جمع مزجر، بمعنى المانع من الشيء من مادة (زجر) بمعنى المنع.
3. «مخاتل» جمع مختل، المكيدة وهي الوسيلة التي يتمّ بها الخداع من مادة (ختل).

الذنوب والمعاصي.

ولا تبدو طاعة الله والاحتراز من الذنب والمعصية ممكنة دون تسديد الله وتوفيقه. وذلك لأنّ طريق الطاعة واجتناب المعصية صعب مليئ بالمطبّات والعوائق. ثم يقر لله بالوحدانية وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة فيقول: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ». وذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ «نجيبه» و«صفوته» بمعنى واحد هو الانتخاب والاصطفاء وكل منهما يؤكّد الآخر، والصحيح أنّ هنالك فارقاً بين المفردتين. بالنظر إلى أنّ النجيب يعني النفيس، والمفردة الأُولى في الواقع ممهدة للمفردة الثانية ؛ لأنّ الشيء يصطفى حين يكون نفيساً قيّما. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى صفتين من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «لَا يُؤَازَىٰ فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ» حقّاً يتعذر تعويض الشيء الذي لا نظير له حين يفقد. كما أشار في آخر صفة إلى آثار النبي صلى الله عليه وآله الوجودية في تلك الظروف التي شهدها عصر الجاهلية حيث أشرقت بنور وجوده البلاد التي كانت غارقة في لجج الضلالة والظلمة وقد استحوذ الجهل على أفكار أهلها فقست قلوبهم وطفحت بالجمود: «أَضَاءَتْ بِهِ ٱلْبِلَادُ بَعْدَ ٱلضَّلَالَةِ ٱلْمُظْلِمَةِ، وَٱلْجَهَالَةِ ٱلْغَالِبَةِ، وَٱلْجَفْوَةِ ٱلْجَافِيَةِ[١]». وذلك حين كان الناس يستحلون الحرمات ويحتقرون العلماء في ظل الفترة وغياب أولياء الله وهم يموتون على الكفر ومجانبة الدين «وَٱلنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ ٱلْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ ٱلْحَكِيمَ؛ يَحْيَوْنَ عَلَىٰ فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَىٰ كَفْرَةٍ!». فهذه الصفات السبع التي أوردها الإمام عليه السلام بعبارات مجملة بشأن عهد الجاهلية إنّما تجسد صورة رائعة عن ذلك الزمان الذي اتسم بالضلال، والجهل، والقسوة، واستحلال الحرمات، والإستخفاف بالعلماء، وانعدام وجود القائد والمرشد، والموت على الكفر.

وقد بلغ ضلال القوم مرتبة من الفضاعة إلى الحد الذي جعلهم يفخرون بجناياتهم

١. «الجفوة» بمعنى القسوة.

ويرون سفك الدماء ووأد البنات دليلاً على الغيرة، والسلب والنهب شجاعة، كما تأصلت لديهم معاني الجهل والخرافة حتى جعلهم يصنعون آلهتهم بأيدهم تارة من الخشب وأخرىٰ من الحجر وأخيراً من التمر، فإن جاعوا التهموها. وأمّا قساوة قلوبهم فقد تجذّرت في أعماقهم حتى توارثوا الحقد جيلاً عن جيل، فكانوا لا يأبهون بسفك الدماء وممارسة سائر المفاسد والانحرافات. وفي ظل هذه الظروف العصيبة يمكن إدراك عظمة النبي الأكرمﷺ ومعطياته في تلك الأجواء المتلفّعة بالظلمة، حتى استطاع خلال تلك الفترة القصيرة من النهوض بذلك المجتمع الخرافي الجاهل والمتخلف ليضعه في مصاف المجتمعات المتمدنة والمتحضرة.

٭٭٭

القسم الثاني

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ ٱقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَٱحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ ٱلْعِشْوَةِ، وَٱعْوِجَاجِ ٱلْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَٱنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَىٰ فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ ٱلْغُلَامِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ، يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ: يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ ٱلْمَتْبُوعِ، وَٱلْقَائِدُ مِنَ ٱلْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ».

الشرح والتفسير

الحذر من الفتنة

أخبر الإمام عليه السلام الناس في هذا المقطع من الخطبة بالفتن التي تنتظرهم إلى جانب تحذيرهم وإلفات نظرهم إلى خطورتها ليتحصنوا قدر المستطاع من ضربات تلك الفتن ويحدّوا من الخسائر، حيث أشار الإمام عليه السلام بعبارات لطيفة إلى مصادر هذه الفتنة وكيفية تبلورها ومرورها بمختلف المراحل فقال: «ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ ٱقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَٱحْذَرُوا بَوَائِقَ[1] النِّقْمَةِ». فقد ركّز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على عنصرين يقفان وراء الفتن؛ أحدهما سكرات النعمة، والآخر عقوبة الأعمال.

---

1. «بوائق» جمع بائقة، بمعنى الحادثة المهمّة والداهية المميتة من مادة (بوق) على وزن فوق، بمعنى الفساد.

وبيّن نتيجة تلك الفتن التي يعصف بلاؤها بالناس. ثم أوصى الناس بالتحلي باليقظة والحذر بغية التقليل من الخسائر حين تهب رياح الحوادث المعتمة وتستفحل الفتن عند ظهور اجنتها وانتصاب محورها وحركة رحاها «وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ[١] ٱلعِشْوَةِ[٢]، وَٱعْوِجَاجِ ٱلْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَٱنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا». فالأمام عليه السلام يشبّه الفتنة في هذه العبارة بالجنين الذي يترعرع بصورة خفية ويولد فجأة تارة، وتارة أخرىٰ يعدّها كالرحى التي يقام محورها بادئ الأمر ثم تدور حوله، وتشير الشواهد التاريخية إلى أنّ الفتن كذلك حقاً ،فهي مراحل تتبلور أثر بعض العوامل الاجتماعية المختلفة لتنفجر فجأة ويطفو على السطح مايعتصر في باطن المجتمع، ثم يتطرق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى الملامح الأخرىٰ لتبلور الفتن على أنّها تبدأ من مراحل خفية لتظهر في خاتمة المطاف بوجهها الخطير، وهي تنمو وتنتشر بسرعة على غرار نمو الشباب وتسدّد ضرباتها الموجعة إلى جسد المجتمع «تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَىٰ فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ[٣] ٱلْغُلَامِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ[٤]».

هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة في الفتنة التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه العبارة وحذّر منها ؛ ويبدو أنّ المراد بها فتنة بني أمية التي بدأت منذ عهد عثمان وبرزت بقتله ثم بلغت ذروتها إثر خلافة معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان ومن سار في فلكهم، وقد اتّضحت هذه الفتنة وتجلّت فضيحتها بشتم أمير المؤمنين علي عليه السلام من على منابر المسلمين وتلك الضربات التي وجهت إلى الإسلام بحيث لو وضعت على جبل لتصدّع.

---

١. «قتام» بمعنى الغبار.

٢. «العشوة» ركوب الأمر على غير بيان.

٣. «شباب» بكسر الشين أي بداياتها في عنفوان وشدة كشباب الغلام وفتوته،وقد وردت هذه المفردة بكسر الشين في بعض نسخ نهج البلاغة وبالفتح في البعض الآخر.

٤. «السلام» بكسر السين جمع سلمة، على وزن كلمة بمعنى الحجارة الصم.

ثم واصل حديثه بالإشارة إلى سائر خصائص هذه الفتنة «يَتَوارَثُـهَا الظَّـلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ». أجل فقادة الفتن على هذه الشاكلة يتوارثون فيما بينهم أسباب الفتنة ويسيرون جميعاً في خط واحد وباتجاه مشترك، ومن شأن هذا الانسجام والاتفاق والوراثة أن يضاعف أخطار الفتنة ويشعب آثارها السلبية، آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الأصلي لقادة الفتن والظلمة في أنّهم يتسابقون من أجل الظفر بهذه الدنيا الدنية ويتكالبون على حطامها كتهافت الكلاب على المزابل النتنة، فالواقع هم متحدون في الظاهر وينطلقون معا في مسار واحد، غير أنّهم يعيشون باطنيا حالة من الصراع والنزاع ويسعى كل فرد منهم لأن يكون رأس الفتنة ويقتفي آثاره الآخرون «يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ[1]».

ثم أشار عليه السلام بعبارة قصيرة وبليغة إلى عاقبتهم المريرة فقال: «وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ». لعل هذه العبارة إشارة إلى أصحاب الفتن من بني العباس.

رغم أنّهم اقتفوا آثار بني أمية في سلوك هذا النفاق والتكالب على الدنيا وتوجيه الضربات إلى أهل البيت عليهم السلام زعماء الأمّة الإسلامية وأئمتها، إلّا أنّ الظاهر أنّهم كانوا يلعنونهم ويتبرأون من أفعالهم، وكان شعارهم الذي أرادوا به خداع الناس «الرضا لآل محمد»، ففتكوا بفلول بني أمية وسفكوا دماءهم حتى سالت أنهار من الدماء وقضوا على تراثهم ونهبوا أموالهم، وذهب البعض من شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد من العبارة «وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»، لقاء الله ويوم القيامة، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[2] كما ورد في القرآن الكريم بشأن براءة المشركين من أئمتهم: ﴿وَيَوْمَ

---

١. «مريح» بمعنى النتن والعفن من مادة (ريح) بمعنى النتن.

٢. سورة البقرة، الآية ١٦٦.

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]. وعبارة «وَيَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ» تشبه هذه الفئة الطاغية المتهافتة على الدنيا بالكلاب التي تهجم على الميتة العفنة وينهش كل منها ما في يد الآخر وفمه، وياله من تشبيه بليغ رائع!

تأمّل

مميزات الحكام اتباع الهوى

يستفاد من العبارات المذكورة في خطبة الإمام عليه السلام أنّ الحكام الظلمة يتسمون ببعض المميزات التي يشهد بها التاريخ البشري، ومنها:

١. إثارة الفتن والبلابل بغية تحقيق الأهداف؛ الأمر الذي نشهده في استغلال بني أمية لقضية المطالبة بدم عثمان.

٢. الاتحاد والتنسيق في الانطلاقة والتواطيء في الخطط الهدامة وإثارة الفتن.

٣. اشتداد المنافسة حين الغلبة بحيث تبدو المجموعة وكأنّها حفنة من الكلاب التي تتكالب على جيفة ليحوز كل حصته من الآخر.

٤. لعن كل طرف للآخر في خاتمة المطاف وتحميله المسؤولية ولعل التاريخ بماضيه وحاضره شاهد حي على كلام الإمام عليه السلام.

ஐ

---

١. سورة الأنعام، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

القسم الثالث

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذٰلِكَ طَالِعُ ٱلْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَٱلْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ ٱسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ؛ وَتَخْتَلِفُ الأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَىٰ فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ ٱلْحُمُرِ فِي ٱلْعَانَةِ! قَدِ ٱضْطَرَبَ مَعْقُودُ ٱلْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا ٱلْحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا ٱلْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ؛ تَرِدُ بِمُرِّ ٱلْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ ٱلْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ! بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!».

الشرح والتفسير

خصائص هذه الفتنه الكبرى

أشار الإمام عليه السلام ـ في هذا المقطع من الخطبة ـ إلى فتنة مهمّة أخرىٰ تنتظر المسلمين، فتنة مرعبة وكاسرة وردت تفاصيلها في عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، على أمل أن يتعرف عليها المسلمون فينأوا بأنفسهم بعيداً عنها ولاجتناب من فداحة أضرارها. فقال عليه السلام: «ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذٰلِكَ طَالِعُ ٱلْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ[1]،

1. «رجوف» من مادة (رجف) على وزن حذف بمعنى شدة الاضطراب، وتطلق الأراجيف على الاشاعات التي تجعل المجتمع شديد الاضطراب.

وَالْقَاصِمَةِ[1] الزَّحُوفِ[2]، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلامَةٍ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا[3]».

ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بهذه الفتنة هنا فتنة المغول والتاتار، ولم يذكروا حسب اطّلاعنا احتمالاً آخر؛ إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً؛ لأنّ أهداف المغول لم تكن سوى نهب الأموال وخراب البلدان والسيطرة على الممالك الإسلامية؛ في حين أخبر الإمام عليه السلام بعبارات في هذه الخطبة عن فتنة تستهدف أفكار الناس ومعتقداتهم وتلقي بهم في غياهب الغي والضلال والاختلافات الفكرية والدينية. وعليه يمكن أن يكون المراد بها فتنة بني العباس التي أعقبت فتنة بني أمية والتي أشارت إليها العبارات السابقة. والواقع هو أنّ بني العباس وبني أمية وإن كانوا وجهين لعملة واحدة وسياسة شيطانية واحدة، إلّا أنّ بني أمية وكما صرّح زعيمهم معاوية كانوا لا يكترثون للصوم والصلاة وطقوس الناس الدينية، سوى -في المواقع- التي تصطدم بحكومتهم الغاشمة؛ بينما اخترق بنو العباس عقائد الأُمّة حتى ظهرت على عهدهم أغلب المدارس المنحرفة والمذاهب الفاسدة. كما اشتدت الاختلافات في بعض المسائل من قبيل «حدوث القرآن وقدمه» و«الجبر والتفويض» إلى جانب الخلافات بين «الأشاعرة والمعتزلة». وممّا لا شك فيه أنّ ذلك كان يجري وفق خطة مرسومة حتى أنّهم كانوا يشجعون العلماء والمفكرين لإثارة مثل هذه المباحث بهدف الاستمرار في السلطة. طبعاً لا نزعم أنّ بني أمية تخلوا مطلقاً عن هذه الأمور، لكننا نقول ليس لمثل هذه المباحث من ظهور آنذاك كالذي أصبح عليه بنو العباس، كما يبدو، مستبعداً أيضاً. الاحتمال الآخر الذي ذكره بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ هذا الكلام إشارة إلى فتنة «الدجال» في آخر الزمان

---

١. «قاصمة» من مادة (قصم) على وزن خصم بمعنى الكسر مع الشدّة.

٢. «زحوف» من مادة (زحف) على وزن حرف بمعنى الثقل في المشي وتطلق على حركة الجيش الكثير، وزحوف في العبارة إشارة إلى الافتتان الذي يستشري في المجتمع.

٣. «نجوم» وردت هنا بالمعنى المصدري وهو الظهور.

الذي يضل فئة من الناس.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى شدّة تلك الفتنة قائلاً: «مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَىٰ فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادَمُونَ[1] فِيهَا تَكَادُمَ ٱلْحُمُرِ[2] فِي ٱلْعَانَةِ» وهذه العبارة تأكيد لما ذكر في الكلام السابق بشأن الفتنة الأولى من أنّ رؤوس الفتنة متحدون بادىء الأمر، أنّهم سرعان ما يسعون لطرد كل منهم الآخر عند الغلبة، ثم تطرق إلى أوضاع الناس الدينية والأخلاقية آنذاك فقال: «قَدِ ٱضْطَرَبَ مَعْقُودُ ٱلْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ ٱلْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا ٱلْحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا ٱلظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا[3]، وَتَرُضُّهُمْ[4] بِكَلْكَلِهَا[5]». نعم، حين يغيب العلماء عن مسرح الأحداث تؤول الأمور إلى الظلمة ليقولوا ما يريدون ويحملوا الآخرين على فعل ما يشاؤون، آنذاك تعم الفتنة لتشمل البلاد بأسرها وتأتي على القرى الصغيرة والنائية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن فضاعة أخطار هذه الفتنة (حيث يصبح الوضع بالشكل الذي) يضيع في غبارها المشاة من الأفراد وتهلك فيها الفرسان: «يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا ٱلْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا ٱلرُّكْبَانُ». إشارة إلى أنّ الفتنة على درجة من القوّة بحيث يكفي غبارها لقمع المعارضين المتفردين، كما تعصف بالجمع الكثير منهم إن اعترضوا سبيلها، بالتالي ليس لأحد القدرة على مواجهتها والصمود بوجهها.

قال بعض شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة، إنّ المراد بـ «الوحدان»، العلماء والفضلاء الذين يبتلون بغبار الشبهات ويضيعون الحق، والركبان كناية عن الفئات المقتدرة التي لا تقوى أيضاً على مقاومة رؤوس الفتنة وتهلك في مواجهتها؛

---

١. «يتكادمون» من مادة (كدم) على وزن شرم بمعنى العض والتكادم أن يلتحم حيوانان فيعض كل منهما الآخر.

٢. «حمر» جمع حمار، بمعنى الحمار الوحشي هنا بقرينة العانة وهي الجماعة من حمر الوحش.

٣. «مسحل» من مادة (سحول) بمعنى الفأس والمبرد وما شابه ذلك ممّا يبرد به الشيء.

٤. «ترض» من مادة (رض) التهشيم.

٥. «كلكل» بمعنى الصدر.

إلّا أنّ التفسير الأول أقرب، لأن «الوحدان» إشارة إلى الأفراد الوحيدين أو المشاة، و«الركبان» إلى الأفراد الأشداء أو الفرسان.

ثم قال عليه السلام: «تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ[1] الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ»، أجل حين ينحّى الأكياس والحكماء ويتسلم الأراذل والأرجاس زمام الأمور تتصدع عرى الإيمان وتستفسخ عقد اليقين وتتعرض أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم إلى الخطر.

ويختتم الإمام عليه السلام بيانه لخصائص هذه الفتنة العظيمة بالقول: «مِرْعَادٌ[2] مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلاَمُ! بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!». و«مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ»، صفات كنائية لشدّة هول هذه الفتنة، لأن هذه العبارات عادة ما تستعمل بهذا المعنى، رغم أنّ بعض الشراح عدوا ذلك إشارة إلى أصوات ضربات السيوف وبرقها، غير أنّ المعنى الأول أنسب. وعبارة «كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ» كناية عن شدّة مشقتها؛ لأنّ الإنسان يشمر عن ذراعه وساقه عادة إن همّ بإتيان عمل شاق. وعبارة «تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ» إشارة إلى أنّ رؤوس الفتنة لا يرعون في أخ وأب وأم إلاً ولا ذمة ويذبحون كل من يعترض طريقهم ولتحقق رغباتهم.

ومن الطبيعي أن تغيب التعاليم الإسلامية في ظل هذه الظروف، وأخيراً عبارة «بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!» إشارة إلى أنّ الفتنة تطال حتى من يعتقد بأنّه بعيد عن مخاطر هذه الفتنة، كما يقع فيها حتى من ظن باستطاعته الهرب منها، فهي فتنة كاسرة قاصمة قلّ من ينجو منها.

⁂

1. «عبيط» من مادة (عبط) على وزن خبط بمعنى قطع رأس الحيوان ويقال الدم العبيط للدم الطري الذي يجري من بدن الإنسان أو الحيوان.
2. «مرعاد» من مادة (رعد) الشيء العظيم الصوت والمبراق من مادة (برق) الشيء البراق الذي يخطف الأبصار.

القسم الرابع

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ ٱلْأَيْمَانِ وَبِغُرُورِ ٱلْإِيمَانِ؛ فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ ٱلْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ ٱلْبِدَعِ؛ وَٱلْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ ٱلْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ؛ وَاقْدَمُوا عَلَى ٱللّٰهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ؛ وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ ٱلْعُدْوَانِ؛ وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ ٱلْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح والتفسير

التكليف حين الفتنة

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى عدم إرتباط هذا الجانب من الخطبة بما سبقه من كلام، وقد اختاره السيد الرضي جرياً على عادته في الاقتطاف ولم يذكر الكلام الذي سبقه؛ والحال هنالك ارتباط وثيق بين هذا المقطع من الخطبة وما سبقه من مقاطع، حيث تصدت المقاطع السابقة لبيان الفتن التي تنتظر الناس وأهم مميزاتها، وانتقلت هنا إلى نتائجها ووظيفة الأمّة في ظلها، فقد استهل الإمامعليه السلام كلامه هنا قائلاً: «بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ[1]، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ»، ثم واصل كلامه بالقول: «يَخْتِلُونَ[2] بِعَقْدِ ٱلْأَيْمَانِ وَبِغُرُورِ ٱلْإِيمَانِ».

أجل فرأس الفتنة يتشبث بكل وسيلة لتحقيق مآربه الشيطانية من قبيل ممارسة

---

١. «مطلول» من هدر دمه من مادة (طل) على وزن حل بمعنى هدر الدم.

٢. «يختلون» بمعنى (يخدعون) من مادة (ختل) على وزن قتل بمعنى الخداع.

القتل والقمع والتظاهر بالايمان إن اقتضت الضرورة واعطاء الأمان لبعض الأفراد ومن ثم ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظائف الناس في ظل هذه الفتن والإرباكات فأورد خمس تعليمات لأصحاب الحق فقال في وصيّه الأولى: «فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ» إشارة إلى اعتزال هذه المعركة الخطيرة دون التعاون مع رؤوس الفتنة وأصحاب البدعة.

والوصية الثانية: «وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ» والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة إشارة إلى ضرورة الالتزام بالقوانين والتعاليم الشرعية التي تضمن طاعة الله وبقاء المجتمع الإسلامي ورعايتها قدر المستطاع في ظل نشوب الفتن، ذلك لأنّه إن كان هنالك من سبيل للنجاة من الفتنة إنّما يتمثل في الالتزام بهذه التعاليم، والكلام يشمل بالطبع التعاليم الإسلامية الواردة بهذا الخصوص من قبيل الجمعة والجماعة والحج والتكافل الاجتماعي، وهي الأمور التي تؤدي إلى النجاة من الفتنة.

وقال في الوصية الثالثة: «وَاقْدَمُوا عَلَى اللّٰهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ»، طبعاً ليس مفهوم العبارة الاستسلام للظلم والاستجابة للظالم؛ فهذا الأمر منهي عنه في الإسلام وهو نوع من إعانة الظالم على الظلم، لكن المراد إن خيرتم بين أمرين إمّا أن تهضم حقوقكم أو تهضموا حقوق الآخرين، فما عليكم إلّا أنّ تغضوا الطرف عن حقوقكم لكي لا تدنسوا أنفسكم بظلم الغير، ومثل هذا الأمر عادل ومرضي لله على ضوء قاعدة تقديم الأهم على المهم.

الوصية الرابعة: «وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ» أي لا تقتربوا من الخطوط الحمراء (الظلم والفساد)، والتعبير بـ «المدارج» و«المهابط» إشارة إلى نكتة لطيفة، أي أنّ الشيطان يرفع الإنسان من سلم الطغيان، فإن بلغ القمة قذف به إلى الأسفل، وأحياناً يهوي به إلى أودية المعصية ليزل قدمه فتهوي به إلى أعماق الكبائر.

والوصية الخامسة والأخيرة: «وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ[1] الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ». لا شك في أنّ الأموال الحرام تزداد في أيدي الناس في ظل حكومة الظلمة وبروز الفتن والاستفادة من تلك الأموال تنعكس سلباً على الإنسان، فهي تسود القلب وتبعد الإنسان عن الله وتسوقه لاتباع خطوات الشيطان. فالإمام عليه السلام يحذر من الحرام ويلفت نظرهم إلى عدم غلق الرحمن لأبواب الطاعة والكسب الحلال قط، فالله يترك الباب مفتوحاً في كل الظروف بوجه عباده لممارسة الطاعة والنجاة من الفتنة. قال العلّامة مغنية: «إنّ أفضل تفسير لهذه العبارة وما بعدها ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة ١١٤ إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ».

۞۞

---

١. «لعق» جمع لعقة، الشيء القليل، وما تأخذه من طعام بالملعقة.

١٥٢

ومن خطبة له عليه السلام

في صِفَاتِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَصِفَاتِ أَئِمَّةِ الدِّينِ[١]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة بصورة رئيسية من ثلاثة أقسام. أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى بعض النقاط المهمّة بشأن صفات الله التي صرح فيها بعض شرّاح نهج البلاغة بأنّها لم ترد في أي كتاب وهي أعظم من تلك المطالب التي ذكرها الفلاسفة والحكماء والعرفاء بشأن صفات الله. بينما أشار في القسم الثاني إلى المنزلة الرفيعة لزعماء الدين وأئمة الهدى ومقامهم عند الله وموقعهم في المجتمع البشري، وتحدث الإمام عليه السلام في القسم الثالث عن نعمة الله الكبرى أي الإسلام والقرآن، فذكر بعض النقاط الرقيقة بشأن هذا الكتاب السماوي ليقف المسلمون على عظمة الكتاب وينهلوا من فيضه العذب.

---

١. سند الخطبة:

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد تسلّمه الخلافة .هذا ما ذكره ابن أبي الحديد والذي يدل على أنّه وجدها في مصدر آخر غير نهج البلاغة ؛ وذلك لأنّ نهج البلاغة لم يشر إلى هذا الموضوع، كما روى المرحوم الكليني بعضها في الجزء الأول من أصول الكافي، وأشار الآمدي في غرر الحكم إلى بعض جوانب الخطبة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤٤).

القسم الأول

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الدَّالِّ عَلَىٰ وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ؛ وَبِاَشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ. لَا تَسْتَلِمُهُ ٱلْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَٱلْمَصْنُوعِ، وَٱلْحَادِّ وَٱلْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَٱلْمَرْبُوبِ؛ ٱلْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَٱلْخَالِقِ لَا بِمَعْنَىٰ حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ، وَٱلْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ، وَٱلْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ، وَٱلْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ. بَانَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ ٱسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ.

الشرح والتفسير

شمة من صفات الله الجمالية والجلالية

كما ذكر آنفاً فإنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد أن بايعته الأمة أثر نقمتها على عثمان وبطانته وقتلها إيّاه، استهل الإمام عليه السلام الخطبة بمعرفة الله وبيان صفاته الجلالية والجمالية؛ كونها دعامة السعادة والفلاح والصلاح الفردي والاجتماعي. وقد ذكر ثمان صفات في عبارات قصيرة عميقة المعنى بما يعجز الفلاسفة والمتكلّمون عن الوقوف على كنهها.

فقد قال عليه السلام: «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الدَّالِّ عَلَىٰ وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ» أجل، حين نتأمل عجائب

الخلقة إلى جانب الأسرار والنظم التي تكتنف خلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان لا نملك سوى التسليم بأنّ هنالك إرادة حكيمة وقادرة عالمة وراء كل تلك الآثار البديعة التي لا يسعها أن تكون وليدة هذه الطبيعة الصماء، وهذا هو برهان النظم الذي أشار إليه القرآن الكريم والروايات الإسلامية بفضله أدل دليل على معرفة الله.

ثم قال في بيان الصفة الثانية: «وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ» والعبارة في الواقع إشارة إلى برهان الوجوب والإمكان؛ ذلك أنّ سلسلة المخلوقات التي ارتدت لباس الوجود خلف بعضها البعض لا يمكنها الاستمرار إلى مالانهاية فكل حادث مخلوق، لأنّ عدم تناهي المعلول يحتاج بالتالي إلى علّة أزلية وغنية عن الخلق والتي يصطلح عليها بواجب الوجود.

وقال في الصفة الثالثة: «وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ» والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يكون تشابه المخلوقات دليلاً على عدم الشبيه لله ؟ الجواب : أنّ هذا الشبه دليل على تركب هذه المخلوقات، لأنّ لها قدراً مشتركاً من قبيل الزمان والمكان وبعض الإشكال والعوارض الظاهرية، كما هنالك بعض الجهات المختلفة التي تميزها عن بعضها. وبناءً على هذا فإنّ كل مخلوق مركب ممّا به الاشتراك وما به الامتياز (الجهات المشتركة والجهات المختلفة) ومن الطبيعي أن تكون هذه المخلوقات المركبة محتاجة (محتاجة إلى أجزائها ومن يركبها) ومن هنا نفهم أن لا شبيه لله وإلّا للزم التركيب والحاجة على ذاته المقدّسة.

وقال في الصفة الرابعة والخامسة: «لَا تَسْتَلِمُهُ[1] ٱلْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ ٱلسَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَٱلْمَصْنُوعِ، وَٱلْحَادِّ وَٱلْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَٱلْمَرْبُوبِ» والدليل واضح على تعذر بلوغ مشاعر الإنسان بما فيها الحواس الظاهرية والباطنية والعقل كنه ذاته المقدّسة؛ فهو وجود غير محدود ولامتناهٍ من جميع الجهات، والعقل البشري

١. «تستلمه» من مادة (الاستلام) بمعنى الاتصال بالشيء.

محدود من جميع الجهات، وغير المحدود لا يسعه المحدود مطلقاً. من جانب آخر فقد ملأت آثار وجوده أركان العالم بأسره بحيث لا يسع شيء حجبها، فذاته خفية على الجميع وآثاره ظاهرة للجميع.

والعبارة «لافْتِرَاقِ الصَّانِعِ...» دليل على خفاء ذاته المقدّسة وظهور آثاره، لاختلاف الخالق والمخلوق والحاد والمحدود والرب والمربوب. فالمصنوع الممكن الوجود لا يمكنه إدراك الصانع الواجب الوجود، والمخلوقات المحدودة لا يسعها درك الخالق اللامحدود والموجودات الخاضعة لربوبية الرب يتعذر عليها إدراكه كما هو. جدير بالذكر أنّ طائفة من شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلى أنّ هذه استدلالات على جميع الصفات المذكورة سابقاً. إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب.

وقال في بيانه للصفة السادسة والسابعة: «ٱلْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَٱلْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ[1]» فحين يقال: الله واحد يتصور البعض أن مفهوم ذلك أنّه واحد وليس بثان، وهذا خطأ محض؛ لأنّ مفهوم هذا الكلام إمكانية تصور ثانٍ له ولكن لا وجود له؛ والحال لا يمكن تصور ثانٍ لذاته المقدّسة، وهل يمكن تصور التعدد في الذات اللامحدودة من جميع الجهات؟! لو تصور التعدد لكان كلاهما محدوداً. وعليه فتوحيد الذات الإلهية ليس بمعنى الوحدة العددية، بل بمعنى الوحدة بالنسبة للشبيه والنظير وما شاكل ذلك، لا في الذهن ولا في الخارج. وحين يقال: قد يقتدح إلى ذهن البعض أنّ الخالق شمّر عن ساقيه ويديه وانطلق من هنا إلى هنالك واجهد نفسه لخلق الموجودات؛ على غرار ما نقوم به حين نصنع بعض الأشياء. كلا: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

ثم تطرق إلى الصفة الثامنة والتاسعة فقال: «وَٱلسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ، وَٱلْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ». والتوضيح الذي أورده الإمام عليه السلام منشأ ما يتوارد إلى الأذهان حين الحديث

---

١. «النصب» بمعنى التعب والمشقة.

٢. سورة يس، الآية ٨٢.

عن السمع والبصر وما شابه ذلك إلى سمعنا وبصرنا الذي يتمّ من خلال بعض الوسائل من قبيل الاذن والعين، والحال سمعه وبصره سبحانه ليس بأداة، بل بحضور ذاته المطلقة في كل مكان وفي ظاهر جميع الأشياء وباطنها. العبارة «لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ» يمكن أن تكون إشارة إلى نقطة وهي أنّ الإنسان إذا أراد رؤية صورة كاملة ـ بيت مثلاً ـ ينبغي له أن يركز بصره على مختلف جوانب ذلك البيت، ليرى أعلاه وأسفله وشرقه وغربه، وتنتقل عدّة صور إلى الدماغ ليقوم بترتيبها للظفر بصورة صحيحة تامة عن البيت. وبناءً على هذا فوظيفة العين الأولى، التقاط الصور المستقلة، والثانية، تحويلها إلى الدماغ ليركبها مع بعضها. وهكذا بشأن مشاهدة حركة معينة ـ كحركة إنسان مثلاً ـ والعملية أشبه بالتقاط الأفلام والتصوير، حيث تلتقط العين كل لحظة صورة لشكل ذلك الإنسان وهيئته، ثم تنقلها إلى الدماغ ليركب هذه الصور واظهار الحركة.

قال في بيانه للصفة العاشرة والحادية عشرة: «وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ». إشارة إلى أنّ حضور الله في كل مكان لا بمعنى الحضور المكاني من خلال الاتصال بالأشياء، بل حضوره بمعنى احاطته الوجودية بكل شيء، كما أنّ مباينته عن الأشياء ليس على نحو المسافة المكانية أو الزمانية، بل بمعنى أنّ ذاته في ذروة الكمال وما سواه في غاية النقص. لعل هنالك من يتصور تناقض هذه الصفات مع تلك التي ستأتي، فالبعد والقرب والعلو والدنو والظاهرية والباطنية من الصفات التي لا يسع تفكيرنا جمعها مع بعضها؛ والأمر كذلك بالنسبة لهذه الصفات أن استعملت بشأن المخلوقات المحدودة من حيث الزمان والمكان ومختلف الجهات، غير أنّ هذه الصفات المتضادة يمكن جمعها في الذات المقدّسة اللامتناهية، فرغم حضوره المطلق في كافة الأمكنة (بمعنى إحاطته العلمية بجميع الأشياء) لكن ليس له حضور مكاني في أي مكان، ذلك لأنّه ليس بجسم ليحتاج إلى مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان الصفة الثانية والثالثة عشرة فقال: «وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ» أجل، فهو أظهر جميع الأشياء، فآثاره قد ملأت العالم بأسره فاصبح الوجود قبساً من صفات جلاله وجماله، وهو خفي لا على شاكلة الأشياء اللطيفة الغاية في الصغر كالهواء، بل بمعنى عجز العقول عن إدراك كنه ذاته.

والصفة الرابعة عشرة: «بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ» أي إن قيل إنّ الله بائن عن كل شيء، فذلك لا يعني أنّه بعيد عنّا، بل هو قريب منّا بمقتضى الأدلة الفلسفية القطيعة وصريح الآية القرآنية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، والمعنى أنّ قدرته قهرت كل شيء، فأين نحن من الله، وأين الثرى من الثريا؟ كما أنّ بينونة الأشياء عنه تعني خضوع كل شيء لإرادته.

وقال في الصفة الخامسة عشرة التي تنزه الذات عن الوصف: «مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ[2]».

وتوضيح هذا الكلام: إننا كمخلوقات نعيش في عالم الممكنات إنّما نقارن كل شيء بالنسبة لنا، ونصف الله في أغلب الأحيان بأوصافنا الناقصة والمحدودة فنضفي عليه بعض صفات الممكنات وهذا هو وادي التشبيه الخطير الذي حذرتنا الآيات والروايات من السقوط فيه. ومن هنا قال الإمام عليه السلام من وصف الله بهذه الصفات فقد حده ومن حد الله فإنّه سيتصور له شبيها لا محال وعليه سيجعله في قالب الأعداد فإن فعل ذلك أنكر عليه أزليته وأبديته. ذلك لأنّ هاتين الصفتين ترشحان من ذاته الغنية عن الحدود، كما أنّ من يسأل عن كيفية ذاته فقد نعته بصفات المخلوقات، ومن سأل عن مكانه أو زمانه فقد افترضه جسماً يقع ضمن

---

١. سورة ق، الآية ١٦.

٢. «حيزه» من مادة (حيز) بمعنى المكان.

دائرة المكان والزمان. ولعل هنالك من يرى الوصف المذكور ليس بقوة الأوصاف السلبية الثلاث عدم الحدودية ونفي الكيفية ونفي المكان على الذات المقدّسة.

أمّا الصفات السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة، فقال في بيانهاعليه السلام: «عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ». إمّا أنّه عالم إذ لا معلوم فذلك لأنّه عالم بذاته وذاته مصدر جميع الموجودات، وعليه فالعلم بالذات هو في الواقع علم بجميع الموجودات التي لبست ثوب الوجود تدريجياً في العالم. وإمّا أنّه ربّ قبل وجود الموجودات فذلك لأنّ القدرة على الربوبية وربوبية الموجودات عين ذاته المقدّسة، على غرار قولنا: إنّ فلاناً مديرا ومدبرا في الوقت الذي لم يتسلّم فيه لحدّ الآن زمام الإدارة.

وأخيراً إن قيل هو قادر قبل وجود المقدور فإنّما يستند ذلك أيضاً إلى أنّ قدرته عين ذاته، وهكذا كقولنا إنّ فلاناً قادر على القيام بالعمل الفلاني ولم يقم به لحدّ الآن. وزبدة الكلام فإنّ صفاته كالعلم والقدرة وجميع الصفات الثبوتيه عين ذاته تبارك وتعالى، وعليه فقد كان كل شيء قبل أن يوجد أي شيء، ولو تمعنا قليلاً فهو الآن كل شيء وكل ما سواه لا شيء.

***

القسم الثاني

منها: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَاحَ لَائِحٌ، وَاَعْتَدَلَ مَائِلٌ؛ وَاَسْتَبْدَلَ اَللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً؛ وَاَنْتَظَرْنَا اَلْغِيَرَ اَنْتِظَارَ اَلْمُجْدِبِ اَلْمَطَرَ. وَإِنَّمَا اَلْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اَللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ اَلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَا يَدْخُلُ اَلنَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اَللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاَسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذلِكَ لِأَنَّهُ اَسْمُ سَلَامَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ. اَصْطَفَى اَللَّهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكَمٍ. لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لَا تُفْتَحُ اَلْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ اَلْمُسْتَشْفِي، وَكِفَايَةُ اَلْمُكْتَفِي».

الشرح والتفسير

إنتظار الفرج

يعتقد البعض من شرّاح نهج البلاغة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ بأنّ هذه الخطبة ولاسيما هذا المقطع منها يعالج مسائل الخلافة عقب مقتل عثمان وبيعة الأُمّة للإمام عليه السلام بالخلافة، والشاهد على ذلك عباراتها وخاصة مايتعلق بأئمة المسلمين. على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام أشار هنا باديء الأمر إلى ظهور خلافة الحق فقال: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَاحَ لَائِحٌ، وَاَعْتَدَلَ مَائِلٌ» تفيد هذه العبارات بما لا يقبل الشك أنّ عهد حكومة عثمان كان من العهود المظلمة في التاريخ الإسلامي، وذلك لأنّ بطانته وقرابته استأثرت بالسلطة وتسلطت على كافة المقامات المهمّة في البلاد

وجعلت بيت المال جزءاً من ملكيتها الشخصية فتعالت صرخات المحرومين إلى عنان السماء، ثم أشرقت من بعده شمس العدالة واحترقت سحب الظلم لتعود الحكومة إلى سابق عزّها على عهد النبي الأكرمﷺ. جدير ذكره، هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن العبارات الثلاث الأولى، هل العطف فيها عطف تفسيري وأنّها تبيّن مطلباً واحداً (بزوغ شمس ولاية الحق) بعدّة عبارات، أم أنّ كل عبارة تشير إلى معنىً معين. ويبدو الصحيح أنّ لكل عبارة معنىً معيّن؛ لأنّ الشمس إنّما تجتاز ثلاث مراحل حين البزوغ؛ الأولى: الخروج من الأفق، والثانية: نشر شعاعها على سطح الأرض، والثالثة: ارتفاع قرص الشمس وتوسطها للسماء وطلوعها للجميع. وكل عبارة من العبارات الثلاث تشير إلى مرحلة من هذه المراحل ؛ أي أشرقت شمس الولاية وألقت بأشعتها على الأرض وبالتالي ارتفعت لتستقر في قلب السماء.

ثم واصلعليه السلام كلامه بالقول: «وَٱسْتَبْدَلَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً؛ وَٱنْتَظَرْنَا ٱلْغِيَرَ ٱنْتِظَارَ ٱلْمُجْدِبِ ٱلْمَطَرَ». حيث تشير هذه العبارات بوضوح إلى أنّ الحوادث التي وقعت على عهد عثمان لم تكن بعيدة عن التوقع، فكلّ شخص عاقل كان يتكهّن بأنّ مثل هذه الحكومة التي تتسلم فيها القرابة مقدّرات البلاد دون رادع أو وازع سوف لن يكتب لها النجاح وأنّها ترعرع نطفة الثورة في رحمها، وهذه سنّة إلهية جارية طيلة التاريخ، ولعل مَن أشكل على عليعليه السلام ما ورد في هذه العبارة أنّه كان ينتظر مقتل عثمان، قد غفل عمّا ذكرناه آنفاً من أنّ تلك الأحداث كانت متوقعة من قبل شخص فطن، بعبارة أخرى إنّما كان ذلك نتيجة طبيعية لتلك الأعمال. أضف إلى ذلك فإنّ الإمامعليه السلام لم يكن راضياً بقتل عثمان ـ بل ينتظر التغييرات على غرار من ينتظر المطر حين الجفاف؛ ويا له من تعبير رائع! فالبلاد الإسلامية أصبحت إثر ظلم بطانة عثمان وكأنّها صحراء مقفرة وقد أمطرتها السماء بزوال عثمان وظهور حكومة العدل العلوي، وقد تعرض ابن أبي الحديد المعتزلي لهذه القضية من خلال

إثارته لسؤال والإجابة عنه.

فقد سأل نفسه بادىء الأمر: هل يصح حسب عقيدة المعتزلة أن ينتظر علي عليه السلام قتل عثمان انتظار نزول المطر حين الجفاف؟ أو ليس هذا دليلاً على حقّانية الشيعة؟ ثم قال ابن أبي الحديد في مقام الجواب عن هذا السؤال: إنّ علياً عليه السلام لم يقل كنّا ننتظر قتله، بل كان ينتظر بعض التغييرات كعزله عن الخلافة، لأننا نعتقد أنّه كان يرى أعماله توجب ضرورة عزله لا قتله، وهذا ينسجم مع عقيدتنا. كما تعرّض لسؤال آخر وهو: هل تعتقد المعتزلة أنّ علياً عليه السلام كان يعتبر عثمان فاسقاً يجب عزله عن الخلافة؟ فيجيب: إنّ المعتزلة لا ترى ذلك، بل تعتقد إنّ علياً عليه السلام كان يرى عثمان شخصاً ضعيفاً لا يستطيع تدبير أمور المسلمين، وذلك لأنّه قرب بطانته وسلّطهم على بيت مال المسلمين حتى قاموا عليه[1].

ثم تطرّق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى منزلة أئمة الهدى فقال: «وَإِنَّمَا الأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ[2] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ». وهذه العبارة تفيد أنّ نصب الإمام عليه السلام من قبل الله تعالى لا من قبل الناس وإن كانت هنالك من بيعة وإنتخاب فبغية تنسيق الأعمال والنهوض بمستوى الأُمّة وتطوير شؤونها، والمفردة «قُوَّام» إشارة إلى تدبير شؤون الخلق والعرفاء جمع عريف إشارة إلى أنّ هؤلاء الأئمة بفعل معرفتهم بالآخرين وعلمهم بالظروف الزمانية والمكانية وخبرتهم بمصالح الناس ومفاسدهم إنّما يضعون كلّ فرد في موضعه المناسب ويباشرون كلّ عمل بموعده وفي وقته. وأمّا العبارة «وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ...وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ» تأكيد لما قيل في العبارات السابقة؛ فلو سلّمنا أنّهم نُصبوا من قبل الله، فمن تبعهم وسار على نهجهم وقبلوا عمله كان من الداخلين إلى الجنّة، ومن أنكرهم فقد أنكر في واقع الأمر أوامر الله.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٥٣.

٢. «عرفاء» جمع عريف، بمعنى رئيس القوم الذي يدير أمورهم ويعرفه جميعهم.

ومثل هذا الفرد يدخل النار. وطبعاً كلّ هذه العبارات تنسجم مع المدرسة الشيعية التي ترى نصب الإمام من قبل الله بواسطة النبي أو مَن سبقه من إمام، وتراه معيار الفرقان بين الحق والباطل، وتعتقد بعدم اتّصاف من يختاره الناس بهذه المقامات ولعله يسير فيهم بالخطأ والظلم والعدوان، ومن هنا ورد في الحديث الشريف: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةَ الجَاهِلِيةِ»[1] والغريب إصرار ابن أبي الحديد على أنّ هذه العبارة صادقة على جميع الخلفاء من بعد النبيﷺ والحال عرض الإمامعليه السلام في العبارات السابقة بالذم الشديد لحكومة عثمان؛ الأمر الذي يتناقض صراحة مع ما استنبطه ابن أبي الحديد. بل كيف يكون ذلك الخليفة الضعيف ـ الذي جعل كافة مناصب الدولة الإسلامية وبيت مال المسلمين ومقدّراتهم تحت تصرف قرابته الانتهازية الهزيلة من عبدة الأهواء حتى قامت ضدّهم جموع المسلمين وأباحوا دماءهم وقد صمت إزاء ذلك أغلب الصحابة ـ مصداقاً لقول الإمامعليه السلام: قوّام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده؟ ليدخل من أذعن له الجنّة ومن أنكره النار؟! ورد في الحديث الشريف أنّ النبي الأكرمﷺ قال لأمير المؤمنين عليعليه السلام: «ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ أَنَّهُنَّ حَقٌ، إِنَّكَ وَالأَوصِيَاءِ مِنْ بَعدِكَ عُرَفَاءُ، لا يُعْرَفُ اللهَ إِلاّ بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِكُم، وَعُرَفَاءُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاّ مَنْ عَرَفَكُم وَعَرَفْتُمُوه، وَعُرَفَاءُ لا يَدْخُلُ النَّارَ إِلاّ مَنْ أَنْكَرَكُم وَأَنْكَرْتُمُوهُ»[2].

ثم أشار الإمامعليه السلام إلى أعظم النعمة التي منّ الله بها على المسلمين: «إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ خَصَّكُمْ بِالإِسْلامِ، وَٱسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ» أجل، إنّ الله تعالى خصّكم بهذه النعمة العظيمة ورآكم أهلاً للذود عنه.

ثم أضاف: «وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلاَمَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ». ووضح ذلك بالقول: «ٱصْطَفَىٰ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ مَنْهَجَهُ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكَمٍ». لعلّ

---

1. أصول الكافي، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٨؛ بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣ ومستدرك الوسائل، ج ١٨، ص ١٨٧.
2. خصال الصدوق، باب الثلاثة، ح ١٨٣.

الضمير في «منهجه» و«حججه» يعود إلى الله أو الإسلام والنتيجة واحدة لكليهما، والعبارة «ظَاهِرِ عِلْم» إشارة إلى الأدلة العقلية التي تثبت حقانية الإسلام، كما أنّ العبارة «بَاطِنِ حِكَمٍ» إشارة إلى أسرار الأحكام الشرعية المبيّنة في الأدلة النقلية. نعم، الإسلام دين السلامة وشرعة الكرامة، ودعوته أينما كان إلى الحب والسلام والوئام والتحذير من البغض والعنف والعداوة حيث يخاطب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]. أضف إلى ذلك فإنّه مصدر الكرامة الإنسانية وداعية العدل والمساواة والحرية وتنمية الفكر والبيان والورع والتقوى ومكارم الاخلاق. والحق أنّ المسلمين أفضل سند ودرع للذود عن الإسلام وقد ضحّوا بالغالي والنفيس طيلة التاريخ من أجل إسلامهم وسعوا جاهدين لحفظ بيضته وكيانه. ولما كانت هذه العبارات تختزن إشارة واضحة إلى القرآن الكريم، فقد أردفها ببيان خصائص هذا الكتاب السماوي بما يربو على عشر صفات فقال: «لَا تَفْنَىٰ غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ[2] النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ. لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ» فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى ست صفات مهمة للقرآن الكريم كل واحدة منها أروع من الأخرى، فذكر باديء الأمر أن غرائب القرآن (صفاته البارزة الفريدة) لا تفنى أبداً ولا يعتريها غبار القدم فتتآكل، فهي غضّة طرية على الدوام، وأشار في الصفة الثانية إلى التجدد والحيوية التي تبدو عليه كلّ يوم فقال: إنّها لا تنقضي؛ وعليه فالفارق بين «الغرائب» و«العجائب» و«الفناء» و«الانقضاء» أن الأولى إشارةالصفات البارزة التي كان وسيظل يتحلى بها القرآن، والثانية إشارة إلى نقاط مهمّة تظهر كلّ يوم من تقادم الزمان وكثرة القراءة. وهذا ما ورد في الحديث المروي

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

٢. «مرابيع» جمع مرباع، على وزن مثقال بمعنى المكان ينبت نبته في أول الربيع. وقال بعض: المطر الذي ينزل أول الربيع.

عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل: «ما بالُ القُرآنِ لا يَزدادُ علىٰ النَّشرِ وَالدَّرسِ إلّا غَضاضَةً؟ قالَ: لأنَّ اللهَ تَعالىٰ لَمْ يَجْعَلْهُ لِزمانٍ دُونَ زَمانٍ وَلا لِناسٍ دُونَ ناسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمانٍ جَدِيدٍ وَعِنْدَ كُلِّ قَومٍ غَضٌّ إلىٰ يَومِ القِيامَةِ»[1].

ثم شبّهه في الصفة الثالثة بالأرض المليئة بالنبات وتفيض بالنعم في فصل الربيع، ونعلم جميعاً ما عليه نبات الربيع من طراوة ولطافة وطعم عذب، كما شبّهه في الصفة الرابعة بمصابيح النور التي تخترق دهاليز الظلمة وتضيء بنورها كلّ شيء، بينما حصر في الصفتين الخامسة والسادسة سبل نيل الخيرات بالقرآن، إشارة إلى خطأ من يبحث عن مفاتح الخير خارج القرآن ويستعين بغيره في ضياء عتمة القلب وظلمة المجتمع.

ثم اختتم كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخر في أنّ القرآن قد أوضح الحلال والحرام والمباح، فهو الشفاء لمن استشفاه والكفاية لمن استكفاه «قَدْ أَحْمَىٰ حِمَاهُ[2]، وَأَرْعَىٰ[3] مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ ٱلْمُسْتَشْفِي، وَكِفَايَةُ ٱلْمُكْتَفِي». فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الأوصاف إلى النظام القانوني القرآني حيث بين الأصول الكلية للحلال والحرام بصورة تامة وعرض سبل مواجهة الأمراض الأخلاقية والمفاسد الإجتماعية على عمق هذه العبارة مالم يتعرف على القرآن. أجل إنّ علاج الأمراض الخلقية والإنحرافات الفكرية والمشاكل الإجتماعية كافّة، في القرآن. ومن كان القرآن معه وكان مع القرآن فقد ظفر بكل شيء، كما قال الإمام عليه السلام في خطبة أخرى: «وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ غِنًى»[4]. ومن هنا بلغ

---

١. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥، ح ٨، وقد قدمنا شرحا وافياً بهذا الشأن ذيل الخطبة ١٨.

٢. «حمي» المنطقة المحرمة العائدة لشخص أوجماعة ولا يحق للآخرين دخولها دون إذن، ووردت في الخطبة بمعنى حرمات الله.

٣. «ارعى» من مادة (رعى) مراقبة الشيء، ومن هنا يطلق الرعي على الأغنام وحيث يترك الحيوان بحريته في المرعى فإنّ الارعاء ورد بهذا المعنى في الخطبة، أي أنّ الله حكم في قرآنه بحرية ما ينبغي بقاؤه حرا.

٤. نهج البلاغه، الخطبة ١٧٦.

ذلك المجتمع شبه الوحشي في الجاهلية تلك المنزلة المرموقة في ظل تعاليم القرآن بعد أن كان يعيش منتهى الفقر الأخلاقي والإقتصادي والإجتماعي، وما يجدر ذكره أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة يرى أنّ الصفات المذكورة تعود إلى الإسلام لا القرآن والضمائر كذلك، ولكن بالنظر إلى ورود مثل هذه العبارات في سائر خطب نهج البلاغة بشأن القرآن، يتضح أنّ المراد بتلك الأوصاف هو القرآن وإن لم ترد مفردة القرآن في نصوص العبارة، ناهيك عن عدم اختلاف النتيجة مهما كان المراد[١].

ﮰﮯ

١. قال المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة: كأنّ مفردة القرآن أوكتاب أنزله سقطت من نسخة نهج البلاغة الموجودة (نهج الصباغة، ج ٣٣، ص ١٣).

١٥٣

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة[1]

هذه الخطبة قطوف مختارة من خطبة طويلة للإمام عليه السلام. يتحدث في القسم الأول عن صفات الأفراد الفاسدين والمفسدين ليتعرّف عليهم الناس وليبتعدوا عنهم. وأشار في القسم الثاني إلى مميزات الغافلين الذين لا يفيقون إلّا حين ضياع الفرصة وفوات الأوان فيبتلون بشر أعمالهم. ويعرض في القسم الثالث بالوعظ والنصح لهم لينهضوا من سباتهم ويصلحوا أمر آخرتهم. وتطرق في الفصل الرابع إلى بعض الأمور الخطيرة التي تحبط الأعمال وتحول دون النجاة. ويختتم الخطبة في القسم الخامس بالمقارنة بين صفات البهائم والسباع والناس من أصحاب الدنيا والمؤمنين.

---

١. سند الخطبة:

ورد في مصادر نهج البلاغة: ذكرت هذه الخطبة في بعض نسخ نهج البلاغة كجزء من الخطبة السابقة .قال ابن أبي الحديد إنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين اتجه إلى البصرة (لقتال أصحاب الجمل والقضاء على الفتنة). ومما لا شك فيه أنّه عثر على هذه الخطبة في مصدر آخر ليقول ذلك الكلام. وردت هذه الخطبة بالتفصيل من قبل السيد الرضي في كتاب تحف العقول، كما روى الكليني بعضها في الجزء الخامس من كتابه الكافي، كما وردت عبارة من خطبة في قصار الكلمات وهي الكلمة ٢٩٨ (ضع فخرك، واحطط كبرك واذكر قبرك). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤٧).

القسم الأول

«وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ».

الشرح والتفسير

يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة أثناء حركته إلى البصرة للقضاء على فتنة طلحة والزبير وعائشة وضمّنها جانباً من الوعظ والنصح والإرشاد. تحدّث عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإنسان الضال ـ والذي يتجلى نموذجه في مشعلي فتيل معركة الجمل ـ على ضوء أربع صفات تميّزه، فقد منحه الله الفرصة في عمره ليباشر الأعمال الصالحة من أجل الظفر بالسعادة الأبدية، ولكنه لا ينفك عن ملازمة الغافلين والمذنبين الذين يسلكون به مهاوي الردى، دون أن يسير على الحق ويقتدي بزعيم حق «وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي[1] مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ». نعم أنّ أسباب بؤسه وشقائه تكمن في أربعة أمور؛ ملازمة الغافلين والآثمين، وعدم السير على طريق الحق إلى جانب عدم الإقتداء بالإمام الصالح.

ولعلّ العبارة «إِمَامٍ قَائِدٍ» إشارة إلى الإمام المعصوم عليه السلام أو كلّ عالم صالح من أتباع المعصومين عليهم السلام وعلى كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام يفصح عن دور القائد الصالح

---

١. «يهوي» من مادة (هوى) على وزن نهى تعني في الأصل، السقوط من شاهق، وهوى على وزن نوى، بمعنى الرغبة في الشيء وعادة ما تستعمل في الميول النفسية والأمور الباطلة، والمعنى الأول هو المراد في العبارة أي أنّ الشخص الذي يعبد الدنيا يسقط مع الغافلين في وادي الشقاء.

في هداية الناس ونجاتهم، كما يوضح دور ملازمة أهل الغفلة والمعصية في بؤس الإنسان وسقوطه.

ﮐﮐﮐ

القسم الثاني

منها: «حَتَّىٰ إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمُ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي وَلَا يُعِينُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ».

الشرح والتفسير

الموعظة البالغة

لما أشار الإمام ﷺ إلى غفلة أصحاب الدنيا أردفها بعدم ديمومتها وطرحها قريباً حين يصفعهم الموت ويخرجهم من غفلتهم، وعليه فمدى هذه الغفلة «حَتَّىٰ إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ[1] غَفْلَتِهِمُ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً» أجل، عمر الدنيا قصير فإن أشرف الإنسان على الموت وأُزيلت عن عينه البرزخية حجب الغفلة ورأى أعماله آنذاك عندئذٍ يتغيّر كلّ شيء ويواجه حقيقة الموقف. ومن هنا يخلص الإمام ﷺ إلى نتيجة واضحة «فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ[2]». قد ظن هؤلاء بخلودهم في الدنيا

---

١. «جلابيب» جمع جلباب، الستار والثوب.

٢. «وطر» بمعنى الحاجة وقضاء الوطر الاستفادة التامة من الشيء.

بما جنوا من تلك الأموال الطائلة والقصور الفارهة والبساتين الواسعة والخدم والحشم لكنّهم ودّعوها في الحال وأصبحوا تحت التراب.

كأنّ العبارة الأولى تشير إلى أولئك الأفراد الذين لم ينتفعوا قط بإمكاناتهم (مثلاً شيّدوا قصراً فلم يتنعموا به حتى أتاهم الأجل). والعبارة الثانية إشارة إلى أولئك الذين تمتعوا قليلاً بإمكاناتهم ثم حال بينهم وبينها الموت من قبيل ذلك الذي بنى قصراً، وما أن حلّ فيه حتى أخرجه الموت منه.

ثم استطرد الإمام عليه السلام ليسدى بعض النصائح والمواعظ التي تقود إلى السعادة والفلاح بعد أن حذّر من الحياة العصيبة التي يعيشها أهل الغفلة «إِنّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ». ثم بين أثر ذلك، سبيل النجاة من هذه الغفلة القاتلة من خلال خمسة تعاليم فقال: «فَلْيَنْتَفِعِ ٱمْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا ٱلْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَٱنْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً[1] وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي ٱلْمَهَاوِي[2]، وَالضَّلاَلَ فِي ٱلْمَغَاوِي[3]» فالإمام عليه السلام يخاطب نفسه والآخرين باديء الأمر ليأخذ النصح موضعه من قلوب الآخرين، وذلك لأنّ المستمع إنّما يتفاعل مع الواعظ الذي يمزج القول بالعمل ولا يترفع عن الآخرين. ثم يحذّر الجميع من أنّ الله أسبغ عليهم ما لا يُحصى من النعم وأودعهم مختلف الإستعدادات والقابليات بغية استثمارها والإنتفاع بها من خلال تفعيل السمع بالأذن والنظر بالعين والإنفتاح على تجارب الآخرين وسلوك السبيل القويم الذي يجنبهم الإنحراف والضلال.

وأخيراً يحذّر الإمام عليه السلام من تمكين الغواة من النفس: «وَلاَ يُعِينُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلْغُوَاةَ[4] بِتَعَسُّفٍ[5] فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ». إشارة إلى أنّ

---

١. «جدد» و«جادة» بمعنى واحد يطلق على الطريق السهل الذي لا تغوص فيه القدم.

٢. «مهاوي» جمع مهواة، على وزن مقلاة الحفرة التي يسقط فيها الإنسان.

٣. «مغاوي» جمع مغواة، على وزن مقلاة، الشبهة المضلة.

٤. «غواة» جمع غاوي، الشخص الضال.

٥. «تعسف» من مادة (عسف) على وزن خسف، المشي على غير هدى، ومن هنا يقال للظالم متعسف لأنّه يسير بغير هدى.

البعض من الأفراد الضعاف النفوس والذين يميلون إلى الدعة والراحة حين يواجهون الغواة من الأفراد يسعون إلى التغاضي عن بعض الحقائق أو المداهنة في بيان الحق أو الخشية من الصدق والصراحة بهدف الحدّ من معارضتهم وهذا ما يؤدّي إلى تسلط أولئك الغواة وتفاقم جرأتهم بما يجعل من المتعذر الوقوف بوجوههم . وعليه لابدّ من اعتماد الصراحة المفعمة بالأدب والشفقة في بيان الحقائق والابتعاد عن الخشية، فالغواة عادة ما يتراجعون وينكسرون إزاء المواقف الشجاعة، وقد دلّت بعض النماذج التي حفل بها التأريخ على أنّ الأفراد الذين يحرّفون الحقائق ويكتمون الواقع إنّما أسهموا في مضاعفة المشاكل التي جرّت عليهم وعلى مجتمعاتهم الويلات. فقصة قرية الحوأب المعروفة في معركة الجمل معروفة. حيث سمعت عائشة من النبيﷺ أنّه قال لها: «فِيكُنَّ مَنْ تَنبَحها كِلابُ الحَوأب». وحين انطلق أصحاب الجمل إلى البصرة وبلغوا الحوأب سمعت عائشة ذلك النباح، فسألت عن اسم الموضع فقيل لها: الحوأب . فعزمت على العودة إلى المدينة، فاعترضها محمد بن طلحة وقال لها: هذه ليست الحوأب، ثم أتى ببعض الأفراد وشهدوا لها زوراً، فواصلت مسيرها.

وما أكثر القصص من هذا القبيل في الماضي والحاضر[1].

١. شرح نهج البلاغة للشوشتري، ج ٢، ص ٧٤.

القسم الثالث

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَابُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾».

الشرح والتفسير

الحذر الحذر

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بعد تلك التحذيرات السابقة في إسداء الوعظ والنصح بعبارات قصيرة عميقة المعنى فخاطب مستمعه قائلاً: «فَأَفِقْ[1] أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ». إشارة إلى أنّ زخرف الدنيا والمال والمقام والشهرة تسكر الإنسان وتقذفه في سبات الغفلة وتضطره للعجلة دون التروي والتريث، وتورث هذه الأمور مختلف المعاصي والذنوب والأخطاء، وهل يرتجى من السكران سوى الخطأ والزلل؟

ثم قال عليه السلام : «وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ[2] - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

1. «أفق» من مادة (إفاقة) بمعنى الصحو.
2. «أمي» ينسب إلى الأم بمعنى عديم القراءة، وكأنّه بقي على تلك الحالة التي ولد فيها من بطن أمّه ولم يتتلمذ،

وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ مِمَّا لَابُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ» فقد دعى بادىء الأمر إلى الاتباع التام للنبي الأكرم ﷺ، فما يقوله ﷺ هو الوحي السماوي الذي يهدف إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ثم يوصي عليه السلام بمخالفة من يخالف ذلك مهما كثر عدد المخالفين واتباع الحق دون أدنى شك وريبة أو إكتراث للآخرين.

وواصل عليه السلام نصحه قائلا: «وَضَعْ فَخْرَكَ، وَٱحْطُطْ[1] كِبْرَكَ، وَٱذْكُرْ قَبْرَكَ» فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الوصايا الثلاث إلى أساس الشر والفساد الذي يتمثل في الفخر والكبر التي لن تجعل الإنسان يذوق طعم السعادة ما لم يطرحها جانباً، وسيكون مصيره مصير الشيطان الذي قاده نحو فخره وكبره. وتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى القبر الذي يسوق نسيانه الإنسان إلى طول الأمل والانغماس في الدنيا، وهو الموضع الذي يتساوى فيه الجميع وهذا ما ورد في الكلمة القصيرة رقم ٣٩٨ من قصار الكلمات وهذا يدلّ على أنّ السيد الرضي كان يقتطف أحياناً الكلمات القصار من بعض الخطب الطويلة.

ثم أورد عليه السلام ثلاث نصائح أخرى منسجمة مع بعضها، فقال: «وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ ٱلْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ[2] لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ».

كيف ينتظر الإنسان من الله أن يعفو عن سيئاته ويجازيه بالاحسان وهو يظلم الآخرين ويقابل الاحسان بالإساءة ؟ أم كيف ينتظر الورد من يزرع الشوك ؟! الواقع

☜ وبالطبع فإنّ معنى أمية النبي الأكرم ﷺ أن جميع علومه ومعارفه إلهية ولم يتعلم من الإنسان. راجع سائر الآراء بهذا الشأن في الجزء السادس من تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٧، سورة الأعراف.

١. «احطط» من مادة (حط) على وزن خط لازم ومتعدي بمعنى الخفض والاخفاض واريد به المعنى الثاني في الخطبة.

٢. «فامهد» من مادة (مهد) على وزن عهد تعني في الأصل مهد الطفل أو الموضع الذي يعد للأطفال، ثم استعملت بمعنى الإعداد كما وردت في هذه الخطبة.

هو أنّ هذه النصائح مستقاة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فالله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وفي الحديث: «الدُّنيا مَزرَعَةُ الآخِرَةِ» والآية الشريفة: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1] والآية الكريمة: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[2]. ثم يعود الإمام عليه السلام في ختام الخطبة الى ذات المطلب الذي ابتدأ به ليوقظ الغافلين ثانية من سباتهم ويسوقهم إلى الجد والاجتهاد فيقول: «فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾». العبارة الأخيرة المقتبسة من الآية ١٤ من سورة فاطر إشارة إلى أنّ أي شخص لا يضاهي القائل في بيانه لحقيقة الموت والحياة وحاضر الإنسان وغده ومصيره في المستقبل وعاقبته في الآخرة.

وقد قال أحد شرّاح نهج البلاغة: إنّ من يتأمل خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله وقصار كلماته يكتشف بوضوح أنّ أحداً لا يسعه التحدث بهذه الدقة والرقة عن الدنيا وماهيتها وبدايتها ونهايتها .

قال الشاعر بشأن النصائح الأخيرة في الخطبة:

هِيَ الدُّنيا تَقُولُ بِمَلْءِ فِيها حَذارِ حَذارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلا يَغْرُرْكُمُ حُسْنُ ابْتِسامِي فَقَولِي مُضْحِكٌ وَالفِعلُ مُبكٍ[3]

---

١. سورة الحشر، الآية ١٨.

٢. سورة البقرة، الآية ١١٠.

٣. الابيات للشاعر ابو الفرج الساوي (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ٢٣٥).

القسم الرابع

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ ٱللهِ فِي الذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَىٰ وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَىٰ شِبْهِهِ.

إِنَّ ٱلْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا ٱلْعُدْوَانُ عَلَىٰ غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَٱلْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ. إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

الشرح والتفسير

الموبقات الخمس

حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه في المقطع السابق من الخطبة من سبات الغفلة وحثهم على الجد والاجتهاد، ليشير هنا إلى خمسة من الذنوب الكبيرة الخطيرة التي لا يقبل عمل العبد دون التوبة منها، فقال: «إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ ٱللهِ فِي الذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَىٰ وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا». العبارة «وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ» ـ مع العلم، يتعذر الإخلاص في العمل لمن اتصف بهذه الخصال

السيئة ـ تبدو إشارة إلى الإخلاص المرحلي والآني حين ينسى في لحظة كل هذه المساوىء من قبيل التصدق في سبيل الله ومد العون للفقير، إلّا أنّ هذا الإخلاص لايدوم حتى يحل محله الشرك والنفاق والبدعة.

ثم خاض الإمامعليه‌السلام في شرح هذه الخصال المتمثلة بالشرك وقتل النفس والتهمة والبدعة والنفاق حيث بين كل واحدة منها بعبارة قصيرة فقال: «أَنْ يُشْرِكَ بِاللّٰهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ[1] بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذٰلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَىٰ شِبْهِهِ». وعلى هذا الضوء فإنّ أول كبيرة هي الشرك. في عبودية الله؛ وهي الكبيرة التي مالم يتب عنها العبد لن ينال عفو الله ومغفرته ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2].

والكبيرة الأخرى اطفاء الإنسان لغضبه بسفك دم الآخرين، حيث ورد في القرآن: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾[3]. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة تشمل الانتحار وقتل النفس أيضاً. إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد من ظاهر الآية. على كل حال فإنّ البعض اعتبر الآية دليلاً على أنّ قتل النفس البريئة يؤدّي بالقاتل إلى الموت على الكفر، لأنّ الخلود في جهنم يختص بالكافرين، أمّا بالنسبة للخصلة الثالثة، اتهام الأفراد بما لم يقارفوا من أعمال هو في الواقع قتل لشخصية الآخرين وإراقة ماء وجوههم. الأمر الذي تعدّه بعض الروايات بمثابة إراقة الدم.

وأمّا الخصلة الرابعة أي البدعة في الدين بهدف نيل المال والمقام فيكفي في ذمها ما ورد عن النبي الأكرمصلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال: «أَهْلُ الْبِدَعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، أَهْلُ

---

١. «يعر» من مادة (عر) على وزن شَر، أوعُر على وزن حُر، يعني في الأصل الجرب الذي يصيب الجلد، ثم أطلق على كل ضرر يلحق بالإنسان، وأريد به العيب والتهمة في العبارة.

٢. سورة النساء، الآية ٤٨.

٣. سورة النساء، الآية ٩٣.

البِدَعِ كِلابُ أَهْلِ النّارِ»[١].

وأخيراً خصلة النفاق التي قال بشأنها القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[٢] وقد صرحت ما بعدها من آيات أنّ الإحباط هو نصيب عمل هؤلاء المنافقين الذين لن يهديهم الله. حقّاً أنّ المجتمع البشري إذا طهر من دنس هذه الرذائل الخمس لعاش الأمن والسلام والوئام ولحفظت فيه الأموال والأنفس والأعراض، ولتكاتف الجميع على الحبّ والمودة وسارعوا على مدارج السمو والكمال والإبتعاد عن البدعة والشرك. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة «أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ» معنى معيّن، وبالعبارة «أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ» معنى آخر؛ فالأول يشير إلى نفاقه بالنسبه لنفسه، والآخر إلى النفاق بالنسبة للآخرين. ومن هنا جعلوا الصفات المذكورة ستاً، لكن يبدو أنّ كليهما من آثار النفاق، أحدهما باللسان والآخر بالوجه. وعليه فالأفضل جمعهما في عنوان واحد. القضية الجديرة بالاهتمام ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ هذه الخطبة وإن وردت أثناء المسير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل إلى أنّها تشير إلى أنّ الصفات المذكورة موجودة في أصحاب الجمل؛ ذلك لأنّهم حكموا أهواءهم بدلاً من الله من جانب، ومن جانب آخر فإنّهم يسعون لإطفاء غضبهم على علي عليه السلام بسفك دماء الأبرياء. كما نسبوا لعلي عليه السلام تهمة قتل عثمان الذي قتل على أيديهم بتحريض الآخرين، كما أنكروا إمامة علي عليه السلام ونسبته من رسول الله صلى الله عليه وآله فابتدعوا في الدين ما ليس منه. وأخيراً منعوا الناس من التعرض لقتل عثمان من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يتآمرون على قتله خفية. والعبارة «اعْقِلْ ذٰلِكَ» إشارة إلى هذا المعنى[٣]. قال الإمام عليه السلام إثر طرحه

---

١. كنز العمال، ح ١١٢٦، ٥٩، ١٠٥٩.

٢. سورة البقرة، الآية ١٤.

٣. اقتباس من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٢.

لهذه الأمور «أَعْقِلْ ذٰلِكَ»، وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هذه العبارة إشارة إلى مطلب سيرد لاحقاً، إلّا أنّ هذا خلاف التعبير (ذلك).

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى بعض النقاط المهمّة التي لا تبدو بمعزل عن قضية معركة الجمل فقال: «إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَىٰ غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ[١]. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

أجل فالمؤمنون الصالحون العاملون خائفون من الله وخائفون من خلق الله، إمّا خوفهم من الله بدليل تكاليفهم ووظائفهم تجاهه، وإمّا خوفهم من خلق الله حذراً من هضم حقوق فرد من الأفراد، خلافاً للسباع الذين لا يفكرون سوى في بطونهم والعدوان على الآخرين.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يوجز المظاهر الدنيوية في ثلاثة أشياء؛ الاهتمام بالبطن والنزعة السبعية والاهتمام بالزينة، فأسند أحدهما إلى البهائم والأخرىٰ إلى السباع إشارة إلى قادة معركة الجمل الذين ساقتهم هذه العناصر إلى تأجيج نار حرب الجمل فسفكوا تلك الدماء ولم يظفروا بأهدافهم (لابدّ من الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام على ضوء بعض الروايات أورد هذه الخطبة حين سار إلى قتال أصحاب الجمل.

٭٭٭

---

١. «مستكينون» من مادة (سكون) بمعنى الوضوح، ثم اطلقت على الخضوع والخشوع.

١٥٤

ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها فضائل أهل البيت عليهم السلام[1]

نظرة إلى الخطبة

تدور مطالب هذه الخطبة بصورة رئيسية حول ثلاثة محاور:

١. فضائل أهل البيت عليهم السلام وعلومهم ومعارفهم الخارقة ووصية الناس باتباعهم.

٢. بحث بشأن ارتباط الظاهر بالباطن وأنّ طهارة الباطن عادة ما تؤدي إلى طهارة الظاهر لأعمال الإنسان، ومن كان ملوثاً باطناً غالباً ما يكون ملوثاً ظاهرياً.

٣. لابدّ من الرجوع إلى الجذور في ممارسة إصلاح كل شيء والانطلاق من الأساس والبنية التحتية في الإصلاحات.

---

١. سند الخطبة:
أورد الآمدي الذي صنف كتابه (تحرر الحكم على أساس الحروف الأبجدية) جوانب مختلفة من هذه الخطبة بتفاوت في حروف «ق» و«ن» و«هـ» و«ا» ورغم أنّ الآمدي عاش بعد المرحوم السيد الرضي، إلّا أنّ اختلاف عباراته مع نهج البلاغة يفيد أنّه اقتبسها من مصدر آخر، كما أوردها السيد باختلاف طفيف في كتابه، الطراز، وهذا يشير إلى أنّه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة.

القسم الأول

«وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ.

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً».

الشرح والتفسير

أبواب علم النبي

إنّ الأبحاث المتنوعة لهذه الخطبة تفيد جري المرحوم السيد الرضي على عادته في اقتطاف هذه المقاطع من خطبة طويلة، ولذلك يبدو هنالك نوع من التعقيد في ترابط مقاطع هذه الخطبة. يورد الإمام عليه السلام مقدمة لبيان فضائل أهل البيت عليهم السلام فيتحدث عن صفات المهتدين والضالين فيقول: «وَنَاظِرُ[1] قَلْبِ اللَّبِيبِ[2] بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ[3]» إشارة إلى أنّ الإنسان العاقل لا يقنع بظواهر الأمور، بل يسعى إلى الوقوف على ملابساتها وتفاصيلها وما يمكن أن تؤول إليه عاقبتها فلا يسلك مساره جزافاً ويواجه بعض المطبات والمخاطر.

ثم قال عليه السلام: «دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ» من

---

١. «ناظر» بمعنى سواد العين التي يقع فيها البؤبؤ.

٢. «لبيب» من مادة (لب) على وزن حب بمعنى الدماغ ويقال: اللبيب للشخص العاقل الحكيم.

٣. «نجد» ما ارتفع من الأرض.

الواضح أنّ المراد بالداعي نبي الإسلامﷺ الذي أرسى دعائم الدين، والمقصود بالراعي الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام الذي تزعّم الأُمّة الإسلامية بأمر الله ورسولهﷺ.

فالكلام يشير إلى هذا الأمر: أنكم إن نظرتم بحكمة لمعرفة رسول اللهﷺ وخليفته بالحق، وبموجب هذه المعرفة سوف لن يكون لديكم أدنى شك وريبة في اجابة دعوته واقتفاء آثار خليفته.

ثم تطرق الإمامعليه السلام إلى الفئة الأخرىٰ التي تقابل الفئة المذكورة وهي الفئة المعادية للحق التي خاضت في بحار الفتن وابتدعت في الدين حتى انتهى الأمر إلى اقصاء المؤمنين فخمدت أصواتهم ولم تصدح سوى اصوات الضالين المكذبين المنحرفين «قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ[1] الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ».

فالعبارة إشارة إلى تلك الفئة المنحرفة التي غصبت الخلافة عقب رحيل النبي الأكرمﷺ حتى انتهت إلى بني أمية بزعامة معاوية ويزيد وآل مروان. أجل لم يكن هم تلك الفئة سوى إثارة الفتن من قبيل فتنة الجمل وصفين والنهروان واستغلالها لصالحها إلى جانب ايجاد البدع في دين الله وهجران سنن النبي الأكرمﷺ، الأمر الذي اتضح بجلاء على عهد خليفة بني أمية الثالث، بعد ذلك خاض الإمامعليه السلام في صفات وفضائل أهل البيتعليهم السلام فقال: «نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً».
إشارة إلى أننا أقرب الجميع للنبيﷺ (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الشعار يعني مايلي البدن من الثياب) وقد ورثنا علم النبي الأكرمﷺ وكل من أراد نيل تعاليمهﷺ والاقتداء بهديه عليه أن يمر من خلالنا.

والواقع هو أنّ هذه العبارات قد اقتبست من روايات النبي الأكرمﷺ بشأن أهل

---

١. «ارز» من مادة (ارز) على وزن فرض، تعني في الأصل الايقاض والثبات، ثم استعملت بمعنى الاعتزال والانعزال عن المجتمع، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

البيت عليهم السلام عموماً وعلي عليه السلام على وجه الخصوص. ومن ذلك حديث الثقلين الذي ألزم المسلمين بالتمسك بالقرآن وأهل البيت إلى يوم القيامة وحديث: «أَنَا مَدِينَةُ العِلمِ وَعَليٌّ بَابُها فَمَنْ أرادَ العِلمَ فَلْيأتِ البَابَ»[1]. جدير بالذكر أنّ شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد حين بلغ هذا الموضع من الخطبة صرّح بأنّ ما أشار إليه علي عليه السلام في هذه الخطبة لا يتضمن سوى عشر الفضائل التي صرّحت بها العديد من الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن علي عليه السلام. ثم أضاف: لا اقصد الروايات التي استدلت بها الإمامية على إمامة علي عليه السلام، بل مرادي الروايات التي رواها كبار محدثي العامة في مصادرهم عن فضائل علي عليه السلام وأذكر هنا بعضها، ثم يذكر أربعاً وعشرين رواية معتبرة في فضائل علي عليه السلام سنشير في البحث القادم إلى جانب منها إن شاء الله.

تأملان

١. الفارق بين العُجب والتعريف بالذات

يتساءل بعض المغرضين هنا: لماذا خاض الإمام عليه السلام في مدح ذاته والتعريف بها ؟ أليس هذا الأمر دون شأن الإمام عليه السلام ؟ وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنّ البعض أشار على عمر بتأمير علي عليه السلام على الجند. فقال : إنّ علياً عليه السلام يرى نفسه أرفع شأناً من ذلك.

ولكن يبدو أنّ مثل هذه الإشكالات إنّما يفرزها الجهل والحسد الذي لا يصمد أمام منطق العقل، وذلك أنّ أغلب الناس قد لا يقفون على عظمة شخص وعمق مكانته فلا يكادون ينفتحون على أفكاره ومشاريعه وخططه التربوية والإصلاحية، ونقول هنا : ألا ينبغي لهذا الشخص أن يعرف الآخرين بذاته وإمكاناته؟ ولعل هذا

---

١. ورد هذا الحديث المشهور في مصادر العامة المعروفة مثل مستدرك الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وغيرها (وللوقوف على المزيد من مصادر هذا الحديث في كتب العامة راجع كتاب احقاق الحق، ج٥، ص٤٦٩ وما بعدها).

الأمر أشبه بذلك الطبيب الماهر والمتخصص بمختلف الأمراض والذي نصب لوحة كبيرة على باب عيادته ليبيّن عليها شهاداته وخبرته الطبية والعلمية حتى يتعرف عليها الآخرون فيقبلون على عيادته، فهل هذا العمل من العُجب ومدح الذات أم التعريف بالنفس في مقابل الجهال؟

ناهيك عمّا سبق، فإن احدى مراحل شكر النعم التحدث بها. قال الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم بهذا الشان: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة أنّه قال: «حدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك»[2]. ومن هنا ورد في بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام حين سئل عن بعض فضائله، أجاب بأنّ الثناء على النفس مذموم؛ لكنّي أجيبك عن هذه الفضائل على أساس ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ثم بيّن عدداً من فضائله ومناقبه.

٢. الفضل ما شهدت به الاعداء

كما أشرنا سابقاً فإنّ ابن أبي الحديد حين بلغ في شرحه لنهج البلاغة هذه الخطبة، نقل أكثر من أربع وعشرين رواية روتها مصادر العامة في فضائل علي عليه السلام وصرّح بأنّ هذه الروايات غير تلك الأحاديث التي تمسكت بها الشيعة الإمامية في مقام اثبات ولاية وإمامة علي عليه السلام. ومن الضروري بمكان أن نشير هنا إلى بعض تلك الروايات العظيمة المضمون:

١. قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا عَلِيُّ إنّ اللهَ قَدْ زَيَّنَكَ بِزِينَةٍ لَمْ يُزَيِّنِ العِبادَ بِزِينَةٍ أَحَبُّ إِليهِ مِنْها هِيَ زِينَةُ الأَبرارِ عِنْدَ اللهِ تَعالى: الزُّهْدُ فِي الدُّنيا جَعَلَكَ لا تَرْزَءُ مِنَ الدُّنيا شَيئاً، وَلا تَرْزَءُ الدُّنيا مِنْكَ شَيئاً وَوَهَبَ لَكَ حُبَّ المَساكِينَ فَجَعَلَكَ تَرضى

---

١. سورة الضحى، الآية ١١.

٢. مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة.

بِهِم أَتباعاً وَيَرْضَونَ بِكَ إِماماً»[1].

٢. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِليَّ فِي عَلِيٍّ عَهْداً، فَقُلْتُ: يارَبِّ بَيِّنْهُ لِي، قالَ: إِسْمَعْ أَنَّ عَلياً رايَةُ الهُدى وَإِمامُ أَولِيائِي وَنُورُ مَنْ أَطاعَنِي وَهُوَ الكَلِمَةُ الَّتِي أَلْزَمتُها المُتَّقِينَ مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَطاعَهُ فَقَدْ أَطاعَنِي فَبَشِّرْهُ بِذلِكَ»[2].

٣. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحيا حَياتِي وَيَمُوتَ مَماتِي وَيَسْكُنُ جَنَّةَ عَدنٍ الَّتِي غَرَسَها رَبِّي فَلْيُوالِ عَلياً مِنْ بَعْدِي وَلْيُوالِ وَلِيَّهُ وَلْيَقْتَدِ بِالأَئِمَةِ مِنْ بَعدِي فَإِنَّهُم عِتْرَتِي خُلِقُوا مِنْ طِينَتِي وَرُزِقُوا فَهماً وَعِلماً فَوَيلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ مِنْ أُمَّتِي القاطِعِينَ فِيهِم صِلَتِي لا أَنالَهُم اللهُ شَفاعَتِي»[3].

١. نقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة هذا الحديث عن أبي نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء ومسند أحمد بن حنبل (شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ١٦٦).

٢. المصدر السابق.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٦.

القسم الثاني

منها: «فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمنِ. إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ.

فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!».

الشرح والتفسير

خصائص دعاة الحق

تعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلى غيض من فيض فضائل أهل البيت عليهم السلام بهدف إحباط الدعايات المغرضة لأجهزة بني أمية ضد أهل البيت عليهم السلام والعناصر التي تآمرت عليهم من بعض العملاء الذين تجلببوا بثياب رواة الحديث، فقال: «فِيهِمْ كَرَائِمُ[1] الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمنِ. إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا». العبارة «فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ» يمكن أن تكون إشارة إلى المعنى المذكور أو تعني عندهم آيات القرآن الكريم، والعبارة «كُنُوزٌ» إشارة إلى أنّ عندهم أحكام الله وتعاليم السماء؛ لأنّ الأشياء النفيسة عادة ما تحفظ في الكنز.

---

1. «كرائم» جمع كريمة، الآيات المباركة التي نزلت بشأن أهل البيت عليهم السلام.

والعبارة «إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا» تتضمن احدى صفات أهل البيت عليهم السلام وهي الصدق في الكلام التي تنسجم والآية الشريفة: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]. والعبارة «وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا» إشارة واضحة إلى أنّ صمتهم عليهم السلام لا يعني عجزهم عن الاجابة قط، بل صمتهم على ضوء الحكمة والمصلحة، وعليه فلا يسع أحد أن يسبقهم. أومعنى ذلك أنّ هيبتهم تحول دون قدرة الآخرين على الكلام حين صمتهم. على كل حال فإنّ هذه الصفات الأربع في أهل البيت عليهم السلام تميز مقامهم عن الآخرين وتكشف عن علو منزلتهم ومكانتهم العلمية. ثم قال تأكيداً لهذا المطلب في أنّ الهدف ليس المدح والثناء على الذات: «فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ[2] أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

تعني كلمة «رَائِدٌ» في الأصل، الشخص الذي يتقدم القافلة ويبحث عن الماء والمرعى. فلو كان مثل هذا الشخص كاذباً لعرّض أهل القافلة أنفسهم إلى الخطر. فاختيار هذه الكلمة يشير إلى لطيفة مؤداها أنّي إن شرحت لكم خصائص أهل البيت عليهم السلام فذلك لأنّي بمنزلة ذلك الشخص الذي يوفر لاتباعه ضروريات وسائل العيش. ولعل العبارة «فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ» تشيرمفهوم الآية الشريفة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. أو بعبارة أخرى أنّ الآخرة تعني هنا ماوراء الطبيعة. نعم ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة أنّا خلقنا للآخرة، كما ورد ذلك في قصار كلمات الإمام: «أَلا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ»[3].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنظر إلى ما ورد قبيل ذلك بشأن أهل البيت عليهم السلام

---

١. هذه هي الآية ١١٩ من سورة التوبة التي تأمر المؤمنين في كل عصر ومصر باتباع الصادقين وملازمتهم، وقد فسّرت الروايات الواردة في مصادر الفريقين، الصادقين، بالأئمة المعصومين عليهم السلام .راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث كتاب، نفحات القرآن، ج ٩، ص ١٦٧.

٢. «رائد» من مادة «ورد» على وزن قوم بمعنى السعي للقيام بشيء، كما ورد في الشرح، فانها تطلق عادة على الشخص الذي ينطلق امام القافلة ويبحث عن المرعى والمرتع.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

ليحذر الآخرين من ضرورة مراقبة أعمالهم وأن يلحقوا بتلك الكنوز أي الأئمة العارفين بالقرآن ويحذوا حذوهم ويسيروا على هديهم وأن يفكروا في بداية كل عمل بعاقبته ويعزمون عليه: «فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، اَلْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَىٰ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ». والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يرى توقف النجاح على ثلاثة أمور تتفرع جميعها من العلم والمعرفة؛ التفكير في أصل العمل، والعمل على أساس البصيرة ودراسة وتأمل نتيجة ذلك العمل نافعة له أم مضرة؟

ثم خاض في بيان دليل ذلك وقد استعان بتشبيه رائع ليوضح الفارق بين العالم والجاهل فقال: «فَإِنَّ اَلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ اَلْوَاضِحِ إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَاَلْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ اَلْوَاضِحِ».

يا له من تشبيه رائع! فالعالم والجاهل كلاهما يسعى، إلّا أنّ العالم حيث يسير على الطريق الصحيح فإنّه يقترب من هدفه كل آن، أمّا الجاهل حيث يسير على غير هدى وعلى غير الطريق فإنّه يبتعد عن هدفه كل آن؛ بعبارة أخرى فإنّ سعيه لن يؤدّي إلّا إلى النتائج المعكوسة.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعبير رائع بهذا الشأن حيث قال: «مَنْ عَمِلَ عَلَىٰ غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»[1].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «العَامِلُ عَلَىٰ غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ غَيْرِ الطَّرِيقِ لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَّا بُعْداً»[2].

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!». فالعبارة تشير إلى أنّ الجهال من الأفراد ليسوا فقط لا يبلغون الهدف بسعيهم وجهدهم، بل أحياناً يخطون بذلك الجهد إلى ما يخالفه.

---

١. اصول الكافي، ج ١، ص ٤٤ باب العمل بغير علم، ح ٣.

٢. المصدر السابق، ص ٤٣، ح ١.

القسم الثالث

«وَ اَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَىٰ مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ ـ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ اَلْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَاَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً، وَكُلُّ نَبَاتٍ لاَ غِنَىٰ بِهِ عَنِ اَلْمَاءِ، وَاَلْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ».

الشرح والتفسير

معرفة المحسن والمسيء

كشف الإمام عليه السلام هنا ـ مواصلة لما أورده سابقاً ـ سبيل معرفة المحسن من المسيئ فقال: «وَاَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَىٰ مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ». فهذه قاعدة كلية من شأنها تمهيد السبيل أمام الإنسان لمعرفة الأفراد والمجتمعات البشرية ومختلف التنظيمات الاجتماعية والسياسية والعقائدية (وإن كانت لها على غرار كل قاعدة كلية شواذ) لأنّ أعمال الإنسان عادة ما تكون انعكاساً لأفكاره وأخلاقه وصفاته الباطنية، وظاهره ما يترشح عن باطنه، على غرار ما ورد في المثل المعروف: الظرف ينضح بما فيه . وعلى هذا الإساس فإن شككنا في باطن شخص كان لابدّ لنا من التوقف عند أعماله لننظر من خلالها إلى باطنه. وقد أيد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدّة آيات فقال بشأن المنافقين: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

أَكْبَرُ﴾[١]. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٢]. كما قال في آية أخرى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾[٣] كما ورد هذا الأمر في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

فقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»[٤]. وصرّح الفقهاء في مبحث العدالة: أنّ حسن الظاهر والعمل بالتكاليف الشرعية يفيد وجود ملكة العدالة في الباطن. الغريب في عصرنا الراهن أنّ العلماء توصلوا إلى صنع جهاز من شأنه التعرف على كذب المقابل من صدقه في موضوع ما من خلال نبض قلبه وضغط دمه وما شاكل ذلك. وكما أشرنا سابقاً أنّ لهذه القاعدة كما لسائر القواعد الكلية شواذ؛ فهنالك بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التعقيد بحيث لا يمكن التعرف عليهم من خلال أعمالهم بسهولة. كما يمكن لبعض المرائين والمنافقين أن يخدعوا العقلاء، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ ٱلْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»». فافتراق الظاهر عن الباطن والعمل عن العقيدة في بعض الحالات يعزى إلى بعض العوامل التي تحدث وتبعد الشخص عن ذلك الأصل الكلي؛ من قبيل مجالسة الصالحين والطالحين والتواجد في الأوساط الطاهرة والفاسدة إلى جانب التعصب والبغض والحقد والحسد والدعاية المسمومة والفقر المدقع وما شاكل ذلك من الأمور التي تقدح أحياناً بانسجام الظاهر مع الباطن. آثار المرحوم العلّامة الخوئي شارح نهج البلاغة مطلباً آخر في شرحه لهذه العبارة، فقد قال ـ بعد تلك الإشارة إلى تناقض صدر هذا القسم

---

١. سورة آل عمران، الآية ١١٨.

٢. سورة الحمد، الآية ٣٠.

٣. سورة الأعراف، الآية ٥٨.

٤. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٦.

من الخطبة وذيلها ـ إنّه تدبر وفكر لأيّام وتوسل بجده أمير المؤمنين عليه السلام ليخلص إلى هذه النتيجة وهي أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يشير بالاستناد إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله إلى أنّ الشخص إن رأى عدم انسجام ظاهره وباطنه عليه أن يسعى لإصلاح نفسه. يعني: إن كان باطنه حسناً وعمله سيئاً يسعى لأنّ يصلح عمله، وإن كان عمله حسناً وباطنه سيئاً يسعى لإصلاح باطنه[1]. وهذا الكلام وإن كان صحيحاً إلّا أنّ استفادة هذا المعنى من العبارة المذكورة لا يخلو من إشكال، ويبدو التفسير الأول أنسب.

ثم اختتم الخطبة في إطار اتمام عبارته السابقة في مجال انسجام الظاهر والباطن ولزوم تطهير الباطن بهدف تطهير الظاهر بالقول: «وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَا غِنَىٰ بِهِ عَنِ ٱلْمَاءِ، وَٱلْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ». فقد شبّه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره، فكما أنّ النبات لا غنى به عن الماء لسقيه ونموه، فبانّ الإنسان لا يستغني عن التعليم والتربية والإرشاد. فمن عكف على التعليم والتربية والإرشاد الصحيح ظهرت أعماله صالحة، بينما تسيئ وتخبث أعمال ذلك الذي لاحظّ له من الإرشاد والتربية. بعبارة أخرى فإنّ قيمة ثمرة النبات تنشأ في الواقع من ثلاثة عوامل : البذرة الطيبة والأرض الخصبة والماء الوفير. والحق أنّ بذرة الإنسان على ضوء الفطرة التي أودعها إيّاه الله، طيبة ؛ كما أنّ عوامل البيئة الوراثية بمثابة الأرض، والتعليم والتربية بمنزلة الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور، كانت ثمرة وجود الإنسان طيبة وطاهرة.

٭٭٭

١. منهاج البراعة، ج ٩، ص ٢٤٨ بتلخيص.

١٥٥

ومن خطبة له عليه السلام

يَذكُرُ فِيهَا بَدِيعَ خِلقَةِ الخُفَّاشِ[1]

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة التوحيدية المهمّة وتتألف من قسمين، يتعرض القسم الأول لحمد الله والثناء عليه وبيان عظمته التي حيرت العقول إلى جانب قدرته في الخلق دون الاستناد إلى فكرة مسبقة حيث يختزن كل مخلوق عجائب الاسرار. اما القسم الثاني فقد ركز على الخفاش وعجائب خلقته، فيتعرض الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلقه وكأنه استغرق سنوات في دراسة هذا المخلوق العجيب حتى وقف على اسراره.

ꕥ

١. سند الخطبة:

لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما في سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسي لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم السيد الرضي، إلا أنّ مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يقوي سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

القسم الأول

«ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَتِ ٱلْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ ٱلْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ!

هُوَ ٱللَّهُ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى ٱلْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ ٱلْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ ٱلْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً. خَلَقَ ٱلْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ».

الشرح والتفسير

درس في معرفة الله

ذكرنا آنفاً أنّ الإمام عليه السلام استهل هذه الخطبة بحمد الذات الإلهيّة المطلقة وبيان صفاتها الجمالية والجلالية. فأشار باديء ذي بدء إلى معرفة كنه ذات الله فقال: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَتِ[1] ٱلْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ ٱلْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً[2] إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ![3]».

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا عجزت الاوصاف عن معرفة كنه الذات

---

١. «انحسرت» من مادة (حسر) على وزن قصر، تعني في الأصل العري، ثم استعملت بمعنى الضعف والعجز حيث يتعرى الإنسان في هذه الحالة من قواه.

٢. «مساغ» من مادة (سوغ) بمعنى سهولة الاكل والشرب ثم أطلقت على كل مسير سهل، وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٣. «ملكوت» من مادة (ملك) على وزن قفل، بمعنى الحكومة والملكية، وإضافة الواو والياء تفيد التأكيد والمبالغة وإن استعملت بشأن الله تبارك وتعالى فإنّها تفيد حكومته المطلقة على العالم قاطبة.

الإلهيّة؟ ذلك لأنّ جميع الألفاظ الموضوعة لبيان الأوصاف إنّما ترتبط بصفات المخلوقين وهي صفات محدودة ومخلوقة. وبعبارة أخرىٰ فإنّ ذات الله المطلقة واللامتناهية من جميع الجهات متعذرة الإدراك من قبل عقولنا المحدودة ولا يسع ألفاظنا وأفكارنا بيانها والوقوف عليها، وهذا ما أذهل العقول البشرية وحال دون ظفرها بالسبيل إلى معرفة تلك الذات. طبعاً هذا لا يعني أننا نقول باستحالة معرفة البشر بالله، أو بعبارة أخرىٰ أننا لانقول بتعطيل المعرفة، بل المراد أنّ حظنا من العلم بتلك الذات المطلقة من جميع الجهات هو العلم الإجمالي الذي يسعنا الإشارة إليه من خلال آثاره وليس لدينا من علم تفصيلي بهذا الشأن. ولا تبدو هذه القضية عجيبة، فعظمة الله ممّا لا نقاش فيها. بل هنالك الكثير من مخلوقات عالم الإمكان التي نؤمن بها وتبدو واضحة لنا كالشمس، غير أننا نجهل كنهها، على سبيل المثال أننا نؤمن بوجود الروح، ووجود الجاذبية والزمان والمكان، لكن ما حقيقة كنه هذه الأمور؟ إنّ هذه الأمور تعدّ من الأبحاث التي حظيت باهتمام الفلاسفة والحكماء وعلماء العلوم الطبيعية ولم يتفقوا لحد الآن على نقطة مشتركة، بل أبعد من ذلك إننا لأقرب إلى أنفسنا من كل شيء ولكن ما زلنا نجهل الكثير من أسرار وجودنا، حتى انبرى العالم الغربي «ألكسيس كارل» ليكتب كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ببيان صفة أخرى من صفات الله ـ وهي تأكيد لما سبق ـ فقال «هُوَ ٱللَّهُ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى ٱلْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ ٱلْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ ٱلْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً». نعم، فوجوده أظهر الأشياء وكنهه في غاية الخفاء. وما تاره العين قد يكون خطأ الباصرة ـ الذي ذكر له العلماء عدّة أنواع ـ ولكن العلم بوجود الله لاخطأ فيه. وإننا نشعر بحضوره في كل زمان وكل مكان وكل حال، مع ذلك نحن حيارى في إدراك حقيقة ذاته، وكلما تقدمنا خطوة في هذه المرحلة رجعنا خطوات إلى الوراء، كما قال الشاعر:

كُلَّمَا قَدَّمَ فِكْرِي فِيـ ... ـكَ شِبْراً فَرَّ مِيلا

نـاكِـصاً يَـخْبِطُ فِـي عَمـيـاءَ لا يَهْدِي سَبِيلا

كأنّ هذا الموضوع أشبه بذلك الإنسان الذي يبصر مصدراً شديداً للنور يخطف الأبصار فيقترب منه ببطء فإذا النور يهزه فجأة ويدفع به خائفا إلى الخلف. حقّاً يبدو أننا سنقع لا محال في الخطأ إن حاولنا تشبيه أيٍّ من صفات وكنه الذات المقدّسة، ذلك لأننا نشبهه بمخلوقاته فنصاب بنوع من الشرك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى خلقه سبحانه وتعالى للخلق فقال: «خَلَقَ ٱلْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ[1] لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ» جدير ذكره أنّ كل ابداعات الإنسان إنّما تستند إلى برامج مسبقة وخطط معدة بشأن عالم الطبيعة. فأحياناً يستفيدها بعينها وأخرى يضيف لها بعض أفكاره، إلّا أنّ أيّة فكرة ليست جديدة في الواقع، على العكس من ذلك فإنّ نظرنا إلى عالم الوجود سنرى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات الصحراوية والبحرية والطيور وسائر الكائنات التي يتسم كل واحد منها ببعض الخصائص المميزة له، كلها تدين لخالقها تبارك وتعالى.

وأخيراً فإنّ الإمام عليه السلام قد أشار في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة مواضيع مهمّة؛ عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات الإلهيّة، وظهور وجوده تعالى، وأخيراً إبداعه الفريد في عالم الخلق.

☙❧

١. «اذعن» من مادة (اذعان) بمعنى الاقرار والامتثال.

القسم الثاني

«وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ ٱلْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ ٱلْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ ٱلْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ؛ وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ ٱلْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَعَارِفِهَا. وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ ٱلْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ٱئْتِلَاقِهَا، فَهِيَ مُسْدَلَةُ ٱلْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَىٰ حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي ٱلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ ٱلْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَىٰ الضِّبَابِ فِي وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ ٱلْأَجْفَانَ عَلَىٰ مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا ٱكْتَسَبَتْهُ مِنَ ٱلْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً!».

الشرح والتفسير

الطائر العجيب

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه العام والجامع بشأن خلق العالم حتى ركز هنا على أعجب وأظرف مخلوقات الله، ألا وهو الخفاش الفريد في خلقه من كل النواحي، وإن كانت جميع المخلوقات عجيبة لو أجلنا التفكير بصورة صحيحة. فقد أشار عليه السلام إلى جانبين فريدين في خلقة هذا الحيوان؛ عينه وجناحيه، فقال: «وَمِنْ لَطَائِفِ

صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ».

ثم يردفها بالعبارة: «وَكَيْفَ عَشِيَتْ[١] أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ[٢] إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا[٣] فِي مَكَامِنِهَا[٤] عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ[٥] ائْتِلَاقِهَا[٦]». النقطة الجديرة بالتأمل، إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى ثلاث نقاط مختلفة بثلاث عبارات إلى التأثير السلبي لضياء الشمس عليها، فقال: إنّ ضياء الشمس لم يدعها تتلمس طريقها وإنّ أشعة الشمس تمنعها من بلوغ مقاصدها في هذه الطرق (كالطعمة والحجر) وأخيراً أنّها لو سلكت طريقاً وطلعت عليها الشمس فجأة لصدتها عن مواصلة السير.

وبالنتيجة، ليس لها سوى الاختباء في الحجور المظلمة لتأمن أشعة الشمس، وعلى هذا الأساس فإنّ ضياء الشمس الذي ينير كل شيء ويساعد جميع الكائنات الحية لأن تعرف طريقها وتواصل حركتها نحو غايتها، لا يبدو كذلك بالنسبة لهذا الطائر «الخفاش» فآثاره سلبية عليه، وعلى العكس من ذلك فهو يستفيد من الظلمة التي تسوق كل ما سواه إلى السكون، ليبدأ بالنشاط والحركة.

ومن هنا واصل كلامه فقال: «فَهِيَ مُسْدَلَةُ[٧] الْجُفُونِ[٨] بِالنَّهَارِ عَلَى

---

١. «عشيت» من مادة (عشو) بمعنى الظلمة، إشارة إلى أنّ عيونها عاجزة عن رؤية ضياء الشمس.

٢. «سبحات» جمع سُبحة، على وزن لقمة، بمعنى النور، كما تعني الظُلمة.

٣. «اكنها» من مادة (كن) على وزن جن، تعني في الأصل، الظرف الذي يحفظ فيه الشيء، ثم اطلقت على جميع الوسائل التي تؤدي إلى الخفاء.

٤. «مكامن» جمع مكمن، من مادة (كمون)، بمعنى الاخفاء والمكمن هو الموضع الذي يختفي فيه الإنسان أو الشيء.

٥. «بلج» جمع بلجة، أول ضياء الصباح.

٦. «ائتلاق» من مادة (الق) على وزن برق، بمعنى البريق، وبلج ائتلاقها بمعنى أول الضياء ولمعان الشمس.

٧. «مسدلة» من مادة (سدل) على وزن عدل، تعني في الأصل، هبوط الشيء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يتغطى وهي هنا إشارة إلى سقوط أجفان الخفاش إلى الأسفل.

٨. «جفون» جمع جفن، على وزن قفل، ما يغطي العين.

حِدَاقِهَا[١]، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ[٢] ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ[٣] دُجُنَّتِهِ[٤]».

ثم تطرق إلى وضع الخفاش حين شروق الشمس وارسالها لأشعتها على الجبال والصحارى فقال: «فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ[٥] نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ[٦] فِي وِجَارِهَا[٧]، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا[٨]، وَتَبَلَّغَتْ[٩] بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا».

ياله من تشبيه لطيف! فقد شبه الشمس منتصف الليل بالمرأة التي تلفعت بخمارها وحين الشروق طرحته جانباً وقد أشرق ضياء وجه هذه الأم الحنون على مهد أولادها. العبارة الرائعة الأخرى أنّه قال: إنّ إشراق ذلك النور والضياء بلغ جحور الضباب المعروفة بشغفها بطلوع الشمس وقد أخرج آنذاك راسه من جحره ليستقبل ضياء الشمس. وهي إشارة أيضاً إلى أنّ الخفافيش تحتفظ بما اصطادته في الليل لنهارها.

ثم يخلص إلى نتيجة ليقول بعبارة قصيرة: «فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً!» فهذا الكائن الفريد، وخلافاً للكائنات الحية كافة

---

١. «حداق» جمع حدقة، سواد العين.

٢. «اسداف» جمع سدفة، على وزن وزنة، تعني، أحياناً الظلمة، وأخرى النور، ووردت هنا بالمعنى الأول.

٣. «غسق» بمعنى شدة الظلمة، كما تستعمل بمعنى منتصف الليل لاشتداد الظلمة منتصف الليل.

٤. «دجنة» من مادة (دجون) بمعنى، السحاب والمطر، ولما كان السحاب والمطر يؤدي إلى الظلمة، فإن مفردة الدجنة تعني الظلمة، وغسق دجنته، تعني، شدة الظلام.

٥. «أوضاح» جمع وضح، على وزن شفق، بياض الصبح.

٦. «ضباب» جمع ضب، على وزن سد، الحيوان المعروف.

٧. «وجار» بمعنى، جحر.

٨. «مآقي» جمع مؤق، على وزن قفل، بمعنى طرف العين مما يلي الأنف، كما فسّرها البعض بمجرى الدمع الواقع في زاوية العين، ووردت في العبارة كإشارة إلى أنّ جفون الخفاش تغطي جميع عينه حتى زواياها، ولعل هذه العبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهي أنّ آخر نقطة تغلق عند غلق العين ما يلي طرف أنفه.

٩. «تبلغت» من مادة (تبلغ) بمعنى اكتفت بالشيء.

ـ ولاسيما الإنسان ـ التي تقتات في النهار وتستريح وتسكن في الليل ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾[١]، إنّما يستريح في النهار ويكدّ من أجل المعاش في الليل لتعلم الخليقة أنّ قدرة الله لامتناهية وكل ما يريده سبحانه يكون. وسنتكلم في آخر الخطبة إن شاء الله عن عجائب خلقة الخفاش ولاسيما خلقة عينيه.

٭٭٭

١. سورة النبأ، الآيتان ١٠ و ١١.

القسم الثالث

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا ٱلْآذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ ٱلْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا لَاجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ. فَسُبْحَانَ ٱلْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!».

الشرح والتفسير

عجائب الخفاش

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى أمرين من عجائب خلقة الخفاش (جناحاه وتربيته لفرخه)، فقال: «وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا[1] ٱلْآذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ[2] وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ ٱلْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا». حقاً إنّ هذا لمن عجائب الخلقة. فأجنحة جميع الطيور تتكون من الريش الذي يتوسطه شيء يشبه القصبة، ونظراً لخفته فإن الطيور تستطيع الطيران بواسطته بسهولة. أمّا الخفاش المعروف بطيرانه السريع فهو يختلف تماماً عن جميع الطيور، فجناحه قطعة من اللحم يتوسطها عظام نحيفة أشبه بالغضاريف. وهذه القطعة رغم نحافتها إلّا أنّها شديدة

---

١. «شظايا» جمع شظية، على وزن قضية، القطع المتفرقة.

٢. «ريش» الشيء المعروف عند الطيور.

المقاومة، كما أنّها خفيفة وصامدة على الدوام وهي تشبه صفحة إذن الإنسان. والغريب أننا لو نظرنا إليه إزاء ضوء الشمس أو المصباح لشاهدنا مجموعة من الأنابيب الظريفة والواسعة والمعقدة من العروق الدموية التي تغذيه والتي يشتد نشاطها حين يطير لتوصل المواد الغذائية اللازمة إلى الأجنحة بهدف السرعة في الحركة.

ثم أشار إلى قضية عجيبة أخرىٰ في خلقة هذا الطائر والتي تتعلق بتربيته لولده فقال: «تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا لَاجِيءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ». معروف أن لهذا الحيوان دورة شهرية كسائر (الثديّات) وهو يحمل ويضع الحمل، خلافاً لسائر الطيور البيوضة وتفقيس فراخها في بيوضها. وينفرد الخفاش بحمله لفرخه معه حين الطيران والهبوط ليعلّمه الطيران وكيفية الحصول على الغذاء، وصيد الحشرات والخروج والرجوع إلى العش والحجر. ولعل سرّ حمله لفرخه معه خلافاً لعادة جميع الطيور أنّه يمارس الطيران ليلاً فيضطر لحمله معه.

على أيّة حال فإنّ كل شيء عجيب في هذا الطائر، وهذا بدوره أحد عجائب الخليقة التي تعرف الانسان على تنوع المخلوقات وقدرة الخالق.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته الشريفة بالخشوع أمام عظمة الله وقال: «فَسُبْحَانَ ٱلْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!» وكما استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه فقد اختتمها بتسبيحه وتنزيه ذاته المقدّسة.

تأمّل

خلقة الخفاش العجيبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن بديع خلقة الخفاش الذي يختلف في كل شيء تقريباً عن سائر الطيور، حتى صرّحت بعض المصادر العلمية أنّ الخفاش

ليس من فصيلة الطيور، بل جزء من الثديات وذلك لما يلي:

١. للخفاش أسنان، بينما للطيور منقار.

٢. بدن الخفاش مغطى بالشعر، بينما للطيور ريش.

٣. تتكون أجنحة الخفاش من قطعة لحمية رقيقة وليست الطيور كذلك.

٤. للخفاش يدان ورجلان ويمشي على الأرض على يديه ورجليه وليست الطيور كذلك.

٥. الخفافيش ولودة، بينما الطيور بيوضة.

٦. ترضع الخفافيش صغارها، بينما توفر الطيور الغذاء المناسب لفراخها.

٧. معاش الخفافيش ليلاً، والطيور نهاراً.

٨. تنام الخفافيش نهاراً وتطير عقب الغروب وتتعلق حين النوم بأرجلها على الأشجار والسقوف، بينما ليست الطيور كذلك.

٩. تتغذى الخفافيش على الحشرات وتفتح أفواهها حين تطير وتبتلع عشرات أو مئات الحشرات ولعل هذا سبب رائحتها الكريهة، ولعل هذا العمل من الخفافيش هو الذي يسهم في تنقية أجواء البيئة من الحشرات، ومن هنا فقد عمد الناس إلى بناء الأبراج لتربية الخفافيش في المناطق التي تكثر فيها الحشرات. جدير بالذكر، وخلافاً لما يتصوره البعض من ضعف بصر الخفاش حتى راح يضرب به المثل أنّ الشخص الفلاني أعمى كالخفاش، فإنّ باصرة الخفاش حادة جداً، إلّا أنّ عينه حساسة للضوء ولا يطيق تحمله. والخفاش يطير بسرعة ومهارة في الليل حتى حين شدّة الظلمة، ولا يستعين الخفاش في طيرانه الليلي بعينه فقط، بل يتمتع بجهاز صوتي يشبه الرادار. فالخفاش حين الطيران يُخرج صوتاً من أنفه وليست لدينا القدرة على سماعه، إلّا أنّ هذا الصوت يصطدم بكل شيء يعترض طريقه وينعكس إليه، ويلتقط هذا الصوت المنعكس بأذنه الكبيرة فيقف على الأشياء التي تقف في طريقه فيغيّر مساره، ومن هنا قيل: الخفاش يرى بأذنه. عادة ما يتغذى الخفاش على

الحشرات، إلّا أنّ بعض الخفافيش تتناول الفاكهة، وبعضها الآخر وحشية خطيرة، ويبدو أنّ عددها قليل جدّاً. وهي تهجم على الإنسان حين النوم فتغرس أسنانها بكل هدوء في بعض المواضع التي تفتقر إلى الأعصاب والحساسية من قبيل شحمة الأذن فتمتص الدم، كما تتأتى خطورتها من إمكانية حملها لبعض الميكروبات القاتلة من قبيل الحمى الصفراء. والخفاش يقترب من الماء حين الطيران ليرتشف الماء كالقط بلسانه. ويضع الخفاش القليل الوزن ما يقارب من أربعة فراخ يحملها معه حين الطيران، أمّا تلك الثقيلة الوزن والتي تشبه القطّة أحياناً، فلا تلد أكثر من فرخ. أضف إلى ذلك فهنالك بعض الخفافيش التي لاتزن أكثر من الدرهم[1].

وقد وردت في كتاب التوحيد للمفضل بعض العبارات القصيرة والعميقة المعنى بشأن خلقة الخفاش حيث إنّ الله خلقه وسطاً بين الطيور والأنعام (الثديّات) ذلك أنّ له أذنين طويلتين وأسناناً وهو يلد ويرضع وليده ويمشي على يديه ورجليه، وكل ذلك خلافاً للطيور، كما يطير في الليل ويتغذى على الحشرات الطائرة في الهواء، ويعتقد البعض أنّه لا يتغذى سوى على الهواء، وهذا باطل، وذلك أولاً: لخروج البول والغائط منه وهذا غير ممكن دون غذاء، وثانياً: إنّ له أسناناً وليس لهذه الأسنان من معنى إن لم يتغذّ ونعلم أنّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً[2]. على كل حال فكلما أمعنا النظر في الخفاش أدركنا عمق الأسرار المركبة فيه، وهنا نقف على عظمة ما أورده الإمام عليه السلام في أنّ الله كأنّه خلق هذا المخلوق للتعريف بعظمة قدرته بعرضه أحد بدائع خلقه الذي انطوى على العديد من العجائب والغرائب.

ﮋﮊ

---

١. الرسالة الثقافية، ج ٧، ص ٦٥٨. ألّف هذا الكتاب العالم الغربي موريس باركر وقد ترجم إلى الفارسية من قبل «رضا أقصى» ونخبة من الكتاب المعروفين، كذلك كتاب المعجم الزولوجي الحديث للمؤلف محمد كاظم المالكي، المتخصص في علم الأحياء، ج ٢، ص ٦٣٦ وكتاب البحث عن الله، لآية الله العظمى مكارم الشيرازي.

٢. راجع بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٧.

١٥٦

ومن خطبة له عليه السلام

خَاطَبَ بِهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ عَلَى جِهَةِ اقْتِصَاصِ الْمَلَاحِمِ[١]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مسائل مختلفة مرتبطة مع بعضها البعض رغم استقلالية كل منها، وتدور هذه الخطبة حول عدّة محاور هي:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام حثّ الناس على طاعته وقد كشف لهم النقاب عن سبيل الجنّة الملئ بالمتاعب والمشقات.

الثاني: إشار الإمام عليه السلام إلى دوافع عائشة في إثارة فتنة الجمل حتى لا يظن الآخرين بأنّ خروجها للمعركة يضفي شرعية على ممارسات طلحة والزبير.

الثالث: يتحدث عن القيامة والمعاد ويعدّ الناس لذلك بالتزود من التقوى والعمل الصالح وكسب الفضائل ومكارم الأخلاق.

الرابع: أشار فيه إلى كيفية بعث الموتى من القبور وحضورهم في المحشر.

---

١. سند الخطبة:

لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما في سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسي لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم السيد الرضي، إلا أنّ مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يقوي سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

الخامس: الحديث عن ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يخالف ظن البعض من المشاكل المترتبة عليها في الحياة الدنيا والآخرة.

السادس: إشارة إلى أهميّة القرآن ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع.

السابع: الرد على سؤال طرحه شخص بشأن الفتنة وهل سأل الإمام عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، إلى جانب إخبارهم عن شهادته.

ጀ

القسم الأول

فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ ٱلنِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ٱلْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا ٱلْأُولَىٰ، وَٱلْحِسَابُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ.

الشرح والتفسير

ظهور الاحقاد بذرائع واهية

ذكرنا سابقاً أنّ الإمامعليه السلام أورد هذه الخطبة بعد موقعة الجمل حيث تفيد العبارات الواردة في طليعتها إشارة الإمامعليه السلام قبل ذلك إلى الفتن التي تنتظر الناس ويحذرهم أنّ فتنة الجمل ليست الأولى والأخيرة فقال: «فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ[1]». مفهوم العبارة «أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ» ـ بالنظر إلى أن يعتقل من مادة عقل بمعنى المنع ـ اقتصار النفس على طاعة أوامر الله التي تمثل أرفع درجات الطاعة والعبودية. والعبارة «وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ» إشارة إلى أنّ الإنسان لا ينال الجنّة والسعادة بالهين، وعلى الفرد الذي يبغي الجنّة أن يعد لها عدتها؛ وذلك لأنّ جهاد النفس ولجم هواها شاق كمواجهة العدو.

---

١. «مريرة» من مادة (مر) على وزن حُر الطعم المعروف بمرارته.

وقد عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى في الخطبة ۱۷٦ بما رواه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الذي ساق عائشة إلى الجمل ـ الفتنة التي عمت العالم الإسلامي آنذاك ـ وقد تطرق إلى التفاصيل بخمس عبارات عميقة المعاني فقال: «وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ[1] الْقَيْنِ[2]، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ تَعَالَى». لا شك في أنّ المراد من فلانة في العبارة المذكورة عائشة، وحيث إنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعة الجمل، يبدو أنّ الهدف هو الرد على بعض الشبهات، واحدى الشبهات، لو لم تكن هذه المعركة شرعية كيف تشترك فيها عائشة لتلعب ذلك الدور الحساس؟ وقد أشار الإمام عليه السلام في رده على هذه الشبهة إلى دافعين يكمنان وراء مساندة عائشة لطلحة والزبير:

الأول: آراؤها الضعيفة كامرأة والتي يستطيع طلحة والزبير اختراقها وضمها إلى جانبهما، ويؤيد ذلك، الأخبار التي صرحت بندم عائشة على فعلتها وتوبتها. والآخر، الحقد الدفين الذي كانت تكنه لعلي عليه السلام والذي فاق الحدود بحيث لم يدعها تفكر في عواقب فعلتها وبوجه من تقف ولحساب من، وكيف ستكون نتيجة المعركة؟ وقد أسهب شرّاح نهج البلاغة في بيانهم للعوامل التي تقف وراء ذلك الحقد والبغض؛ إلّا أنّ الشرح الوافي ما ذكره ابن أبي الحديد عن استاذه أبي يعقوب، ونشير إلى جانب من ذلك:

١. علي عليه السلام زوج الزهراء عليها السلام والزهراء بنت خديجة وقد شحنت التواريخ المعروفة بالأخبار التي تتحدث عن حساسية عائشة من خديجة حتى بعد وفاتها.

٢. منزلة فاطمة الزهراء عليها السلام لدى رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تكشف عن شخصيتها عليها السلام

---

١. «المرجل» هو القدر.

٢. «القين» الحداد.

وأنّه كان يوليها منتهى الحب والاحترام حتى صرحت بعض الروايات المعتبرة أنّه أطلق عليها «سيدة نساء العالمين» وقال: «فَاطِمَةُ بِضعَةٌ مِنّي مَنْ آذاهَا فَقَدْ آذانِي وَمَنْ أَغْضَبَها فَقَدْ أَغْضَبَنِي»[1]. وهذا ما أثار حفيظة عائشة حيث كانت ترى أنّها تستحق هذه الألقاب لا غيرها، ولذلك حملت الحقد على علي عليه السلام.

٣. منزلة علي عليه السلام لدى النبي صلى الله عليه وآله ومدى حبّ النبي صلى الله عليه وآله له وحديثه عن فضائله ومناقبه، وكانت ترى أحقية أبيها أبي بكر بتلك الفضائل.

٤. كون نسل رسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمة عليها السلام وعلي، وحبه للحسن والحسين عليهما السلام بينما لم تكن عائشة ولودة.

٥. إغلاق النبي صلى الله عليه وآله كافّة أبواب الصحابة في المسجد حتى باب بيت أبي بكر سوى باب دار علي عليه السلام. أضف إلى ذلك فهنالك عدّة عوامل أخرىٰ لا يسع المجال ذكرها[2].

جدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد روى عن استاذه أبي يعقوب قال: «ثم بايع علي أباها - عائشة - فسّرت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا واستمرّت الأمور على هذا مدّة خلاف أبيها وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلي، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلّما طال الزمان على عليٍّ تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما في نفسه إلى أن قتل عثمان، وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليباً وتحريضاً. فقالت: أبعده الله! لمّا سمعت قتله، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة، فتعود الإمْرة تيمية، كما كانت أوّلاً، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب، فلمّا سمعت ذلك صرخت: واعثماناه! قتل عثمان ظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده»[3].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٣.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ١٩٢ بتصرف وتلخيص.

٣. المصدر السابق، ص ١٩٨ و ١٩٩.

والغريب في الأمر أنّ بعض العلماء رغم اعترافهم بخطأ عائشة وارتكابها المعصية في معركة الجمل، يزعمون أنّها تابت وقد عفا الله عنها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سفك دماء سبعة عشر ألفاً وفي رواية عشرين ألف مسلم في الجمل بالإضافة إلى تلك المصائب التي طالت العالم الإسلامي بسبب تلك المعركة وما زالت آثارها عالقة، يُغفر بمجرّد قول: «استغفر الله»؟ وهل يتجاوز الله عن هذا الحق بهذه السهولة؟ ذكر ابن عبد ربه في عقده الفريد أنّ امرأة تدعى أم أوفى دخلت على عائشة بعد الجمل وسألتها: يا أم المؤمنين ما تقولين في من قتل ولده الصغير؟ قالت عائشة: وجبت له نار جهنم؟ ثم سألتها : فما تقولين فيمن قتلت عشرين ألفاً من ولدها؟ أدركت عائشة أنها المعنية بهذا السؤال لما فعلته في الجمل فردت: عليكم بعدوة الله هذه[1].

وأما عبارة الإمام عليه السلام: (ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إليّ، لم تفعل) إشارة إلى أنّ هذه المرأة لم تكن لتطالب بدم عثمان، بل هدفها تأليب الناس عليّ. وأمّا عبارته (ولها بعد حرمتها الاولى) ذلك انها كانت زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غض النظر عن عقابها في الدنيا حرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولذلك أردفها بالعبارة (والحساب على الله تعالى) في أنّ الله سوف لن يعفو عن هذه المعصية. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر في الآية الكريمة ٣٠ من سورة الأحزاب: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾.

---

١. العقد الفريد، ج ٥، ص ٧٩.

القسم الثاني

منها: سَبِيلٌ أَبْلَجُ ٱلْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ، فَبِالإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى ٱلإِيمَانِ، وَبِالإِيمَانِ يُعْمَرُ ٱلْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ ٱلْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ ٱلآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ ٱلْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ ٱلْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ ٱلْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى.

الشرح والتفسير

السبيل إلى النجاة

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإيمان ثم آثاره ـ العمل الصالح والعلم والمعرفة وخوف العقاب والاستعداد للسفر الشاق وبالتالي نيل الجنّة ـ فقال: «سَبِيلٌ أَبْلَجُ[1] ٱلْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ». شبه الإمام عليه السلام الإيمان بالسبيل الواضح الخالي من العقبات نهاراً والمليء بالمصابيح ليلاً، كما يحتمل أن يكون المراد من السراج، العلامات والألواح التي تنصب على جوانب الطرق بغية إرشاد المسافر إلى الهدف، أي أنّ الإيمان طريقه واضح وعلاماته جلية.

ثم قال عليه السلام: «فَبِالإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى ٱلإِيمَانِ، وَبِالإِيمَانِ يُعْمَرُ ٱلْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ ٱلْمَوْتُ»[2]. قطعاً أنّ معنى الإيمان في

1. «أبلج» من مادة (ولوج) بمعنى الوضوح، سيما ضياء أول الصبح.
2. المعروف من شرّاح نهج البلاغة أنّ (سبيل) مبتدأ لخبر محذوف هو الإيمان، بقرينة ما ورد في الجملة ←

العبارتين هو الاعتقاد الباطني؛ و(يستدل) في العبارة الأولى، يعطي معنى العِلّية وفي العبارة الثانية، الكاشفية، أي أنّ الايمان سبب العمل الصالح، والعمل الصالح كاشف عن الايمان، مع ذلك ربّما تكون العلية هي المرادة من (يستدل) في المعنيين، أي كما أنّ الايمان سبب العمل الصالح فإنّ العمل الصالح سبب قوة الإيمان. وقوله عليه السلام (وبالايمان يعمر العلم) إشارة إلى أمرين:

الأول: إنّ الإنسان إن آمن بالخالق العالم والحكيم وانفتح على الهدف الذي ينطوي عليه الخلق سيوقن بان ليس هنالك شيء خُلق عبثاً في هذا العالم فيسعى أثر ذلك للوقوف على علل الأشياء وأسرار الظواهر. حيث صرح أحد علماء العلوم الطبيعية بأنّ العنصر الذي دفع بكبار العلماء للسعي من أجل كشف أسرار الطبيعة ولسنين مديدة إيمانهم بالهدفية التي تحكم عالم الخليقة وأن ليس هنالك من سبيل للعبث في خلق أي شيء.

الثاني: إنّ أحد موانع العلم والمعرفة هو التعصب الأعمى والغرور، لكن إن حل الايمان زالت كل هذه الموانع وتمهد السبيل أمام بلوغ منابع العلوم والمعارف. أضف إلى ذلك فإنّ العلم دون عمل هو علم هدام يستبطن الجهل، والعنصر الذي يقرن العلم بالعمل هو الايمان، كما ورد ذلك في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «إنّ العِلْمَ يَهْتِفُ بِالعَمَلِ فَإنْ أجابَهُ وَإلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ»[1]. وقوله عليه السلام: إنّ الإنسان بسبب العلم يرهب الموت في أنّه لا يرى الموت نهاية الحياة، بل يراه بداية حياة جديدة يعيشها على ضوء ما أسلف من أعمال.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكره للعلة والمعلول واللازم والملزوم فقال: «وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيا، وَبِالدُّنْيا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالقِيامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ

☜ القادمة، كما احتمل البعض أن المبتدأ المحذوف «سبيل الجنة» التي وردت في المقطع السابق، والواقع، عبارة (واما فلانة...) ذكرت كجملة اعتراضية.

1. بحارالأنوار، ج ٢، ص ٣٢.

ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ ٱلْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ[1] لَهُمْ عَنِ ٱلْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ[2] فِي مِضْمَارِهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَىٰ». نعم، الموت نهاية الحياة الدنيوية وانطلاقة الحياة الأبدية، وصحيفة الأعمال تطوى بالموت؛ ذلك أنّ مزرعة الآخرة هي الدنيا، وليس في القيامة سوى الجنّة والسعادة الأبدية أو النار والعذاب الأبدي، وكل إنسان دون استثناء آيل إلى أحدهما. لا يستبعد أن يكون ذكره لهذه العبارة بعيد موقعة الجمل أنّ أولئك النفر الضال لو كان إيمانهم قوي لما انساقوا إلى تلك الفتنة والمعركة القاتلة. فالإيمان يدعو العلم والمعرفة وترجيح الدار الباقية على تلك الفانية؛ ولكن من المؤسف أنّ حجاب الهوى يحول دون إدراك العقل لهذه الحقائق رغم أنّ الطريق واضح والمعالم جلية.

أمّا العبارة «وَبِٱلْقِيَامَةِ تُزْلَفُ ٱلْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» مقتبسة من سورة الشعراء، الآية ٩١ـ٩٠: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

---

١. «مقصر» من مادة (قصر) على وزن فصل، أحد معانيه، المنع، كما يطلق المقصر على الموقف، كونه يمنع الإنسان من الحركة.

٢. «مرقل» من مادة (إرقال) بمعنى المسرع.

القسم الثالث

منها: قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ ٱلْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَىٰ مَصَائِرِ ٱلْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ ٱللهِ، «فَإِنَّهُ ٱلْحَبْلُ ٱلْمَتِينُ، وَٱلنُّورُ ٱلْمُبِينُ»، وَٱلشِّفَاءُ ٱلنَّافِعُ، وَٱلرِّيُّ ٱلنَّاقِعُ، وَٱلْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَٱلنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، «وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ ٱلرَّدِّ»، وَوُلُوجُ ٱلسَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

الشرح والتفسير

عوامل النجاة في القيامة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة عقب العبارات السابقة ـ التي تحدث فيها عن الموت والجنّة والنار ـ في مسألة الحشر والنشر يوم القيامة ثم تطرق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميّة القرآن الكريم، كونها تشكل العناصر المحورية في النجاة يوم القيامة فقال: «قَدْ شَخَصُوا[1] مِنْ مُسْتَقَرِّ ٱلْأَجْدَاثِ[2]، وَصَارُوا إِلَىٰ مَصَائِرِ ٱلْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا». فأشار بادىء الأمر إلى أنّ الجميع ينهضون من القبر كما ورد ذلك كراراً في القرآن

---

١. «شخصوا» من مادة (شخوص) على وزن خلوص، بمعنى الخروج من الدار، كما وردت بمعنى، تركيز النظر على نقطة معينة، وكأنّ العين تريد الخروج من حدقتها، وأريد بها هنا، الخروج.

٢. «اجداث» جمع (جدث)، القبر.

الكريم: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾[1] ويستفاد من العبارة أنّ ذرات البدن التي تحولت إلى تراب تعود إلى القبر أينما كانت لتحيا ثانية وتنفض عنها التراب. وهنا يرد هذا السؤال: إنّ آيات القرآن صريحة في أنّ الدنيا ستنتهي بزلزلة عظيمة تحطم كل شيء فكيف ستبقى القبور ويخرج الموتى منها إلى الحساب؟ أوردنا الاجابة عن هذا السؤال في الجزء الثالث من الأنوار العلوية.

ثم أشار الإمامعليه السلام إلى عدم استبدال دور الجنّة والنار وسيقيم كل شخص على ضوء أعماله في الجنّة أو النار؛ والمراد أنّ الثواب والعقاب في الآخرة للمؤمن والكافر أبديان، لا يمكن استبداله ولا نقله. والحق أنّ تلك الدار على قدر من النظام والدقة الذي ينسجم مع العقيدة والعمل وكان كل مكان يبحث عن شخص لا العكس. ثم أشار الإمامعليه السلام إلى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أنّ معركة الجمل كانت من النماذج البارزة لهذا المفهوم، فقال: «وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ». على غرار ما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. ويرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ التعبير (بالخُلُق) عن الله هو تعبير مجازي (مجاز في الكلمة أو مجاز في النسبة)، لأنّ الخُلُق ملكة نفسانية تنبعث من الأعمال الصالحة والسيئة، والله منزّه عن هذه العوارض والحالات، إمّا أن اعتبرنا الخُلُق بمعنى الوصف فليست هنالك من مشكلة سواء أُريد به الحالة النفسانية أو الوصف عين الذات الذي يطلق على الله. على كل حال فإنّ الوظائف التي عينها الإسلام للناس تكون أحياناً متعلقة بالإنسان مثل العبادات وأغلب المحرمات، لكن هنالك أمور واسعة جدّاً تصدق حتى على الله، كالعدالة وترك الظلم وإرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنّ أساس نزول الكتب السماوية وبعث الأنبياء على ضوء

---

1. سورة المعارج، الآية ٤٢.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو إرشاد الجاهل، وبناءً على هذا، كفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهميّة أنّه محور انطلاقة جميع الأنشطة للأنبياء والرسل. وما قاله الإمام عليه السلام من أنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، إشارة إلى أنّ أغلب الناس من ذوي النظرة الضيقة والآفاق المحدودة يعتقدون بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّي إلى الاشتباك مع أهل المعاصي، وهذا ما يؤدّي بدوره إلى القتل تارة وأخرىٰ انفراج الناس عن هذا الإنسان وبالتالي قلة رزقه. ولكن إن جرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الأسلوب الصحيح والمعقول وجانب الافراط والتفريط فإنّ الله يحفظ الإنسان الذي يمارس هذه الوظيفة ولا يبخل عليه في رزقه. وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرائط. منها: احتمال التأثير وعدم الضرر، كما أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعان: عام، وهو وظيفة كافّة الناس (عن طريق القلب واللسان، وخاص، وهو وظيفة الحكومة الاسلامية (من خلال الإجراءات العملية). فلو راعى الإنسان هذه الأمور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب الأدب والاحترام فسوف يحظى بحب الآخرين واحترامهم لا انفراجهم عنه ونفرتهم، فإن عرضت له بعض المكاره يفرجها الله تعالى . وزبدة الكلام إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أساس ودعامة نظام المجتمع وقدسيته ونهضته وتطوره، والعكس بالعكس. فإنّ المجتمع الذي يموت فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستفحل فيه التنصل عن المسؤوليه وترتكب فيه الذنوب والمعاصي ويجهر فيه بالفسوق حتى يغط المجتمع في وحل الانحراف والفساد.

ولما كان سبيل نيل السعادة وحل المشاكل الفردية والاجتماعية يتمثل بالعودة إلى القرآن فإنّ الإمام عليه السلام يتطرق هنا إلى أهميّة القرآن ليوضحها بعبارات حية عميقة المعاني وتشبيهات لطيفة ضمن احدى عشرة جملة ـ تشير كل جملة منها إلى ميزة من مزايا القرآن ـ قال «وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ ٱللَّهِ، فَإِنَّهُ ٱلْحَبْلُ ٱلْمَتِينُ».

كأنّ البشرية قبل التعليم والتربية مستغرقة في وحل الطبيعة ولابدّ لها من التمسك بحبل بغية النجاة. وينبغي أن يكون هذا الحبل متيناً كي لا يتركها منتصف الطريق، ومن هنا يعبر عن القرآن بالحبل المتين، الوسيلة الفضلى في النجاة، وبالنظر إلى أنّ سلوك الطريق في الظلمات يؤدّي إلى الضلال والسقوط في المستنقعات فقد شبه القرآن بالنور المبين الذي يحف الإنسان حتى يبلغ الهدف.

وقال في صفته الثالثة والرابعة بالنسبة للقرآن: وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ[١] النَّاقِعُ[٢]»، فالصفات الذميمة والرذائل الأخلاقية سواء تلك التي يتسم بها الفرد أو الجماعة كالأمراض المعضلة وربّما القاتلة وقد ورد علاجها في ظلال القرآن الكريم، وطالما كان أهم عوامل الحياة وديمومتها هو الماء فإنّ القرآن الكريم يلعب دور الماء في حياة الإنسان المعنوية، ومن هنا عدّه الإمام عليه السلام وسيلة ري عطاشى الحق.

ثم قال في الميزة الخامسة والسادسة: «وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ» فالإنسان عادة ما يتعرض في مسيرته نحو الصلاح والسعادة إلى بعض المطبات ولابدّ له من التمسك بما يعونه من الوقوع في تلك المطلبات. وقال في الميزة السابعة والثامنة «لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ[٣]». قطعاً أنّ كلام الله الذي يستند إلى علمه المطلق ليس من سبيل للخلاف والخطأ والانحراف إليه، ذلك لأنّ الخطأ إنّما يقارفه من كان علمه محدوداً وقدرته بسيطة، لا تلك الذات المطلقة العلم والقدرة، ونعلم جميعاً أنّ احدى ملامح اعجاز القرآن، عدم وجود التضاد والاختلاف في آياته: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً»[٤] كما

---

١. «ري» بمعنى السقي.

٢. «ناقع» من مادة (نقع) على وزن نقع، تعني في الأصل انغمار الماء، وتعني هنا الري الكامل، بحيث يزول العطش.

٣. «يستعتب» من مادة (عتب) على وزن ثبت تعني في الأصل الانفعال الباطني وإن استعملت في باب الاستفعال بمعنى كسب ود الطرف المقابل وكأنه يطلب منه العتبى حتى يرضى ويعود إلى سبيل الحق.

٤. سورة النساء، الآية ٨٢.

ورد في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾[١].

ثم قال في الصفة التاسعة: «وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ». أجل فطراوة القرآن وحلاوته ودوره التربوي يسمو على القراءة والتكرار، ذلك لأنّ القرآن كلام الله وكلامه كذاته غير متناه وكلما تدبر الإنسان فيه اكتشف حقيقة جديدة وكلما تطور العلم البشري كلما تكشفت أبعاد جديدة منه كما قال رسول الله ﷺ: «لا تُحصَىٰ عَجَائِبُهُ وَلَا تُبلَىٰ غَرَائِبُهُ»[٢] أو كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله شخص عن تسامي القرآن على التلاوة والتكرار فقال عليه السلام: «لأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَم يَجْعَلْهُ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٍ وَعِندَ كُلِّ قَومٍ غَضٌّ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ»[٣].

وأخيراً قال في الميزة العاشرة والحادية عشرة: «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ». إشارة إلى أنّ القرآن معيار الحق والباطل والنصر والهزيمة، ومن تحدث على ضوء القرآن كان كلامه عين الحقيقة ومن التزم بالقرآن عملاً نال السعادة، ولاغرو فليس من سبيل للخطأ إلى القرآن وهذا ما يجعل الملتزم به قريباً من الحق في منطقه وسلوكه.

ﮋﮊ

١. سورة الكهف، الآية ١.

٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٦٩.

٣. بحارالأنوار، ج ١٥، ص ٩٢.

القسم الرابع

وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟ فقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ـصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هٰذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هٰذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلٰكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَىٰ وَالشُّكْرِ.

الشرح والتفسير

الفتنة الكبرى

جاء في متابعة الخطبة: «وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟» فالعبارة تشير إلى أنّ أذهان الناس كانت تساورها وقوع الفتنة، وأراد السائل أن يعرف هل ورد عن رسول الله ﷺ شيء بشأن هذه الفتنة الخطيرة. فأجابه الإمام عليه السلام: «إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا

---

١. سورة العنكبوت، الآيتان ١ و ٢.

وَرَسُولُ اللّٰهِ ـ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ، مَا هٰذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ[١] عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟[٢]» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ، لَيْسَ هٰذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلٰكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَىٰ وَالشُّكْرِ».

تأمّلان

١. الرد على بعض الأسئلة

تفيد العبارة الواردة في الخطبة أنّ الآية: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ...﴾ أنّها نزلت في المدينة بعد موقعة أحد، في حين يتفق المفسرون على أنّ سورة العنكبوت مكية، حيث لم يكن آنذاك شيء عن الجهاد.

قيل في الجواب عن هذا السؤال: إنّ مكية سورة معينة يعني نزول السورة بجميع آياتها في مكة، بل لا يمنع أن تكون أغلب آياتها نزلت في مكة كما نزلت آية أو أكثر، منها في المدينة، وقد أمر النبي ﷺ بوضع هذه الآية في السورة، على غرار إجماع المفسرين على مكية سورة النحل مع العلم اليقين بنزول ثلاث آيات منها بعد موقعة أحد.

السؤال الثاني: من أين علم علي عليه السلام بعد نزول الآية المذكورة أنّ الفتنة لا تقع على عهد رسول الله ﷺ بينما لم تشر الآية إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد؟ والجواب واضح في أنّ المراد من الفتنة خطر الانحراف عن أصول الدين وفروعه والذي يهدد كيان الأُمّة الإسلامية وليس لمثل هذا الانحراف أن يقع طالما كان

---

١. «حيزت» من مادة (تعني) الوصول إلى شيء إن تعدت بإلى، وعدمه إن تعدت بعن، كما في الخطبة المذكورة.
٢. «وراء» تعني الخلف كما تعني أحياناً الأمام.

النبيﷺ بين ظهرانيهم، ولكن ما أن تغيب شمس النبيﷺ حتى يستغل المنافقون الفرصة وتبرز الخلافات.

السؤال الثالث: ما تلك الفتنة التي أشار النبي الأكرمﷺ في هذه الخطبة إلى وقوعها بعده؟ فقد ورد في رواية عن النبيﷺ تعرض للتفاصيل أكثر من رواية نهج البلاغة، أنّه قال:

«إنّ أمتي ستفتن من بعدي فتتأول القرآن وتعمل بالرأي وتستحل الخمر بالنبيذ[1] والسحت بالهدية والربا بالبيع وتحرف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال فكن جليس بيتك حتى تقلدها، فإذا قلدتها جاشت عليك الصدور وقلبت لك الأمور»[2]. فهذا الحديث الذي ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة يبيّن تلك الفتنة الكبرى[3].

السؤال الرابع والأخير:

لماذا سأل عليعليه السلام بشأن شهادته؟ فهل أشار النبيﷺ إلى شهادته حين تحدث عن تلك الفتنة؟ والحال لم يرد في الخطبة ما يشير إلى هذا الأمر ؟ والجواب كما أسلفنا أنّ المرحوم السيد الرضي(ره) قد أوجز الخطبة. وقد ورد في الروايات المفصلة أنّ علياًعليه السلام لما سمع من النبيﷺ وقوع هذه الفتنة قال : يارسول الله لقد وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجل لي بين يديك. قالﷺ: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أمّا أني وعدتك الشهادة وستستشهد تضرب على هذه فتخضب هذه[4].

---

١. المراد من النبيذ كما ورد في روايات أهل البيت أنّ النبيﷺ أراد الحد من برودة ماء المدينة فأمر بطرح كميّة من التمر في ظرف كبير من الماء (لا أن يكون الماء مضافاً) إلّا أنّ بعض المنافقين تذرع لاحقاً بهذا الموضوع وقذف بمقدار كبير من التمر حتى تخمر وخرج منه هذا الشراب الشفاف الذي يعرف بالنبيذ.

٢. بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٤٣.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٠٦.

٤. المصدر السابق.

٢. الشهادة مفخرة لا مصيبة

القضية الجديرة بالذكر في هذا المقطع من الخطبة ما ورد من حوار بين النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، حيث تطرق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى مفهوم الصبر الذي يكشف عن ذروة الإيمان وقمة الإيثار والتضحية في سبيل الله والقيم الإسلامية التي لم تنقل عن شخص آخر على غرار ما هي عليه بالنسبة لعلي عليه السلام، ولعلنا نلمس امتدادات ذلك في صرخته التي اطلقها عليه السلام حين ضرب في محراب عبادته وخضب بدمه، «فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ».

ﮋﮊ

القسم الخامس

وَقالَ: «يا عَلِيُّ، إنَّ ٱلْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلىٰ رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرامَهُ بِالشُّبُهاتِ ٱلْكاذِبَةِ، وَٱلْأَهْواءِ ٱلسّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ ٱلْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يا رَسُولَ ٱللّٰهِ، فَبِأَيِّ ٱلْمَنازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ».

الشرح والتفسير

الحيل الشرعية في استحلال المحرمات

قال الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل آخرها ومواصلة لنقل كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخصوص الفتنة التي تقع من بعده: «وَقالَ: «يا عَلِيُّ، إنَّ ٱلْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرامَهُ بِالشُّبُهاتِ ٱلْكاذِبَةِ، وَٱلْأَهْواءِ ٱلسّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ ٱلْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ[1] بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبا بِالْبَيْعِ».

فقد ركز رسول الله صلى الله عليه وآله على تفاصيل هذه الفتنة الكبرى وأشار إلى خمس صفات من صفات الفئة التي تعيش ذلك الاختبار. فصرح قبل كل شيء بافتتانهم بأموالهم في إشارة إلى أنّ المال من المحاور الرئيسية في الاختبار والامتحان، كما نرى أنّ الأمر كذلك في كل عصر ومصر، والآخر، أنّهم يعيشون حالة من الغرور

1. «السحت» يعني في الأصل، فصل القشر عن الشيء، ثم اطلق على كل مال غير شرعي ولا سيما الرشوة، لأنّ هذه الأموال تسلب الإنسان البركة على غرار الشجرة التي تذبل حين سقوط قشرها.

الزائف، ذلك أنّهم يتطاولون على الناس بإسلامهم وكأنّهم يمنّون على الله، ويظنون رغم كل آثامهم بنيل رحمة الله والأمان من عذابه، وهذه هي الحالة التي تستحوذ عادة على جميع الاثمين المغرورين الراضين عن أنفسهم.

قال القرآن الكريم بشأن بعض الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً واتسموا بتلك الصفات: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

الميزة الأخرى لهؤلاء أنّهم يحاولون التغطية على أعمالهم السيئة بغية خداع الآخرين وربّما خداع أنفسهم. فهم على سبيل المثال يتناولون الخمور وحين يشكل عليهم بأنّها من المحرمات، قالوا: بل هذا النبيذ الذي كان يشربه رسول الله ﷺ وأصحابه، في حين لم يكن ذلك النبيذ مسكراً ولا حراماً، وقضية ذلك النبيذ أنّ أصحابه بعد أن قدموا إلى المدينة وشكوا من طبيعة الماء، أشار عليهم بقذف عدّة تميرات في ظرف كبير من الماء. ولم يكن ذلك الماء مضافاً، كما لم تكن التميرات بالحد الذي يؤدّي إلى السكر، فكانوا يشربون من ذلك الماء ويتوضأون به، إلّا أنّ بعض المغرضين استغل هذه القضية وقذف المزيد من التمر وعرضها للحرارة حتى تخمرت وتحولت إلى مسكر، فكانوا يتعاطونه باسم النبيذ[2]. على غرار الكثير من الأشخاص ضعاف الايمان في الماضي والحاضر الذين يصطلحون على الرشوة بالهدية، كما يمارسون الربا في معاملاتهم باسم البيع. طبعاً يسعى الآثمون في الأوساط الدينية التي لا يخفى فيها الاثم ويؤدّي إلى بعض المشاكل بالنسبة لمن يقارفه إلى ممارسة الحرمات من خلال بعض المظاهر الزائفة. وهذا ما تناولته الأخبار الواردة بشأن الفتنة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته في حديثه مع الرسول الله ﷺ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللّٰهِ،

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٧٠.

٢. راجع الكافي، ج ٦، ص ٤١٦، ح ٣٠.

فَبِأَيِّ ٱلْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ[1]، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ». يبدو أنّ هؤلاء الأفراد يقرون بالتوحيد والنبوّة وكان انحرافهم في القضايا العملية، ولم يكونوا منكرين حتى لضروريات الدين وكانوا يسعون لتمويه ما يقترفون من محرمات بغطاء الحلال، وعليه لا يجري عليهم حكم الارتداد، ولم يعاملهم الإمام عليه السلام كمرتدين.

تأمل

الحرام لا يحلل بالزيف

ما أورده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن الفتنة لا يقتصر على عهد علي عليه السلام بل يمتد ليشمل كل العصور بما فيها عصرنا الراهن. فهنالك العديد من الأفراد الذي يظنون أنّهم في ركب المؤمنين حين يجري الكلام عن الأموال والثروة غير المشروعة وكأنّهم يمنون على الله بإسلامهم ويطمعون بعفوه ورحمته. والأسوأ من ذلك ارتكاب الكبائر في إطار بعض العناوين المباحة والمزيفة، بعبارة أخرىٰ يرتكبون هذه المخالفات من خلال التحايل على القانون واستغلال بعض فقراته المرنة. ولعلنا نشاهد اليوم أغلب المرابين الذين يتشبثون بمختلف الحيل، تارة باسم تبديل العملات النقدية بأخرىٰ، وتارة أخرىٰ عن طريق «ضم الضميمة» أي أنّهم يضمون إلى المعاملة شيئاً زهيد القيمة فيبيعونه بقيمة فادحة، وأحياناً باسم تقاضي الأجور وأخرىٰ ببيع الشروط الكاذبة أو حق العمل وذريعة التضخم وسائر العناوين الكاذبة والزائفة لإضفاء الحلية على الربا، حتى عدنا نلمس بوضوح ما قاله النبي صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَىٰ أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ»[2]. حقاً أنّ هذا النوع من المخالفة للقوانين الشرعية هو أسوأ وأخطر من

---

1. «ردّة» على وزن مكة الرجوع عن شيء، و(ردّة) على وزن فتنة، الرجوع عن الدين، وهذا هو المعنى المراد في العبارة المذكورة في الخطبة.
2. مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٣٣٣.

المخالفة الصريحة؛ لأنّها قد تستشري سريعاً في أوساط المجتمع دون أن تصطدم ببعض الموانع. والحال ليست المعاصي الصريحة بهذا الشكل والتي تصطدم بالكثير من العقبات في المجتمعات الدينية. أضف إلى ذلك فإنّ هذا الهروب من القانون يعد جريمة مضاعفة؛ فهو ينطوي على معصية الربا إلى جانب الرياء والتلاعب بأحكام الدين. بعبارة أخرى، لا يبقىٰ من القانون والحكم الشرعي في الهروب سوى صورته الظاهرية مع اسقاط مضمونه وفلسفته؛ فتحريم الربا مثلاً يستند إلى مفاسدة العديدة على النظام الاقتصادي للمجتمع وإثارة السلبية في خلق الطبقية البغيضة وبروز الطبقة المعدمة إلى جانب تلك المرفهة، ومن هنا عدّته بعض الروايات أسوأ من الزنا بالمحارم وأنّه بمثابة محاربة الله، وذكرت سبعاً من مفاسده أوضحناها في بحث الربا[1]. ولنا أن نتساءل: هل تزول هذه المفاسد بممارسة بعض الأمور الظاهرية من قبيل إضافة علبة كبريت أو مقدار من النبات إلى تلك المعاملة الثقيلة؟ كلا. وهل يكمن جوهر المشكلة في كلمة السحت والربا كما قال المرحوم وحيد البهبهاني وأنّ جميع مساوىء الربا إنّما تعود إلىٰ هذه الألفاظ، أم أنّ هنالك حكمة في هذا الحكم لا ينبغي الغفلة عنها؟!

٭٭٭

١. راجع كتاب الربا والبنوك المصرفية لسماحة المؤلف.

١٥٧

ومن خطبة له عليه السلام

يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى[1]

نظرة إلى الخطبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر خطب نهج البلاغة بحمد الله والثناء عليه، ثم خاض في بعض الأمور الحساسة. تطرق في القسم الأول إلى الاعتبار بالماضين ـ الذين نشترك معهم في المصير ـ ليأخذ بأيدينا إلى أعماق التاريخ لننظر بوضوح لمصيرنا فنظفر بالسعادة.

وأشار في القسم الثاني إلى أهمية الورع والتقوى والتزود من الدنيا للآخرة، وحذر من أنّ نهاية الحياة الدنيا ليست معلومة لأي فرد فلا ينبغي الغفلة. وتحدث في القسم الثالث عن المراصد التي تتابع أعمال الإنسان بما فيها الملائكة والحفظة وحتى جوارح الإنسان وأعضائه.

---

١. سند الخطبة:
رغم سمو مضامين الخطبة وألفاظها الفصيحة والبليغة التي يستبعد صدورها ـ على غرار سائر خطب نهج البلاغة ـ عن غير الإمام المعصوم عليه السلام، مع ذلك تشير إلى بعض المصادر التي وردت بشأنها في كتاب مصادر نهج البلاغة. فقد أشار إلى بعضها العالم اللغوي ابن الأثير في النهاية في مادة شول ومادة ربك، كما وردت بعض عباراتها باختلاف في غرر الحكم والذي يفيد أنها أخذت من مصدر آخر غير نهج البلاغة.

وخاض في القسم الأخير في نهاية الحياة وعالم القبر والوحشة هنالك وفناء الدنيا والقيامة من خلال عبارات قصيرة تهز الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة.

﴿﴾

القسم الأول

اَلْحَمْدُلِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلاً عَلَىٰ آلائِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللّٰهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ؛ لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلّىٰ مِنْهُ، وَلَا يَبْقَىٰ سَرْمَداً مَا فِيهِ.

آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّءَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ.

الشرح والتفسير

انعطافة على المبدأ والمعاد

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله بعبارات جديدة فقال: «اَلْحَمْدُ[1] لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلاً عَلَىٰ آلائِهِ وَعَظَمَتِهِ». أمّا بشأن الذكر الوارد في العبارة، فقد قيل: المراد به القرآن الكريم حسب بعض الآيات التي عبرت عنه بالذكر، وذلك لأنّ سورة الحمد بداية القرآن (بناءً على أنّ سورة الحمد أول سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأنّ القرآن جمع بهذا الشكل على عهد

---

1. «الحمد» في اللغة، بمعنى المدح على عمل أو صفة اختيارية، ولما كانت افاضته النعم على المحتاجين احدى الأعمال الحسنة فإنّ هذه المفردة ترد بمعنى الشكر أيضاً.

النبي ﷺ بأمره وقد صدر بسورة الحمد[1]. أو أنها إشارة إلى بعض السور القرآنية التي تصدرت بالحمد كسورة الحمد والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. أو أنّ الذكر مطلق ذكر الله كما ورد في الأحاديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم»[2]. ومن هنا نشاهد أغلب خطب النبي الأكرم ﷺ والمعصومين عليهم السلام تستهل بحمد الله والثناء عليه. والعبارة (سبباً للمزيد من فضله) إشارة للآية الكريمة: «لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم»[3] وهنا لابدّ من الإلتفات إلى أنّ الحمد ورد في أغلب الآيات القرآنية بمعنى الشكر. والعبارة (دليلاً على عظمته وآلائه) إشارة إلى أننا حين نحمد الله ونشكره فإننا نكون قد توجهنا إلى نعمه وآلائه إلى جانب التفاتنا لمقام عظمته.

ثم خاطب الإمام عليه السلام عباد الله ليحذّرهم من تقلب الدنيا ويوصيهم بالاعتبار بمن سبقهم من الماضين فقال: «عِبَادَ ٱللَّهِ، إِنَّ الدَّهرَ[4] يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ». والعبارة تشير إلى موضوع معروف في أنّ التاريخ يعيد نفسه وأنّ حوادث اليوم هي حوادث الأمس بتغيير طفيف. ويقول موضحاً ذلك «لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ، آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ». أجل، لو تمعنا قليلاً لعرفنا أنّ سلسلة من الأصول تحكم تاريخ البشرية وأنها تبرز كل يوم بصيغة جديدة، ومن هنا يستطيع كل فرد الوقوف على مستقبله من خلال دراسة تاريخ الماضين، ذلك أنّ تاريخ الأمس مرآة عاكسة لأحداث اليوم. فهنالك على الدوام فئة تمسك بزمام الأمور وتسيطر على كل شيء ولا تمضي عليها مدّة حتى

---

١. أكدنا على هذا الاحتمال في بحث سورة الحمد في التفسير الأمثل واعتبرنا تسميتها من قبل الروايات بفاتحة الكتاب دليلاً على ما ذهبنا إليه.

٢. فقه السنة، ج ٢، ص ٢٣٠ (كما وردت بعض الروايات بهذا الخصوص في كتاب المغني لابن قدامة ونيل الأوطار للشوكاني).

٣. تفيد هذه العبارة أنّ الاحتمال الثالث أنسب الاحتمالات.

٤. «الدهر» حسب الراغب في المفردات أنها في الأصل اسم لعمر العالم، ثم أطلقت على معنى اوسع يشمل الزمان وتاريخ الحياة البشرية، كما تستعمل بمعنى ناس عصر معين وخالق الزمان أيضاً.

يدب فيها الضعف والعجز وتتخلى عن تلك السلطة مختارة أو مرغمة إلى الآخرين ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما جرت العادة على أنّ يولد الفرد طفلاً ثم يصبح شاباً يافعاً وبالتالي يسير إلى الشيخوخة والهرم لينتظر أجله فيلتحق بقافلة الموتى ويتوسد التراب.

وما أن يفرغ الإمامعليه السلام من هذا الأمر حتى يسدى نصائحه ومواعظه «فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ[1] حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ». وبالنظر إلى أنّ الزاجر تطلق على من يسوق الجمال بسرعة، والشوال جمع شائلة التي تطلق على الجمال الخفيفة، أي التي مضت مدّة على وضعها لحملها وقد جفّ تدياها وبالطبع لا يلتفت إليها الراعي، نستنتج أنّ الدهر يسوق الناس سراعاً إلى الفناء. فما أسرع الليالي والأيّام والسنوات والأشهر، إلى جانب الحوادث المفاجئة والأمراض وسائر الأمور التي تستهدف حياة الإنسان.

ثم يلفتعليه السلام الانتباه بعد ذلك التحذير إلى هذه الحقيقة: «فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ[2] فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ». فكل إنسان ينطوي على بعض المناقص والمثالب ونقاط الضعف وليس له من سبيل سوى إصلاحها ليتدرج في المسيرة نحو الإنسان الكامل فيستحق قرب الله وخلافته. أمّا من صوب نظره خارج ذاته وانهمك بسائر قضايا الناس كالمال والثروة والجاه فلا مناص أنّه سيعيش الحيرة والارتباك، والأسوأ من ذلك أنّ الشياطين تتخطف هذا الإنسان الغافل فتسوقه إلى الطغيان وتزين له سوء أعماله حتى يراها من مواطن قوته فيفخر بها، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الإنسان لا سبيل لديه إلى النجاة. صرح القرآن بشأن مثل هذا الفرد: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

---

١. «تحدو» من مادة (حدو) و(حدي)، سوق الابل، ومطلق السوق.

٢. «ارتبك» من مادة (ربك) على وزن ربط، الاضطراب، بحيث يصعب على الإنسان النجاة.

٣. سورة الانعام، الآية ١٢٢.

وأشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبة إلى مصير هذا العمل فقال: «فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ» والمراد طبعاً من السابقين، السابقين في ميدان طاعة الله وهدفهم الجنّة، على غرار ماورد في القرآن الكريم: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] العبارة (والنار غاية المفرطين) إشارة إلى الأفراد الذين تئول أمورهم إلى النار بفعل تقصيرهم وعدم استغلالهم الفرص؛ حيث يقول القرآن الكريم بشأن مثل هؤلاء الأفراد: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[2].

تأمّل

كيف يعيد التاريخ نفسه

تاريخ البشرية سلسلة من الأحداث الجمة المتنوعة والمختلفة، ولكن ما أن نتأملها بدقة حتى نستطيع التوصل إلى خصائص تلك الأحداث المختلفة وتقولبها في فئات معينة وعناوين خاصة، وبعض تلك الخصائص كما يلي:

١. الزوال السريع للنعم والسلطات :نعم، فالنعمة والسلطة تأتي بسرعة وتزول كذلك وتنتقل من طرف لآخر.

٢. التقلب : التقلب هو احد مميزات حوادث هذا العالم فما أن يتعلق الإنسان بشيء حتى يفقده، وما أن يذوب في شخص حتى يفجع به.

٣. غدر الدنيا: وقد ضرب المثل بهذا الشأن حتى قيل (لمن صفت الدنيا لتصفو لنا).

٤. النصر والهزيمة: ما زالت ذاكرة التاريخ حافلة بالكثير من الأفراد والطوائف الذين عاشوا الانتصار وغروره ولكنهم ما لبثوا أن تجرعوا غصص الذل والهوان

---

١. سورة الحديد، الآية ٢١.

٢. سورة الانعام، الآية ٣١.

ومرغت أنوفهم بوحل الهزيمة.

٥. استبدال الود بالعداء والعكس: فأقرب مقربي الإنسان اليوم قد يصبح عدوه في الغد كما أنّ أعداء الأمس قد يصبحون أصدقاء اليوم، الأمر الذي نلاحظه بجلاء في حياة الساسة والحكام.

٦. الترحم واللعن: الذي يبقى فعلا ويدعو إلى الذكر الحسن لدى الناس هو أعمال الخير والبر والمروءة والاخلاص، والعكس صحيح، فليس للظلم والطغيان سوى اللعن.

القسم الثاني

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى.

عِبَادَ اللهِ، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ لازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ وَتَشِيبُ فِيهِ الأَطْفَالُ.

الشرح والتفسير

تقلب الدنيا

قال الإمام عليه السلام هنا ـ بعد أن خاض في تقلب أحوال الدنيا واعد المخاطبين لاستماع المواعظ والإرشادات: «اعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ». إشارة إلى أنّ

التقوى ملكة باطنية قوية تحول دون مقارفة الإنسان للذنب وهذا ما يؤدّي بدوره إلى الاحتراز من انعكاسات الذنب الخطيرة في الدنيا والآخرة. بعكس الأفراد المجانبين للورع والتقوى والذين يصبحون عرضة لنفوذ الشياطين وأهواء النفس وبالتالي السقوط في مستنقع الذنب والفضيحة في الدنيا وسوء العذاب في الآخرة.

ثم تطرق عليه السلام إلى آثار التقوى فقال: «أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ[1] الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى» فالإمام عليه السلام يشبه سطوة الذنوب بالحشرات السامة كالحية والعقرب. نعم، فالتقوى هي التي تمنح الإنسان الحياة، ولما كانت التقوى واليقين لازماً وملزوماً لبعضهما البعض فقد صرح الإمام عليه السلام بأنّ من ينطق باليقين يبلغ الهدف، والتقوى تزيل عقبات الطريق ولا يفرز عدم التقوى سوى ضعف اليقين. فهل يسع من يوقن بهذه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم نَاراً»[2] أن يأكل مال اليتيم؟ وهل يسعك أن تجد شخصاً يتناول قطعة من النار ويضعها في فمه؟! ثم قال في اطار حثّ الآخرين علىٰ التزود من الدنيا للآخرة: «عِبَادَ اللهِ، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُم، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ». قطعاً المراد من (أعز الأنفس) في هذه العبارة نفس الإنسان، ذلك لأنّ حب الذات مسألة طبيعية لدى الإنسان وإن تعلق بشخص أو شيء ففي ظل غريزة حب الذات (بغض النظر عن أولئك الذين تجاوزوا ذواتهم ولم يعودوا يروا سوى الله وذاته المطلقة ولا يرومون سواه. على كل حال، فالمراد: إن لم ترحموا أحدا فعلى الأقل ارحموا أنفسكم وإن غفلتم عن مصالح الآخرين فلا تغفلوا عن مصالحكم، فهذا الأمر مودع في فطرتكم.

ثم حذر قائلاً: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!». وخاض أخيراً في بيان أسباب نيل السعادة الدائمة واجتناب

---

١. «حمة» بالضم، على وزن قوة، بمعنى لسع الحشرات والعقارب وما شابه ذلك، كما تطلق على سمها أيضاً.

٢. سورة النساء، الآية ١٠.

الشقوة الدائمة فقال: «فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ[1]، وَحُثِثْتُمْ[2] عَلَى الْمَسِيرِ». جدير ذكره أنّ المراد من الزاد: التقوى والعمل الصالح الذي أشار إليه القرآن: ﴿وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾[3]. والعبارة (أمرتم بالظعن...) يمكن أن تكون إشارة إلى أمر تشريعي ورد في الآيات المرتبطة بفناء الدنيا وأنّ كل شخص سيذوق في خاتمة المطاف طعم الموت على ضوء الدلالة الالتزامية. كما يمكن أن يكون إشارة إلى أمر تكويني؛ لأنّ الله خلق أسباب الحركة بحيث يسرع الطفل نحو الشباب والشباب إلى الكهولة وحث الخطى نحو دار البقاء، وقد أصدر أمره بحث الحركة نحو أسباب العفو والمغفرة: ﴿وَسارِعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4]. كما ورد في الخطبة ٣١ من نهج البلاغة في وصية الإمام عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «يابني من كانت مطيته الليل والنهار، فإنّه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً».

ثم واصل كلامه بتشبيه بليغ فقال: «فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ[5] وُقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ». لعل هنالك من يتساءل كيف التوفيق بين عبارة الإمام عليه السلام وقوله (أمرتم بالظعن) التي اردفها بالعبارة (لا يدرون متى يؤمرون بالسير)؟ وإنّ أدنى تأمل يفيد أنّ العبارة الأولى إشارة إلى الحركة في الدنيا نحو الكمال والمسارعة في أعداد عناصر العفو والمغفرة، أمّا العبارة الثانية فهي تشيرالحركة من الدنيا إلى الآخرة. على كل حال فقد ورد هذا التشبيه في سائر مواضع نهج البلاغة ومنها الكلمات القصار حيث قال عليه السلام: «أَهلُ الدُّنيا كَرَكْبٍ يُسارُ بِهِم وَهُم نِيامٌ»[6] وهذا النوم هو الغفلة

---

١. «الظعن» بمعنى (الرحيل) من مكان إلى آخر.

٢. «حثثتم» من مادة (حث) على وزن وصف، الاندفاع والسرعة.

٣. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٤. سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

٥. «ركب» جمع (راكب) تعني في الأصل، ركوب الدابة، إلّا أنّ معناها المتعارف، القافلة.

٦. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٦٤.

التي يعيشها أغلب الناس. ثم قال في توضيح هذه الحقيقة: «أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ[١] وَحِسَابُهُ!». إن كانت دارنا الأصلية هي دار الآخرة والدار الدنيا ليست سوى ممر فما معنى تعلقنا بهذه الدنيا؟ وما معنى كل هذا السعي والجهد من أجل جني الأموال ولو عن طريق مزج الحلال بالحرام وهي ليست سوى وديعة لدينا وإنّ يوماً سنفارقها ونحاسب عليها؟

ثم استعان الإمام عليه السلام في اطار حثه الآخرين على الخير والإحسان واجتناب الشر والسوء بمنطقين مؤثرين؛ الأول الذي قال فيه: «عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلاَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ». إشارة إلى أنّ من أمر ونهى ووعد بالثواب وتوعد بالعقاب ليس فرداً عادياً يمكن الريبة في كلامه. والثاني الذي قال فيه: «عِبَادَ اللَّهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ وَتَشِيبُ[٢] فِيهِ الأَطْفَالُ». ففي ذلك اليوم ستخضع جميع الأعمال مهما كانت صغيرة لدراسة دقيقة، كما قال القرآن الكريم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٣]. والمراد من كثرة الزلازل في ذلك اليوم زلزلة الافكار وارتعاد القلوب من هول المحشر وخوف نتيجة الأعمال. صحيح أنّ نهاية العالم ستشهد زلزلة بمعناها الحقيقي والتي تقلب كل شيء رأساً على عقب، وما ورد في العبارة إشارة إلى الزلزلة الفكرية والاضطراب الذي يعانيه الإنسان في ساحة الحشر. والعبارة «تشيب فيه الأطفال» كناية عن عمق وشدة ذلك المشهد وهو التعبير السائد لدينا

---

١. «تبعة» من مادة (تبع) على وزن خبر، بمعنى المتابعة، ويطلق تبعة العمل على الجزاء الذي يطال الإنسان بعد مقارفته المعصية.

٢. «تشيب» من مادة (شيب) على وزن عيب، بمعنى بياض الشعر، وتطلق عادة على الكهول، وشيب: على وزن سيب، جمع أشيب بمعنى الكهول في مقابل الشباب، والشبيبة بمعنى الشباب.

٣. سورة لقمان، الآية ١٦.

في المكالمات اليومية حين تقول: إنّ تلك الحادثة مثلاً تشيب الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾[1] نعم، ذهب البعض إلى أنّ شيب الأطفال هنالك بالمعنى الحقيقي لا الكنائي، إلّا أنّ هذا الاحتمال بعيد، فليس هنالك مايشير إلى أنّ الطفل الذي يتلقى العذاب يشيب بفعل هول العذاب.

ﮊﮋ

---

١. سورة المزمل، الآية ١٧.

القسم الثالث

اَعْلَمُوا، عِبَادَ ٱللّٰهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ وَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ.

يَذْهَبُ ٱلْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ ٱلْغَدُ لَاحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ ٱلصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَٱلسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ ٱلْأَبَاطِيلُ، وَٱضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ ٱلْعِلَلُ، وَٱسْتَحَقَّتْ بِكُمُ ٱلْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَٱعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَٱنْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

الشرح والتفسير

حضور المحكمة الإلهيّة

أشار الإمام عليه السلام اتماماً لمواعظه السابقة إلى ثلاثة أمور مهمة: الأول، بشأن حفظة الأعمال، والثاني، الموت والقبر، والثالث، الحساب يوم القيامة والتي من شأنها تنبيه الغافل ويقظته من سبات الغفلة. فقال في الأمر الأول: «اَعْلَمُوا، عِبَادَ ٱللّٰهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ».

ثم وضح طبيعة هؤلاء المراقبين فقال: «لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ [1]، وَلَا

---

1. «داج» من مادة (دجو) على وزن هجو، بمعنى الظلم، وليل داج، الليلة الظلماء التي لا يرى فيها القمر والنجوم.

يُكِنُّكُمْ[١] مِنهُمْ بَابُ ذُورِتَاجٍ[٢]». العبارة «أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُم» إشارة إلى شهادة أعضاء بدن الإنسان وجوارحه وجلده يوم القيامة، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣] ثم قال: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٤]. بالنظر أنّ معنى «الرصد» الرقيب، و«عيون» بمعنى الاطلاع فإنّ المفردتين من قبيل الإجمال والتفصيل؛ أي أنّ مراقبي أعمال الإنسان في الدرجة الأولى أعضاؤه وجوارحه التي تنطق يوم القيامة وتشهد على جميع أعماله. أمّا ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ «الرصد» يعني وجدان الإنسان الذي يلومه على الأعمال السيئة، فليس بصحيح؛ لأنّ الوجدان قاضي الباطن لا المراقب والشاهد الكامن في مفهوم الرصد. وهل هذه الشهادة بلسان القال والنطق المتعارف أم بلسان الحال وشهادة الآثار؟ الاحتمالان واردان: لأنّ أي عمل يقوم به الإنسان تنعكس آثاره على جميع أعضائه وستظهر هذه الآثار يوم القيامة لتفصح عن جميع أعماله التي أتى بها طيلة عمره، كما يمكن تبديلها إلى أمواج صوتية يسمعها الجميع. والعبارة «وَحُفَّاظَ صِدْقٍ» إشارة إلى الملائكة الموكلة بضبط أعمال الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٥] وهنا يرد هذا السؤال المعروف: ما حاجة الله إلى هؤلاء الملائكة رغم علمه الذي أحاط بكل شيء وأنّه أقرب إلينا من حبل الوريد؟ وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة

---

١. «يكنّكم» من مادة (كنّ) على وزن جن، يقال عادة للظرف الذي يحفظ فيه الشيء، ثم توسع هذا المعنى وأصبح يطلق على كل ما يحفظ الأشياء أو الأشخاص.

٢. «رتاج» و «رتج» على وزن كرج، الباب العظيم المحكم الاغلاق.

٣. سورة النور، الآية ٢٤.

٤. سورة فصلت، الآية ٢١-٢٢.

٥. سورة الانفطار، الآيات ١٠-١٢.

وهي أنّ الإنسان كائن مادي وليس له من معرفة عميقة بعالم ماوراء المادة ولا يشعر بقرب الله منه؛ إلّا أنّه يدرك هذا المطلب تماماً حين يقال له إنّ أعضاء بدنك ستشهد عليك يوم القيامة. كما يعير هذا الموضوع أهميّة كبرى إن قيل له: عليك ملكان يكتبان كل أعمالك، وهذا بدوره يمثل عنصراً مهمّاً في ردعه عن ارتكاب الذنوب والمعاصي. فالله سبحانه وتعالى أراد بكل وسيلة أن يصد عباده عن الذنوب، وشهادة الأعضاء والملائكة واحدة من هذه الوسائل.

الغريب في الأمر أنّ هؤلاء الحفظة يحصون على الإنسان حتى عدد أنفاسه ولا يحتاجون في كتابتهم لأعمالنا لأدنى سراج ومصباح، فهم يكتبون حتى في عتمة الظلمة المطلقة، ولكن ما كيفية هذه الكتابة؟ قطعاً ليس ذلك من قبيل كتابتنا وإن لم نحط علما بتفاصيل ذلك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن الموت والقبر الذي يهزّ الغافل بعنف فقال: «وَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ ٱلْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ ٱلْغَدُ لَاحِقاً بِهِ». المراد من «الغد» قرب نهاية العمر والموت الذي إن غفل عنه الإنسان يهوى في مستنقع الغفلة فإن رآه قريباً راقب أعماله وقام بوظيفته وتاب من ذنوبه. حقاً أنّ نهاية العمر ليست بعيدة مهما عمّر الإنسان، ذلك أنّ الأشهر والسنين تمرّ بسرعة إلى جانب الحوادث غير المتوقعة والأمراض التي تهجم على الإنسان فجأة وتقضي عليه. وذهب بعض الشرّاح لنهج البلاغة إلى أنّ المراد بـ «الغد» في العبارة المذكورة غد القيامة، وهذا المعنى وإن كان قريباً إلّا أنّ المعنى الأول وبالاستناد إلى العبارات القادمة التي تحدثت عن القبر أنسب.

ثم ذكّر الجميع بوحشة القبر فقال: «فَكَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ[1] حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ!».

---

١. «مخط» من مادة (خط) بمعنى الخط والعلامة، فهو اسم مكان، والمراد به في العبارة، المكان الذي يُخطط لحفر القبر.

أجل، فالإنسان الذي لا يتحمل الوحدة لساعة ويعيش دائماً بين صحبه وقرابته وأهله، لا يكاد يغمض عينيه عن هذه الدنيا حتى يفارق الجميع وإلى الأبد فينزل حفرة مظلمة ومرعبة في وحدة وغربة مطلقة، فيالها من غربة أليمة صعبة، اللّهم إلّا أن يظفر بأصحاب جدد من أعماله الصالحة فتجعل الملائكة قبره روضة من رياض الجنّة، لا حفرة من حفر النار.

قال الإمام الصادقعليه السلام «إِنَّ لِلقَبْرِ كَلاماً فِي كُلِّ يَومٍ يَقُولُ: أَنـا بَيْتُ الغُرْبَةِ، أَنـا بَيْتُ الوَحشَةِ، أَنـا بَيْتُ الدُّودِ، أَنـا القَبْرِ، أَنـا رَوضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ أَو حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»[1].

وأخيراً ما أن يفرغ الإمامعليه السلام من بيان الموت والقبر حتى يتجه صوب القيامة ومحكمة العدل الإلهي ليحذر الجميع قائلاً: «وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا». «وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ»، في العبارة، إشارة إلى صيحة القيامة التي توقظ جميع الموتى وتنشرهم من قبورهم وتدفعهم إلى الحساب. يستفاد من الآيات والروايات أنّ العالم ينتهي بصيحة عظيمة يقال لها نفخة الصور الأُولى، ثم تتبعها صيحة عظيمة أخرى تدعى نفخة الصور الثانية، وما ورد في الخطبة بقرينة ما بعدها من عبارات، إشارة إلى النفخة الثانية. والتعبير بالساعة، إشارة إلى القيامة، لأنّ الساعة تعني في الأصل، برهة من الزمان أو لحظة عابرة، ولما كان قيام الساعة سريعاً والحساب أيضاً سريعاً لاستناده لله سريع الحساب فقد عبّر عن القيامة بالساعة.

«لِفَصْلِ الْقَضَاءِ»، القضاء الذي يفصل الحق من الباطل وزوال الأباطيل واضمحلال العلل، إشارة إلى خلو القيامة من الكذب والاعذار الواهية والحجج الجوفاء، وكل ما هنالك هو الحق والحقيقة. والعبارة «وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ

---

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٧؛ اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٤٢.

مَصَادِرَهَا»، إشارة إلى أنّ كل شخص يرى نتيجة عمله وكل يحل في مكانه الأصلي هنالك. والإمام عليه السلام يرى القيامة قريبة إلى الحد الذي جعله يقول بأنّ كل شيء كأنّه قد وقع ونفخ في الصور وقامت القيامة وخرج الموتى للحشر من قبورهم ونصبت موازين العدل وحصلت نتيجة الأعمال، وكل ذلك يشير إلى مدى قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة.

وقد عبّر القرآن الكريم عن القيامة فقال: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ»[1] كما عبّر عنها بيوم الفصل الذي يفصل الحق عن الباطل وعبّر عنها بسرعة الحساب، وقال في موضع أخر: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»[2] و«يَوْمَ هُم بَارِزُونَ»[3] و«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ»[4].

واختتمها بالقول: «فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ». و«عبر» جمع عبرة، إشارة إلى الحوادث الجديرة بالاعتبار والتي عادة ما يحفل بها تاريخ الإنسان وسيشهدها في حياته، و«غِيَر» جمع غيرة بمعنى التغيير، إشارة تغيير النعم ونزول البلاء وتقلب الدهر، و«نذر» جمع نذير، والتي تشمل الأنبياء والأوصياء والآيات والروايات وحوادث الدهر.

تأملان

١. الشهود على الأعمال

رغم أنّ الله شاهد وناظر لأعمالنا في كل حال وزمان ومكان وعلمه الذي أحاط بكل شيء الكافي في عدم شرود أدنى صغيرة وكبيرة، إلّا أنّه وللمبالغة في الحجة ولفت أنظار المحسنين والمسيئين إلى مراقبة أعمالهم، فقد وكل بنا إضافة لذلك،

---

١. سورة ق، الآية ٤٢.

٢. سورة المرسلات، الآية ٣٦.

٣. سورة المؤمن، الآية ١٦.

٤. سورة الطارق، الآية ٩.

العديد من الشهود ومنها:

١. أعضاء البدن وجوارحه حتى الجلود على ضوء ما ورد في الآيات. والغريب في الأمر اتضاح هذه الحقيقة بعد طرح قضية الإنسان الشبه من أنّ كل ذرة من ذرات بدن الإنسان استبطنت إنساناً كاملاً. والأغرب، الاستفادة من جلد الإنسان في هذا الموضوع.

٢. «الحفظة» و«الكتّاب» أي الملائكة الموكلة بثبت الأعمال.

٣. الأرض التي نعيش عليها هي الشاهد الآخر، جاء في القرآن: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1].

٤. الزمان الذي نعيش فيه من الشهود علينا يوم القيامة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِيَّ خَيْراً وَاعْمَلْ فِيَّ خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

٥. شهادة الأنبياء أعظم من كل ذلك، لنص القرآن الكريم في شهادة كل نبيٍّ على أعمال أمّته يوم القيامة وشهادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الجميع: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[3] هكذا يخضع الإنسان طيلة عمره لهؤلاء الشهود ومن الجهات الست، وحق لمن آمن بحقيقة هؤلاء الشهود أن يراقب أعماله ويتحفظ عن الأخطاء.

٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى

العبارة «فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ»، تنطوي على ثلاثة مفاهيم تكفي لايقاظ الإنسان من نوم الغفلة حيث تشير كل واحدة إلى حقيقة

---

١. سورة الزلزال، الآية ٤-٥.

٢. بحار الانوار، ج ٧٤، ص ٣٧٩.

٣. سورة النساء، الآية ٤١.

مستقلة. فالعبارة الأُولىٰ ترى كفاية العبر في الموعظة، وتشمل هذه المفردة كافة الحوادث الخطيرة في الماضي والحاضر، بل حتى الحوادث الطبيعية. من قبيل الذهاب والإياب والليل والنهار يمكنها أن تكون عبرة لمن اعتبر: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1]. والعبارة الثانية تشير إلى الوعظ في التغييرات التي تطال حياة الإنسان والعالم. فأعزّة الأمس أذلّة اليوم، وأذلّة الأمس أعزّة اليوم، ما أسرع ما يحكم الحاكم ويعتلي المحكوم سدة الحكم، والشباب آيل الكهولة والعجز، والطفل الضعيف سرعان ما يشب ويهرم، ما كان غضاً بالأمس أصبح اليوم تحت التراب في المقابر المهجورة، وهذا الضجيج المرتفع اليوم سيخمد بعد سنوات، يالها من دروس وعبر؟! العبارة الثالثة أنّ السنن الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء والآيات كلها مشرعة بالتحذير وهي تنادي الحذر الحذر والعمل العمل.

***

1. سورة النور، الآية ٤٤.

١٥٨

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يُنَبِّهُ فِيها على فَضْلِ الرَّسُولِ الأعْظَمِ ﷺ وَفَضْلِ القُرْآنِ، ثُمَّ حَالِ دَوْلَةِ بَني أُمَيَّةَ[١]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من قسمين: يؤكد الإمام عليه السلام في القسم الأول على رسم صورة عن عصر البعثة وأهميّة القرآن وعظمته وأنّه الدواء لكل داء والعلم المتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل. أمّا في القسم الثاني فيشير إلى فتنة بني أميّة ومدى ظلمهم وطغيانهم وسعة حجمه، إلّا أنّه يواصل كلامه بأنّ هذه الحكومة لن تدوم طويلاً وستولّي إلى غير رجعة.

---

١. سند الخطبة:
بداية هذه الخطبة كبداية الخطبة ٨٩ التي مرّت علينا في الجزء الثالث، ومن هنا ذهب البعض إلى أنّها خطبة واحدة وقد جمعها الشريف الرضي، والحال، ليس الأمر كذلك، فهاتان الخطبتان لا تتشابهان إلّا في جملتين، على كل حال المصدر فالوحيد غير نهج البلاغة الذي ذكر أن ابن الأثير خاض في تفسير بعض مفردات هذه الخطبة في كتابه (النهاية) وما ذكره من عبارات تختلف عمّا جاء في هذه الخطبة، وهذا يفيد أن ابن الأثير أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٦٤. كما أورد الكليني في كتاب الكافي جانباً من هذه الخطبة بالاختلاف، راجع أصول الكافي، ج ١، ص ١٦٠ كذلك تفسير القمي، ج ١، ص ٢).

القسم الأول

أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ. ذٰلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلٰكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح والتفسير

الكتاب الذي استوعب كل شيء

أشار الإمام عليه السلام في مطلع الخطبة إلى الوضع على عهد الجاهلية والذي تزامن مع بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ[1] مِنَ الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ[2]». ومضمون هذه العبارات من قبيل العلة والمعلول. فالفترة التي توسطت عصر ظهور الأنبياء السابقين وخاتمهم كان سبب نوم الغفلة الذي غطت فيه الأمم وهذه الغفلة أدّت إلى ذلك الانتقاض المبرم، بمعنى تقطع وشائج الحقائق ونظام الحياة البشرية التي وقعت في وحل المعصية والظلمة. ثم تطرق عليه السلام إلى بعثة النبي الخاتم والكتاب الذي جاء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية: «فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ». فقد قام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمهمتين؛ إنّه بيّن للناس المعارف والأحكام التي تنسجم مع الأصول الكلية لمعارف وأحكام من مضى من الأنبياء، والأخرى حمله لمشعل الهداية الذي

1. «هجعة» من مادة (هجوع) النوم ليلاً، ولما كان هذا النوم أعمق فقد شبه به أوضاع أقوام الجاهلية.
2. «مبرم» من مادة (ابرام) المحكم، من ابرام الحبل إذا أحكم فتله ثم اطلق على مطلق الأعمال المحكمة.

أضاء ظلمات الجهل والضلال. ثم خاض عليه السلام في بيان هذا النور المتمثل بـالقرآن: «ذَٰلِكَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ». لقد شبهت أغلب الآيات القرآن بالنور، ومنها ما ورد في سورة المائدة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[1]، وسورة الاعراف: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]. وكما يضيئ النور أجواء الحياة ويحول دون تعثر الإنسان في الظلمة والضلال وينمي النباتات ويرعى جميع الكائنات الحية، فللقرآن مثل هذه المهام في حياة الإنسان المادية والمعنوية.

المراد من «بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» وبالنظر إلى أن بين يديه تعني هنا ما قبل ليس تصديق التوراة والانجيل الذين طالهما التحريف، بل هي إشارة إلى تلك الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام كما لا يعني هذا التصديق أنّ الإسلام يتفق مع هاتين الديانتين في جميع التفاصيل، بل المراد الأصول الكلية التي تشكل المحور المشترك لكافة الأديان السماوية، وإن طبقها الإسلام على مستوى أرفع وأوسع.

والعبارة «وَلَنْ يَنْطِقَ» لا تعني أنّ القرآن لا ينفتح على أي شخص (سوى الأئمة المعصومين عليهم السلام)، وذلك لأنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين ومنطق واضح جلي وقد أمر الجميع بالتدبر فيه والاصغاء إلى مواعظه ليعيشوا الرجاء من خلال آيات البشارة والخوف من خلال آيات الوعيد والانذار. وعليه فالمراد من «وَلَنْ يَنْطِقَ» فيما يتعلق ببطون القرآن والأسرار الكامنة فيها، فهذه البطون من اختصاص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين عليهم السلام.

ومن هنا قال: «أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ». فالعبارة «عِلْمَ مَا يَأْتِي» كما أوردها بعض شرّاح نهج البلاغة

---

١. سورة المائدة، الآية ١٥.

٢. سورة الاعراف، الآية ١٥٧.

إشارة إلى المسائل المرتبطة بالآخرة من قبيل الحساب والكتاب والصراط والجنّة والنار، ولكن يبدو أنّها إشارة إلى الحوادث المستقبلية لهذا العالم والكامنة في بطون هذا القرآن والتي يعلم بها المعصومين عليهم السلام بقرينة العبارة القادمة «وَٱلْحَدِيثَ عَنِ ٱلْمَاضِي»، التي تشير إلى الأمم السابقة وشرح سيرتها، كما قيل: هي إشارة إلى بداية الخليقة والعصور الأولى لخلق هذا العالم. والعبارة «وَدَوَاءَ دَائِكُمْ» إشارة إلى التعاليم والمفاهيم التي تعالج كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

والعبارة الأخيرة: «وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»، إشارة إلى جميع القوانين التي تنظم شؤون المجتمع البشري وتزيل العوائق وتنشر الأمن والاستقرار وبسط العدل والقسط في ربوع البلاد.

---

١. سورة الاسراء، الآية ٨٢

القسم الثاني

ومنها: فَعِنْدَ ذٰلِكَ لا يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لا يَبْقَىٰ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلا فِي الأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الآثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لا تَذُوقُهَا وَلا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!

الشرح والتفسير

حكومة الظلم ودولة الطغيان

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى فتنة بني أمية الشاملة والتي تلقي بظلامها على جميع المسلمين دون أن تغادر مسلماً إلّا وجرعته غصص ظلمها وطغيانها، إلى جانب تعذر الفرار من تلك الفتنة، وهي ليست سوى نتيجة طبيعية لأعمال الناس، فقال: «فَعِنْدَ ذٰلِكَ لَا يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ[1] وَلَا وَبَرٍ[2] إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً[3]، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً» يمكن أن يرد الهم والغم بيتاً دون أن يرده الظلم، أمّا ظلم بني أمية فقد بلغ درجة بحيث عمّ الهم والغم كل مكان، إلى جانب البلاء والمصائب، وذلك لأنّ ولاة

---

1. «مدر» ورد في اللغة بمعنى الزهور المتداخلة، أحياناً والحجر والطابوق، أحياناً أخرى، وبيت المدر عادة مايطلق على بيوت الحضر.
2. «وبر» وبيت (الوبر) عادة ما يطلق على بيوت البادية.
3. «ترحة» الغم والحزن.

بني أمية كانوا جميعاً من بطانتهم الذين سادتهم روح الظلم والانتقام بغية الاحتفاظ بسلطتهم لأقصىٰ مدّة ممكنة.

ثم قال عليه السلام: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَبْقَىٰ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ» ونفهم من هذه العبارة أنّها تخاطب أولئك الذين صمتوا إزاء الظلم والطغيان بعد أن قصروا في أداء مسؤولياتهم، والدليل على ذلك العبارة «أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»؟ وجاء مثل هذا المعنى في الخطبة ١٩٢ التي قال فيها: «وَإِنَّكُم إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَىٰ غَيرِهِ حَارَبَكُم أَهْلُ الكُفْرِ ثُمَّ لَا جِبْرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُم» وليس من الصواب ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ المخاطب بالعبارة المذكورة هم الحكام الظلمة والذي يتابع فيه كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم السيئة: «وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ[1]، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ[2] وَالْمَقِرِ[3]، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا[4] الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ[5] الْآثَامِ». إشارة إلى أنّ الله سيجرعهم كل بلاء يصبوه على الناس وسيذيقهم مرارة الذلة إزاء كل لذة حصلوا عليها من مناصبهم، وقد شهروا سيوفهم على رقاب الناس، وسيسلط الله عليهم من يضع السيف في أعناقهم. وقد ثبت وقوع كل هذه الأحداث كما أخبر عنها الإمام عليه السلام وقد انتقم الله من بني أمية شر انتقام بحيث دبّ الرعب والهلع في صفوف من تبقى منهم حتى فروا إلى المناطق النائية ولم يخلفوا لأنفسهم سوى الفضيحة والعار واللعنة الأبدية.

والعبارة: وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ» تشبيه لطيف ورائع. فقد شبههم بالحيوانات

---

١. «علقم» شجرة ثمرتها شديدة المرارة، والتي يطلق عليها أيضاً الحنظل.

٢. «صبر» بكسر الباء، على وزن فقر، عصارة شجر مر، والتي صار يضرب بها المثل، كما يطلق على نفس الشجرة.

٣. «المقر» نبات سام، كما يطلق على كل سم.

٤. «مطايا» جمع (مطية) المركب الهنيء السريع.

٥. «زوامل» جمع (زاملة) دابة الحمل.

حيث باءوا بخطايا الناس إثر جهلهم وافتقارهم للعقل والشعور، على غرار ما وصف به القرآن الكريم تلك الطائفة من الكفار: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

ثم اختتم الخطبة بنبوءة حاسمة أخرى بشأن مصير بني أمية فقال: «فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا[2] أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!». فقد أورد الإمامعليه السلام عبارة عجيبة بشأن دولة بني أمية على أنّهم شابوا الحكومة الإسلامية بالارجاس والأدناس والقذارة والظلم والفساد فأصبحت كالمواد المخاطية التي يدفعها الصدر والرأس، بحيث سينتهي الأمر إلى ما لا يطيقونه أنفسهم على غرار ذلك الذي يهم بطرح تلك المواد، فسيفقدون تلك السلطة ولا يظفرون سوى بلعنات الناس.

تأمّلان

١. وظيفة الحاكم والرعية

أشار الإمامعليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بحوادث التاريخ المريرة: الأولى، وظيفة ومسؤولية الحاكم، والأخرى، مسؤولية الرعية. فالإمامعليه السلام لا يقتصر بإلقاء المسؤولية على الحاكم في ممارساته الظالمة، بل يحمل الأُمّة المستسلمة والراضية بهذا الظلم جزءاً من تلك المسؤولية. فالحكّام ومرتزقتهم إنّما يمثلون فئة معينة، ولو مارست الأُمّة وظيفتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم الرضا والسكوت إزاء الظلم لما سهل على مثل هؤلاء الأفراد الأخذ بزمام الأمور ليعيشوا في الأرض الفساد ويهلكوا البلاد والعباد.

فالإمامعليه السلام يحمل الأُمّة وأعمالها ماصب عليها من البلاء على أيدي حكومة بني

١. سورة العنكبوت، الآية ١٣.
٢. «تنخمنّها» من مادة (نخامة) وبمعنى الاخلاط التي تجتمع على الرأس والصدر ويرمى بها خارجاً.

أمية الظالمة، فأنتم الذين أسهمتم في توطيد دعائم هذه الحكومة، وأنتم الذين سلمتم مقاليد الدولة لغير أصحابها، وأنتم الذين تصمتون اليوم إزاء هذه الجرائم، ولعل هذا من الألطاف الإلهية بغية العودة إلى أنفسكم وسلوك طريق الحق ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]. طبعاً تحميل الأمّة مسؤولية تجاوز الحكّام الظلمة لا يعني سلب تلك المسؤولية عن أولئك الحكّام، ومن هنا تطرق الإمام عليه السلام العذاب الشديد الذي ينتظرهم، فبيّن بعبارات قصيرة عميقة المعنى مصيرهم الأسود ونهايتهم الأليمة.

٢. فاجعة نهاية دولة بني امية

نعلم أنّ دولة بني أمية استغرقت أكثر من ثمانين سنة لتحكم من قبل ١٤ حاكماً من حكّام بني أمية وقد حكم البعض منهم لأقل من شهرين، إلّا أنّ التاريخ لم يشهد مثيلاً لظلمهم الذي طال الناس عامة ولا سيّما أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبني هاشم. وبالطبع فإنّ بني أمية لم يشهدوا الأمان والراحة طيلة مدّة حكمهم حيث كانت تتوالى عليهم الثورات والنهضات، فكانوا يقمعونها بقوّة الحديد والنار وسفك المزيد من الدماء، حتى قامت عليهم الأمّة بأسرها دفاعاً عن آل محمد إثر الشعار الذي رفع آنذاك «الرضا لآل محمد»[2] والذي لم تكن نتيجته سوى مجيئ بني العباس. أصدر الخليفة العباسي أوامره بقتل جميع بني أمية فوقع فيهم القتل بما لا يحصى، حتى نبشوا القبور وأحرقوا من كان فيها منهم (من أراد المزيد فليراجع آخر الخطبة ١٠٦ الجزء الرابع والخطبة ٩٣ الجزء الأول والجزء الثالث). وذكر المرحوم العلّامة التستري في الجزء السادس من شرحه لنهج البلاغة أنّه حين قتل مروان

---

١. سورة الروم، الآية ٤١.

٢. تكرر رفع هذا الشعار في التاريخ كثيراً، حيث ورد بشأن أبي مسلم الخراساني (وقد قام يدعو إلى الرضا من آل محمد)، كتاب شرح الأخبار للنعمان بن محمد، ج ٣، ص ٤١٨.

آخر خلفاء بني أمية مروان، هجم عامر بن إسماعيل على داره وكان فيها ونسائه. فغلقوا الأبواب وتعالت الصرخات. فأمسك عامر برجلٍ وسأله عن عـائلة مروان. قال أمرني مروان إن قتلت فاقتل جميع بناتي (حتى لا يقعن في أيدي الآخرين) لكني لم أفعل. وهنا احضروا له اثنتين من بناته، فأمر بوضع رأس مروان في حجر بنته البكر وقال لها: معذرة، هذا ما فعلتموه برأس يحيى بن زيد حين وضعتم رأسه في حجر أمّه، وكنتم أول من فعل ذلك والبادىء أظلم، ثم أمر بقتلهم جميعاً[1].

ꕤꕤꕤ

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٦، ص ١١٦.

١٥٩

ومن خطبة له عليه السلام

يُبيِّنُ فيها حُسنَ مُعاملتِه لرَعيَّتِه[1]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى قضية لطيفة في أنّه عاملهم قدر المستطاع بالرفق والاحسان على ما بدر منهم من حسن التصرف والسلوك رغم قلته وكثرة إساءة التصرف فعفى عن كثير ظلمهم وما يكنون من العداء والبغضاء.

٨٠٥

---

١. سند الخطبة:
لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند خاص غير ماورد في نهج البلاغة، إلا أنّ سائر الكتب التي ألفت بعد النهج أخذتها منه، ومن ذلك ما ذكره العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٤.

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

الشرح والتفسير

الدعم المطلق

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة إلى أياديه الكريمة وخدماته للمسلمين والتابعين لحكومته وأوجزها في أربع عبارات فقال: «وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ» المراد من حسن الجوار أن يعتمد الإنسان حالة التعايش السلمي المقرون بالأدب والاحترام وحسن التصرف تجاه الوسط الآخر من الأصدقاء وتحمل مساوئهم بحيث يشعرون بالارتياح لتواجده بينهم. وسيرة الإمام عليه السلام لاسيّما إبان عهد حكومته تفيد أنّه كان يعامل الآخرين بالعطف والمحبة، حتى كان يتفقد اليتامى والأرامل ليلاً ويحمل لهم الطعام ويلبي حاجاتهم، كما كان يداعب الأطفال ويسهر على راحتهم، ويواسي المهمومين ويداري المخالفين ويسعى جهده للترويح عن الموالين والمحبين. على العكس تماماً من عهد حكومة عثمان الذي بالغ وولاته في ايذاء الناس، ولم يسلم منهم حتى كبار الصحابة كأبي ذر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، فكان أن نفى الصحابي الجليل أبا ذر إلى تلك الأرض القاحلة الجرداء حتى مات فيها، كما اندفعت بطانته لتنال من عمار بذلك الأسلوب الهمجي البشع لمجرّد اعتراضه على بعض الممارسات، فكسرت أسنانه وأشبعوه ركلاً ورفساً، كما شددوا على عبد الله بن مسعود حتى قيل إنّه فارق الحياة إثر التعذيب. وإن ساوى علي عليه السلام

بين عقيل وسائر المسلمين في العطاء من بيت المال، فإنّ قرابة عثمان تهافتت على بيت المال حتى عدت العراق بستان قريش وبني أمية[1].

ثم قال: «وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ». أي أنّي حفظتكم من وساوس شياطين الجن والانس في مسيرة طاعة الله وعبوديته، ودفعت عنكم شر الأعداء. وأشار إلى دوره في عتقهم من قيود الذل والظلم والأسر فقال: «وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ[2] الذُّلِّ، وَحَلَقِ[3] الضَّيْمِ[4]». وذلك لأنّ عهد عثمان وحكومة بني أمية وبني مروان وسيطرتهم على مقدرات المسلمين شهدت اتساع رقعة الظلم والجور الذي وصل إلى كل مكان، ولم يكن هنالك من اعتبار سوى لأولئك الأفراد المتعاونين مع السلطة والمستبدين؛ وقد أنقذهم أمير المؤمنين علي عليه السلام من هذه الحكومة القبلية وحررهم من أيدي شرار بني أمية وبني مروان.

ثم اختتم خطبته بالإشارة إلى دوافعه من تلك الأعمال الحسنة تجاههم والتي لا تنبعث من اقرارهم بحقه وفضله بل: «شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقاً[5] عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ». فالواقع مراد الإمام عليه السلام أنكم لم تسدوا إليّ معروفا لأكافئكم عليه، بل ما أكثر الخطوب والمحن التي خلفتموها عليّ. فإن أسديت لكم معروفاً ففي سبيل الله وأداء الوظيفة الشرعية. وعلى ضوء هذا التفسير فإنّ «الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ» في هذه العبارة إشارة إلى تمرد الناس وغدرهم بالإمام عليه السلام، بينما فسّرها البعض من الشرّاح بالمنكرات بهذا الحجم على عهد الإمام عليه السلام ولم ينهاهم ويردعهم عنها؟ فأجابوا: لم يكن بوسع الإمام عليه السلام الحيلولة دون بعض

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ١٢٩. قول سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة.

٢. «ربق» جمع ربقة، على وزن فتنة، الحبل الذي يربط به الشخص، كما فسّره البعض بالحبل الذي يشتمل على عدّة عقد.

٣. «حلق» جمع حلقة، معروف.

٤. «الضيم» الظلم والحيف.

٥. «أطراق» بمعنى السكوت والاغماض عن مطلب معين.

المنكرات المتجذرة، أو لو أراد منعها لآل الأمر إلى مفسدة أعظم. لكن كما ذكرنا فإنّ المراد من المنكر ليس ما ذهب إليه أولئك الشرّاح ليرد ذلك الإشكال وضرورة دفعه. والمراد المساوىء التي مارسوها بحق الإمام عليه السلام والدليل على ذلك العبارة السابقة: «لِلْبِرِّ ٱلْقَلِيلِ».

هذا، وقد ورد مثل هذا المعنى في سائر خطب نهج البلاغة كالخطبة ٩٧ التي قال فيها: «وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي».

١٦٠

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة[١]

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مطالب متعددة تشكل بعض التعاليم القيمة بشأن تهذيب النفس ومعرفة الله حيث يمكن حصرها في خمسة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمة الله وحمده والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته.

القسم الثاني: جرى الكلام فيه عن حقيقة الرجاء بصفته أحد أركان السعادة الإنسانية.

القسم الثالث: تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأفعاله وأقواله التي ينبغي التأسي بها من قبل الجميع إلى جانب سائر صفات الأنبياء كموسى وداود وعيسى عليهم السلام.

القسم الرابع: عودة إلى صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهي الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الجميع.

---

١. سند الخطبة:

قيل في سند هذه الخطبة: ذكر الزمخشري المتوفي عام ٥٣٨ هـ والذي عاش بعد قرن من وفاة الشريف الرضي رحمه الله بعض هذه الخطبة باختلاف في كتابه (ربيع الابرار) وهذا يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٧٣).

القسم الخامس: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى تواضعه واختتمه بالمثل الرائع «فَعِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرى».

❧❧

القسم الأول

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اَللَّهُمَّ لَكَ ٱلْحَمْدُ عَلَىٰ مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَىٰ مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي: حَمْداً يَكُونُ أَرْضَىٰ ٱلْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ ٱلْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ ٱلْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ.

حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَىٰ مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ ٱلْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ ٱلْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ ﴿بِالنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾. وَمَا ٱلَّذِي نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَٱنْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ ٱلْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي ٱلْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَىٰ مَوْرِ ٱلْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

الشرح والتفسير

عجز العقول امام عظمة الله

أشار الإمامعليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أربعة مواضيع فقال: «أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ» أي يستند أمره إلى الحكمة رغم قاطعيته على العكس من المستبدين والمقتدرين الذين يصدرون الأوامر الصارمة دون أدنى حكمه. ولمفردة (أمره) في

العبارة معنى واسع يشمل الأوامر التكوينية: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١] والأوامر التشريعية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[٢]. والحكمة واضحة في كلا الأمرين تتضمن مصالح العباد والبلاد.

ثم قال: «وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ» يمكن أن يرضى الناس عن فرد ويأمنوه، إلّا أنّ أمانهم مشوب بالخوف والرهبة، بينما لا ينطوي أمان الله سوى على الرحمة، كما تحدث في العبارة التالية عن قضاء الله، فقال: «يَقْضِي بِعِلْمٍ» خلافاً لقضاء الإنسان الذي يمتزج عادة الجهل وعدم العلم.

ثم قال في المقطع الرابع: «وَيَعْفُو بِحِلْمٍ». نعم، عفوه بحلم ومن يعفو عنه لا يؤاخذه، ولا يعاقبه، بخلاف البعض الذين يسعون لعقاب الآخرين حين يعفون عنهم لإطفاء غضبهم، كما هنالك من يعفو عن الآخرين لطفاً ورحمة. ثم اتّجه الإمام عليه السلام صوب حمد الله والثناء عليه وقد تكرر هذا الحمد ثمان مرات في هذا الجانب من الخطبة حيث أورد صفة خاصة لكل مرحلة، ثم خاض في هذا الحمد والثناء بأسلوب بليغ وفصيح فقال: «اَللّٰهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَىٰ مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي» أي أحمدك وأُثني عليك في كل الاحوال، ذلك لأنّ الخير والسعادة منك، فإن أفضت نعمة فتلك كرامة وإن سلبتها كان ذلك عن عناية. وإن منحت الصحة والعافية فتلك سعادة وإن أمرضت وابتليت فعن مصلحة، فلا تفعل إلّا الحكمة وكل ما يأتي منك رحمة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في صفات هذا الحمد ليوجزها في ستة أوصاف ليجعله حمداً جامعاً شاملاً من جميع النواحي فقال: «حَمْداً يَكُونُ أَرْضَىٰ الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ. حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَىٰ مَدَدُهُ».

---

١. سورة يس، الآية ٨٢.
٢. سورة النحل، الآية ٩٠.

فهذا الحمد جامع شامل يتجاوز الزمان والمكان والمدد والقصور والحجاب. أضف إلىٰ ذلك فهو حمد على العافية والبلاء والأخذ والعطاء فهو حمد على كل شيء وفي كل زمان ومكان وعلى كل حال. ثم خاضعليه السلام في صفات الجلال والجمال ليورد أوصافاً بليغة أعرب فيها عن العجز عن إدراك عظمة الله. فقال: «فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ» ذلك لأنّ الله وجود مطلق ولا متناهٍ من جميع الجهات، وهل من نصيب للإنسان المحدود مهما كان هذا الإنسان سوى العجز عن إدراك غير المحدود. إلّا أنّ الإمامعليه السلام وبغية دفع التصور الخاطئ من أنّ هذا الكلام ربّما يعني عدم إمكان معرفة الله وتعطيل صفاته تطرق مباشرة إلى المعرفة الإجمالية من خلال بيان ثمان صفات من صفاته الثبوتية والسلبية على أننا وإن عجزنا عن إدراك كنه ذاتك المقدّسة «إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ ﴿حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾».

ثم واصلعليه السلام كلامه قائلا: «لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ ٱلْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ ٱلْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ ﴿بِالنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾». طبعاً وصف الله بالحياة ليس المراد منه الحياة الواقعية بمعنى العلم المطلق والقدرة التامة على جميع الوجود. والقيوم القائم بذاته والذي يقوم به غيره، لأنّه واجب الوجود، وواجب الوجود غني عن الغير ولكل محتاج إليه. والعبارة «لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» إشارة إلى أنّ علمه ولطفه دائم على العباد، لا أنّه يلتفت أحياناً ويحف عباده بالعناية وأخرىٰ ينام فينساهم. والعبارة «لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ...» إشارة إلى أنّ علم الإنسان لا يسعه الاحاطة بذاته المقدّسة ـ لأنّ ذاته مطلقة ـ كما لا يسع البصر الظاهر رؤيته، لأنّه ليس بجسم وليس له جهة ولا لون، بينما يدرك سبحانه حركات العيون ويحاسب علىٰ أدنى الأعمال. والمراد من «بِالنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ» ـ بالنظر إلى أنّ النواصي جمع ناصية بمعنى شعر مقدمة الرأس والأقدام جمع قدم ـ قدرة الله وغلبته لكل شيء، ذلك أنّ الإنسان متى أخذ منه ناصيته أو قيدت رجلاه سلب القدرة تماماً.

ثم خاض الإمام عليه السلام في عالم الخلقة وعظمته لإثبات تلك الصفات الجمالية والجلالية من خلال عبارات عميقة ورصينة تفيد أنّ العالم الذي نراه وندركه رغم عظمته لا يشكل بالنسبة لما لا نراه وندركه سوى قطرة إلى بحر فقال: «وَمَا الَّذِي نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ». نعم، ما نراه اليوم رغم اتساع العلوم والمعارف بشكل مذهل بشأن عالم الخلقة ـ لغيض من فيض ما لا نراه وندركه. والعلماء المعاصرون يتحدثون اليوم عن عوالم لا تكون كرتنا الأرضية بالنسبة لها سوى نقطة في كتاب ضخم!! كما يتكلّمون عن كرات عظيمة في هذا الكون تفوق كرتنا الأرضية بثلاثين ملياراً! وأجرام سماوية عملاقة تفوق الشمس بثلاثة مليارات مرّة (وهي الأجرام التي تجذب كل شيء من حولها حتى النور الذي ينعكس حين اصطدامه ببعض الأجسام)، ومن هنا لا نراها سوى قطع سوداء متناثرة هنا وهنالك في السماء، وتضم كرتنا الأرضية رغم صغرها ملايين النباتات والحيوانات التي تغوص في أعماق البحار والغابات والتي لم يتعرف عليها العلماء لحد الآن ولا يمكن رؤيتها بالعيون المجردة. أجل، فعالم الملك والملكوت على قدر من السعة بما تعجز العقول عن إدراكه وتحير الأفكار في عظمته فضلاً عن عظمة الله في خلقه، وهذا بدوره أعظم درسٍ في التوحيد ومعرفة الله.

ورد في الرواية عن الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّماءِ والأَرْضَ أَنْ يَصِفُوا اللهَ بِعَظَمَتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا»[1].

ثم قال عليه السلام مواصلاً خطبته: «فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ[2] خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ

---

١. اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٢.

٢. «ذرأته» من مادة (ذره) على وزن زرع، الخلق والايجاد.

عَلَىٰ مَوْرِ[1] ٱلْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ[2] حَسِيراً[3]، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً[4]، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً». فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات اللطيفة العميقة المعنى على أربعة أمور بشأن عظمة الخلق ؛ إقامة العرش، وبداية الخلق، وتعليق الكرات في السماء، وظهور الأرض من تحت الماء، وكل واحدة أعجب من الأخرى، ثم أشار عقبها إلى آثار هذه الحيرة من قبيل تعب العين وعجزها، وبهت العقول، ووله السمع، وحيرة الفكر. أمّا بشأن تفسير العرش فهنالك كلام كثير، والمستفاد من آية الكرسي أنّ العرش عالم فوق السماء والأرض، حيث ورد في القرآن بشأنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. جدير ذكره أنّ الملوك القدماء كان لهم عرشان؛ عرش صغير يطلق عليه الكرسي يستعملونه في الأيّام الاعتيادية، وآخر مرتفع يسمى العرش يعتلونه في الأعياد والمناسبات الرسمية، ثم أصبح هذان التعبير أنّ كناية عن مختلف درجات العظمة، والقرآن يعد السماوات والأرض التي نراها كرسي الله، وعليه فعرشه أرفع من ذلك. ومن هنا ربّما يكون العرش إشارة إلى عالم ماوراء الطبيعة، أي عالم الملائكة والكروبيين[5] أو عالم المادة الذي ليس لدينا من سبيل إليه. والعبارة «وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَىٰ مَوْرِ ٱلْمَاءِ أَرْضَكَ» يمكن أن يكون إشارة إلى دحو الأرض وظهور اليابسة من المياه؛ لأنّ المياه عمت باديء الأمر الكرة الأرضية برمتها، ثم تخللت فجوات الأرض وشقوقها بالتدريج حتى ظهرت اليابسة. أجل لا يمتلك الإنسان سوى الحيرة والذهول أن فكر بشأن عالم الخليقة وما ينطوي عليه من عجائب وغرائب وأسرار، وهي الحيرة التي تلفت نظرنا إلى عظمة الخالق وضرورة معرفته وتنزيهه عمن سواه.

---

١. «مور» على وزن قول، لها معان مختلفة في اللغة، منها التيار السريع أو أمواج الماء.

٢. «طرف» على وزن حرف، أهداب العين.

٣. «حسير» من مادة (حسر) على وزن قصر، التعب والضعف.

٤. «مبهور» من مادة (بهر) على وزن قهر، الغلبة والحيرة.

٥. أشرنا إلى هذا المطلب في شرح آية الكرسي في التفسير الأمثل.

القسم الثاني

منها: يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو ٱللهَ، كَذَبَ وَٱلْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ ٱللهِ تَعَالَىٰ - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ ٱللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو ٱللهَ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَيَرْجُو ٱلْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي ٱلْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي ٱلرَّبَّ! فَمَا بَالُ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟ وَكَذٰلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً. وَكَذٰلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا.

الشرح والتفسير

عبيد الدنيا

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى عظمة الله وحمده وأثنى عليه وتطرق إلى علامات ذاته المقدّسة في عالم الوجود، خاض في وعظ الغافلين وإرشادهم وركز على مسألة من أهم المسائل وهي الخوف حيث كشف حقيقته وشرح تفاصيله وفضح الكاذبين في دعواهم إياه فقال: «يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو ٱللهَ، كَذَبَ وَٱلْعَظِيمِ![1]». ثم خاض في ذكر الدليل فقال: «مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ

---

١. التعبير بالعظيم بدل والله العظيم، لأنّه حذف الموصوف والتركيز على الصفة يكشف عن مدى التأكيد، يعني أنّ هذه الصفة للعظمة لذاته تعالى إلى درجة من الثبات وكأنّها اسم من أسمائه.

رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ». فهذا دليل واضح فالفلاح الذي يرجو جني ثمار مزرعته ينهمك في سقيها ودفع الآفات عنها وتوفر كافّة مقدمات الانبات والأثمار، فإن ادّعى مزارع الرجاء لكنه جلس في بيته ولم يقدم على أي عمل فسوف يتفق الجميع على أنّ رجاءه كاذب فهو يتخيل الرجاء دون واقعية لذلك الخيال، فالرجاء الصادق المقرون بطاعة الله والسير على سبيله والفوز برضاه. قيل للإمام الصادق عليه السلام أنّ جماعة يرتكبون الذنوب ويرجون عفو الله ورحمته فقال: «كَذَبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ أَنَّ مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئاً هَرَبَ مِنْهُ»[1].

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل ذلك الخوف والرجاء فقال: «وَكُلُّ رَجَاءٍ ـ إِلَّا رَجَاءَ اللهِ تَعَالَى ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ[2] وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ[3] إِلَّا خَوْفَ اللهِ».

يبدو دليل ذلك واضحاً فليس هنالك من مبدأ للخير سوى الله وكل من قدر على الإتيان بالخير فبمعونته (لا مؤثر في الوجود إلّا الله). وعليه فلا ينبغي التعلق سوى بالله والرجاء لما عنده. فالذي ينفع ويضر ويثيب ويعاقب هو الله وحده وليس للآخرين من ذلك شيء كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[4]. صحيح أنّ الله ترك للعبد قدرة الإتيان بالأعمال، إلّا أنّ ذلك لا يعني سلب القدرة عن ذاته المقدّسة. ولذلك لابدّ من حصر الرجاء في تلك الذات والخوف من مخالفتها.

---

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٨.

٢. «مدخول» من مادة (دخل) على وزن أجل، بمعنى الفساد، وعليه فالمدخول، هو المغشوش غير الخالص.

٣. «محقق» معلوم وقطعي وثابت، وورد في العبارة المذكورة صفة لخوف ـ ولابدّ أن يكون مجروراً إشارة إلى أنّ خوفهم من الله ثابت لا غبار عليه، ذلك لأنّه هو الذي يؤاخذ العباد وعليه إن خفنا الله ولم نعص أوامره فسوف لن نخاف أي أحد. إلّا أنّ بعض الشرّاح ذهبوا إلى أنّ محقق خبر كل خوف فتكلفوا مرجع الضمير في «فأنّه» وكذلك الاستثناء ومفهوم العبارة، بينما لو اعتبروا محقق صفة لخوف لوضح معنى العبارة تماماً، ولعل العبارة السابقة بشأن الرجاء قرينة جيدة على هذا المعنى، بعبارة أخرى أنّ الإمام عليه السلام قال ببطلان كل رجاء سوى رجاء الله وكل خوف سوى خوف الله.

٤. سورة البقرة، الآية ١٠٢.

ثم إشارعليه السلام إلى قضية مهمّة تكمن في تضاد أعمال الناس بخصوص موضوع الخوف والرجاء. فلو أمل شخص شخصاً آخر في مسألة لابدّ له من الخضوع والخشوع، وإن خاف شيئاً أيضاً حسب له ألف حساب، بينما لا يبدي مثل هذه الحساسية تجاه الله تبارك وتعالى سواء على مستوى الرجاء والأمل أو الخوف وحتى في القضايا المهمّة. فهنالك تواضع بيديه لسائر العباد يفوق نظيره لله تعالى: «فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو ٱللَّهَ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَيَرْجُو ٱلْعِبَادَ فِي ٱلصَّغِيرِ، فَيُعْطِي ٱلْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي ٱلرَّبَّ!».

ثم واصل كلامهعليه السلام بالإشارة إلى سبب ذلك فقال: «فَمَا بَالُ ٱللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟» حقاً أنّ الإنسان الذي يؤمن بالله وأنّه قادر على كل شيء ويؤمن برحمانيته ورحيميته وفضله وكرمه، لا يمكن أن يكون أمله بالله كاذباً، أو أن لا يراه أهلاً للأمل. لو تأملنا قليلاً هذه الأفكار لأدركنا بما لا يقبل الشك أصل الانحراف عن التوحيد ومعرفة الله. فالحقيقة أنّ عصارة كلام الإمامعليه السلام هي أننا نرى أنّ بعض الأفراد يتجهون البعض الآخر لحاجة صغيرة فيبدون لهم صنوف الاحترام والاجلال، بينما لا تشاهد منهم هذه الأمور حين يقصدون الله لحاجاتهم الكبرى، وليس هنالك من تفسير لهذه القضية سوى ضعف مثل هؤلاء الأفراد وعجزهم عن معرفة الله والوقوف على صفاته الجلالية والجمالية.

ثم انتقل الإمامعليه السلام من الرجاء إلى الخوف وقارن بين خوف الله وخوف العبد، فقال: «وَكَذٰلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً[1] وَوَعْداً».

قطعاً أنّ سبب هذا الازدواج يعزى إلى ضعف الإيمان، ذلك لأنّ قدرة العباد هشة مقارنة بقدرة الله، فلو فرضنا جميع قدراتهم، ومضة، لكانت قدرة الله بحاراً من

---

١. «ضمار» الوعد البعيد، وتعني الوعود والديون التي لا رجاء فيها.

النيران بالنسبة لتلك الومضة، فكيف يتعرف الإنسان على هذين الميدانين للخوف فيخاف الومضة ولا يخاف بحار النار؟! طبعاً يمكن أن يكون منشأ هذا التفاوت، الأمل المفرط بلطف الله وكرمه والذي تفرزه بالطبع الغفلة، لأنّه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة. ولما كان هذا التعامل الازدواجي تجاه الله والعباد ناشيء من ضعف المعرفة وضيق الافق، فقد خاض الإمام عليه السلام في اختتامه لهذا الكلام في هذا التعامل الازدواجي للإنسان حيال الدنيا والآخرة، فقال: «وَكَذٰلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللّٰهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا».

أجل، أنّ عبيد الدنيا عديمو المعرفة لا يرون سوى متاع الدنيا الزائل وحطامها الفاني ويغفلون عن نعيم الآخرة الدائم، وهذا ما يدعوهم لايثار الدنيا على الآخرة وتقديم رضا المخلوق على الخالق. على العكس من عباد الله من أهل الورع والتقوى الذين وصفهم الإمام عليه السلام في خطبة المتقين: «عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِم فَصَغُرَ مَا دُونَهِ فِي أَعْيُنِهِم».

العبارة «فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا» إشارة إلى حقيقة هي أنّ طلاب الدنيا عادة ما ينتهي بهم الأمر إلى الخروج عن عبودية الله والاشتغال بعبودية الدنيا وطاعة النفس والهوى والشيطان، وبالتالي الخروج من معسكر التوحيد وعبودية الله إلى معسكر الشرك وعبودية الدنيا. أجل عاقبة أمرهم ماآل إليه أمر عمر بن سعد حيث لم ير شيئاً سوى الدنيا متمثلة بملك الري وغفل عن عذاب جهنم ونعيم الجنّة فاختار ذلك الموقف:

أَلا إِنَّما الدُّنْيا لِخَيْرٍ مُعَجَّلٌ ... فَمَا عَاقِلٌ بَاعَ الوُجُودَ بِدَيْنِ[1]

---

١. هذا البيت من شعر معروف أنشده عمر بن سعد حين طرح عليه ابن زياد قضية قتال الحسين عليه السلام ووعده بولاية الري، فحار أيّهما يختار، الدنيا أم الآخرة، حتى عزم أخيراً على القتال. ذكر هذا الشعر المرحوم السيد ابن طاووس في اللهوف، ص ١٩٣ والمؤرخ المعروف الطبري في حوادث عام ٦١ هـ.

تأمل

الخوف والرجاء

إنّ أقوى دافع نحو الحركة باتجاه الورع والتقوى يتمثل بالخوف من عقاب الله والرجاء لرحمته وعفوه. وليس لأحد أن يحلق في سماء الحق ويقترب من ساحة القدس الرباني دون العنصرين المذكورين. فعلى غرار التلميذ الذي يأمل تذوق طعم النجاح من خلال رجائه الموفقية والحصول على الدرجات العالية إلى جانب الخوف من الرسوب في الامتحان، فيجد ويجتهد ويجند طاقاته من أجل العلوم والمعارف، يبدو لابدّ من هذا الرجاء والخوف في الجانب المعنوي أيضاً.

ورد في الحديث الشريف أنّ النبي الأكرمﷺ قال: «أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ أَخْوَفُهُم مِنْهُ»[1].

وقال الصادقعليه‌السلام: «لَا يَكُونَ الْمُؤمِنُ مُؤمِناً حَتَّىٰ يَكُونَ خَائِفاً رَاجِياً، وَلَا يَكُونَ خَائِفاً رَاجِياً حَتَّىٰ يَكُونَ عَامِلاً لِمَا يَخَافُ وَيَرجُو»[2]. والإنسان لا يمكنه الاستفادة من هذين المفهومين، الخوف والرجاء أنّ زعمهما كذباً. والتأكيد من عدم الكذب بهذا الشأن يكمن في الموازنة والعمل على أساسهما. إلّا أنّ المؤسف له هو أنّ أغلب الناس صادقون في رجائهم وخوفهم بالنسبة لأمور الدنيا، لكنهم ليسوا كذلك بالنسبة للاخرة. لقد ظهر الآن مرض شديد هو مرض ذات الرئة: «والذي يطلق عليه الالتهاب الرئوي اللانمطي» القاتل حيث بلغ عدد الوفيات سته بالمئة بالنسبة للمصابين بهذا المرض، ويبد وأنّ طرق الوقاية التي اتخذت بهذا الشأن تفوق التصور، فقد عمدوا إلى رش السموم في المناطق الملوثة، والجميع يرتدي الأقنعة الواقية، وإن عثروا على من يظن أنّه مصاب يعزلونه عن الآخرين، كما هنالك تفتيش دقيق لكافة المسافرين حين يهبطون في المطارات. حقاً هذا هو الخوف الصادق.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠.

٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ٧١.

والسؤال الذي يرد هنا: هل يبدي المؤمنون مثل هذا الخوف من عذاب الله يوم القيامة الذي يفوق هذا الأمر بما لا يحصى؟! يتعجب الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة من كيفية شعور الإنسان بذلك الخوف من بعض الحوادث الطفيفة بينما لا يعيش مثله من الله! والأمر كذلك بالنسبة للرجاء؛ نعم، أولياء الله كانوا يرتعشون خوفاً من الله في محراب عبادتهم، وكان يسمع من بعضهم أنين وتأوه. الكلام بهذا الشأن كثير والهدف هنا إشارة سريعة لاتمام المباحث، ونختتم البحث بهذا الحديث. قال الإمام الصادق عليه السلام: كان أبي يقول: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ، نُورُ خِيفَةٍ، وَنُورُ رَجَاءٍ لَو وُزِنَ هَذا لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ هَذا وَلَو وُزِنَ هَذا لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ هَذا»[1].

---

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٧.

القسم الثالث

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

الشرح والتفسير

التأسي بالنبي صلى الله عليه وآله

تحدث الإمام عليه السلام في العبارات الأخيرة من المقطع السابق عن أولئك الأفراد الذين ذاعوا في الدنيا فأصبحوا عبيدها الأذلّاء بعد أن ولّوا ظهورهم لكل شيء وأخلدوا إلى الدنيا. وقد سعى الإمام عليه السلام لإيقاظ هذه الفئة المتهافتة على الدنيا من خلال الاقتداء بجوانب من سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء، وقد ركز بادىء الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا[1] وَمَسَاوِيهَا» جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام يرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هنا أسوة ودليل. والواقع هو أنّ العبارتين تنتهيان إلى نتيجة واحدة وهي اقتفاء آثار ذلك النبي الأعظم وتكييف الحياة على ضوء حياته، لكن هنالك تفاوتاً لطيفاً في المعنى؛ فالأسوة إشارة إلى أننا نكيف حياتنا طبق حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمّا الدليل، فإشارة إلى أنّه يدعونا إلى الآخرة.

ثم ذكر عليه السلام توجيه ذلك التأسي فقال: «إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ

---

1. «مخازي» من جمع، مخزاة من مادة (خزي)، الفضيحة.

أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ[١] عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ[٢] عَنْ زَخَارِفِهَا[٣]».

فقد عاش رسول الله ﷺ حين كان القياصرة والأكاسرة يرتعون في الجزيرة العربية، وقد واصل تلك الحياة البسيطة المتواضعة حتى حين تزعم الدولة الإسلامية وحاز على الغنائم العظيمة، وكان يفخر ﷺ بتلك المعيشة فيقول: «الفَقْرُ فَخْرِي»[٤] فالعبارة لا تعني أنّه لم يكن بوسع النبي الأكرم ﷺ الحصول على تلك الحياة وأسلوب العيش، بل لم يكن شخصياً يرغب في مثل تلك المعيشة، ومن هنا ورد في الرواية أنّه هبط عليه أحد الملائكة وبيده مفتاح خزائن الدنيا فقال: «يا مُحَمَّدُ هَذِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الأَرْضِ يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ إِفْتَحْ وَخُذْ مِنْهَا مَا شِئْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْقُصَ شَيئاً عِنْدِي»، فقال رسول الله ﷺ: الدُّنيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ. فقال الملك: أُقْسِمُ بِاللهِ الَّذِي بَعَثَكَ نَبِيّاً بِالحَقِّ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا الكَلَامَ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ حِينَ تَسَلَّمْتُ هَذِهِ المَفَاتِيحُ»[٥].

والعبارة «إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا» إشارة أنّ حكومة النبي الأكرم ﷺ وسلطته لم تكن كحكومة القياصرة والأكاسرة، والعبارة «وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا» إشارة إلى عدم تناوله الأطعمة اللذيذة المتنوعة. والعبارة «وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا» أنّه لم يستفد من القصور الفارهة والمراكب الهنيئة والثياب الفاخرة. على كل حال فقد استعان الإمام ﷺ بأعظم أُسوة وركز على حياة النبي الأكرم ﷺ إزاء أولئك الذين إنقادوا للدنيا وقصروا همتهم عليها. النبي الذي كان يجلس على التراب ويعيش كأضعف الأفراد ولم يكن لديه أحياناً سوى ثوب واحد وقد اعترض على ابنته فاطمة

---

١. «فطم» من مادة (فطام) منع الطفل من اللبن.

٢. «زوي» من مادة (زي) على وزن حي، الجمع والابعاد.

٣. «زخارف» جمع زخرف، على وزن هرمز، تعني في الأصل كل زينة مكتوبة، واطلاق الزخرف على الكلام الفارغ لما ينطوي على تزويق وتجميل.

٤. مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٧٣.

٥. اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٩.

الزهراء عليها السلام حين وضعت ستاراً جديداً على باب دارها وقد لبست بعض الحلي من الفضة لا الذهب، وسنخوض في المزيد بهذا الشأن في ختام هذه الخطبة.

ﷺ

القسم الرابع

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَيْثُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. وَاللهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُودَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!

الشرح والتفسير

زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في البحث السابق إلى جانب من حياة النبي صلى الله عليه وآله كأسوة بالمؤمنين في الزهد، ثم تطرق هنا إلى هذا الجانب في حياة ثلاثة من سائر الأنبياء ليتضح من خلال ذلك أنّ هذا الأمر كان محوراً في حياة الأنبياء فكانوا أُسوة لأُممهم، فقال: «وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَيْثُ

يَقُولُ: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». ثم خاض عليه السلام في تفسير العبارة المذكورة وهي آية من آيات سورة القصص على لسان موسى عليه السلام حين وروده إلى مدين فقال: «وَٱللَّهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ ٱلْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ ٱلْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ[١] صِفَاقِ[٢] بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ[٣] وَتَشَذُّبِ[٤] لَحْمِهِ». فرَّ موسى عليه السلام إلى الشام ثم مدين إثر دفاعه عن أحد أفراد بني اسرائيل وقتله لأحد اتباع فرعون ومطاردته من قبل الأجهزة الفرعونية والبحث عنه في مصر، ولم يكن يحمل في سفره متاعه وحيث لم يكن يستجدي أحداً من الناس فقد اضطر لأكل نبات الأرض فهزل بدن موسى عليه السلام وضعف خلال هذه المدّة بفعل المسافة الطويلة التي قطعها ماشياً من بلد إلى بلد آخر وقد بلغ الضعف مداه بحيث كانت تبدو خضرة البقول من بطنه. وقد سأل الله سبحانه طعاماً يسد رمقه ويزيل جوعه، بينما كان باستطاعته سؤال الله عيشة هانئة وسفراً مريحاً. صحيح أنّ موسى عليه السلام كان يمر بظروف عصيبة اضطرته إلى تلك الأزمة العنيفة، إلّا أنّ المهم أنّه لم يسأل الله سوى مقدار الضرورة، وهذا دليل واضح على الزهد الذي كان محور حياته.

ثم عرج على زهد داود عليه السلام فقال: «وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ صَاحِبِ ٱلْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ. فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ[٥] ٱلْخُوصِ[٦] بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ ٱلشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا». نعلم أنّ داود عليه السلام وإلى جانب النبوّة كان من ملوك بني اسرائيل وكانت حكومته قوية شاملة على ضوء الآية الشريفة: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ»[٧]. فهل ما

---

١. «شفيف» من مادة (شفوف) رقة الشيء بحيث يستشف ما وراءه.

٢. «صفاق» الجلد الباطن الذي فوقه جلد البطن الظاهر.

٣. «هزال» ضعف.

٤. «تشذب» بمعنى تفرق، وأريد بها هنا، تفرق لحم البدن.

٥. «سفائف» جمع سفيفة، ما ينسج من سعف النخيل.

٦. «خوص» سعف النخيل.

٧. سورة ص، الآية ٢٠.

قيل يتعلق بعهد حكومته أم بعدها؟ كيف ما كان الأمر فهنالك دليل دامغ على زهده ولاسيّما ما ورد في بعض الروايات أنّه لم يكن يقتات من بيت المال، بل كان يعمل الدروع ويأكل من عرق جبينه. العبارة «صَاحِبِ ٱلْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ» إشارة إلى مقاماته المعنوية الرفيعة في الدنيا والآخرة. وقد أفاض الله عليه من العلوم المعنوية بحيث كان ينشئ المزامير (المزامير كما سيأتي بمبحث التأملات مجموعة من الأدعية والمناجاة والمواعظ والإرشادات التي كان يتلوها داود عليه السلام ويترنم بها بصوت عذب فكان يشد إليه الناس، بل حتى الطيور والحيوانات حسب الرواية). وقارىء (أهل الجنّة) إشارة إلى مقامه الأُخروي حيث يتذوق أولياء الله هناك لذّة القرب الإلهي وعشق ذاته المقدّسة من ترانيمه المعنوية لذلك الصوت العذب ومناجاته الروحية.

والعبارة «أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا» ربّما تكون إشارة إلى هذه النقطة وهي أنّه أراد شخصاً يبيعها ويستفيد مقداراً من ثمنها، وإن كان هذا الأمر على عهد قضائه فهو إشارة إلى أنّ القضاء لا يتعامل في مثل هذه الأمور مباشرة مع الآخرين حذراً من معرفته واعطائه الكثير بغية استمالته في إصدار الأحكام.

ثم تطرق عليه السلام إلى زهد عيسى عليه السلام حيث أوجز حياته المتواضعة في ثلاث عشرة عبارة قصيرة، يصعب علينا حقّاً تصور تلك الحياة العجيبة لهذا النبي الزاهد فضلاً عن العمل بها فقال: «وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ[1] ٱلْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ ٱلْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ ٱلْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ ٱلْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ ٱلْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي ٱلشِّتَاءِ مَشَارِقُ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!». المراد من العبارة «وَكَانَ إِدَامُهُ ٱلْجُوعَ» أنه كان يكتفي من الطعام بالخبز. وتشير العبارة «وَظِلَالُهُ فِي ٱلشِّتَاءِ...» أنه كان يستعين

---

١. «يتوسد» من مادة (وسد) جعل الشيء كالوسادة تحت الرأس.

بدفء حرارة الشمس على برودة الشتاء. جدير بالذكر أنّ المسيحعليه السلام ظهر في فترة كان يتنعم بها عبيد الدنيا من بني اسرائيل في القصور الفخمة والمراكب الهائلة والثياب الفاخرة وتنقل إليهم مختلف الأطعمة ممّا لذّ وطاب. وقد اختارعليه السلام هذا النوع من الحياة لتحذيرهم من مغبة التكالب على الدنيا المحفوفة بالقيود والاغلال والتي تذل في خاتمة المطاف كل من ركن إليها، وقد قاطع بعض المحاور المهمّة التي من شأنها فتنة الإنسان من قبيل الدور الفارهة والزوجات الجميلة الفاتنة والمال والولد والمركب، فقد ولّىعليه السلام ظهره لكل هذه الأمور بهدف ايقاظ المجتمع من غفلته والسعي إلى دار الآخرة.

تأمّلات

١. مزامير داود

مزامير جمع مزمور بمعنى الترانيم التي تنشد بنغمة معينة، ومزامير داودعليه السلام اشعار روحية مناجاة ومواعظ وعبر، كان يتلوها داودعليه السلام بصوته العذب لتؤثر في القلوب[1] وتتكون هذه المزامير التي تعد الآن من كتب أهل العتيق من خمسة كتب تكرر لفظ آمين آخر كل قسم منها، ويعتقد الأغلب من المفكرين أنّ هذا اللفظ من إضافات جامعي الكتب (لابدّ من الالتفات إلى أنّ المزامير الفعلية الموجودة في الكتب المقدّسة تخلو من هذا اللفظ.

على كل حال يضم الكتاب الأول ٤١ والثاني ٣١ والثالث والرابع ٧١ والخامس ٤٤ مزمورة. ويمكن ايجاز مفاهيم المزامير بصورة عامة في العناوين الآتية:

١. مزامير الحمد والتسبيح التي تشمل عدّة مزامير.

٢. مزامير الشكر التي يطلقها الأشخاص إزاء ألطاف الله.

٣. المزامير المتعلقة بالتوبة.

---

١. وأحياناً جمع مزمار، المعروف.

٤. المزامير السياحية (بشأن قصة الأفراد الذين خصتهم عناية الله أو غضبه).

٥. المزامير التاريخية بشأن رحمة الله وفضله على بني اسرائيل.

٦. مزامير النبوّة على أساس وعد الله لداودعليه السلام وأبنائه.

المزامير التعليمية التي كان يوصي داودعليه السلام فيها ببعض الأمور.

أ) خصائص العادلين ومميزات الشريرين.

ب) قدسية وطهارة؟ الشريفة الإلهيّة.

ج) هوان قيمة الحياة الدنيا.

د) الوظائف الواجبة على الحكام.

٧. مزامير دعاء للمذنبين (يجدر الإشارة إلى أنّ أغلب هذه المزامير لا جميعها تنسب إلى داودعليه السلام)[1].

٢. الصوت الداودي

يستفاد من الآيات والروايات أنّ لداودعليه السلام صوتاً شجياً، إلى درجة أنّه لا يقتصر على جذب الناس فحسب، بل كانت تجتمع إليه الطيور وتحط إلى جانبه أو على بدنه حين يناجي الحق في محراب عبادته. ولما كانت الجنّة الموضع الأفضل فقد ورد في الخطبة أنّ داودعليه السلام قارىء أهل الجنّة. كما أشار ابن أبي الحديد إلى رواية تحمل هذا المعنى فقال: ورد في الخبر، داود قارىء أهل الجنّة.

٣. زهد الأنبياء

سنتعرض في نهاية الخطبة عقب الحديث عن زهد النبي الأكرمصلى الله عليه وآله إلى عملية تشدد أنبياء الله على أنفسهم في الحياة، بما نعجز عن تحمله.

8003

١. اقتباس من قاموس الكتاب المقدس استر هاكس.

القسم الخامس

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى، وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ.

الشرح والتفسير

سيرة النبي ﷺ إزاء عبدة الدنيا

إنّ الله جعل أنبياءه من البشر ليكونوا أُسوة للآخرين من جميع النواحي؛ ولو كانوا من جنس الملائكة لتعذر التأسي بهم ولأصاب الشلل أهم مفاصل حركتهم الرسالية المتمثلة بالتعاليم العملية. والواقع مهما كان الخطيب متمكناً وبليغاً والكاتب فصيحاً ومتعمقاً فإن تأثير مواعظه ونصائحه لا يرقى إلى الأسوة العملية، ولا يمكن مقارنة ما يستفيده الآخرون من السيرة العملية لأولياء الله مع تلك التي تحصل عند سماع الوعاظ؛ ومن هنا ركز الإمام عليه السلام بعد ذكره لبعض الأنبياء على سيرة الرسول الله ﷺ في اطار مواجهته لأصحاب الدنيا الذين تكالبوا عليها في ذلك الزمان وفي كل زمان، فأشار قبل الخوض في الجوانب العملية لسيرة النبي ﷺ إلى رؤيته للدنيا فقال: «فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ

تَأَسّى، وَعَزَاءٌ لِمَنْ تَعَزَّى. وَأَحَبُّ ٱلْعِبَادِ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَٱلْمُقْتَصُّ[١] لِأَثَرِهِ».

وتطرق إلى نظرته ﷺ إلى الدنيا، فقال: «قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً[٢]، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ[٣] أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً[٤]، وَأَخْمَصُهُمْ[٥] مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ[٦]». إشارة إلى أنّه كان مسلم لله بكل كيانه، يحب ما أحب الله ويعادي من يعاديه الله، وكل هذه العبارات إشارة إلى زخرف الدنيا الزائفة في أنّ الدنيا مبغوضة وحقيرة وصغيرة وتافهة. القضية المهمّة أنّ حبّ الديسنا أساس الظلم والحروب وسفك الدماء، والذي ينظر إلى زخارفها نظرة حقيرة لن يحبها ويفتتن بها وقلّما يتلوث بآثامها.

ثم يخلص إلى نتيجة واضحة فيقول: «وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ ٱللَّهِ». نعم فسعادتنا في الدارين وصدقنا في ادّعاء الايمان بالله ورسوله في أن نعظم ما عظّماه ونستصغر ما صغّراه. فقد وقف النبي الأكرم ﷺ موقفاً مخالفاً لزخارف الدنيا ومظاهرها الزائفة، فكيف نزعم الايمان به ونحن نعظّم هذه التوافه الدنيوية ونضحي من أجلها بالغالي والنفيس؟! يمكن أن يرد هنا هذا السؤال: إذا كان

---

١. «مقتص» من مادة (قص) على وزن نص، قطع الشيء وقصه، كما وردت بمعنى متابعة الشيء، قصة أيضاً بمعنى متابعة حادثة، ومنه القصاص أيضاً.

٢. «اقضم» تعني في الأصل لوك الأشياء الجافة مقابل الخصم للأشياء الرطبة وابتلاعها، وأريد بها هنا قلّة الاستفادة من الدنيا.

٣. «اهضم» من مادة (هضم) على وزن قدم، بمعنى الضعف للبدن، ومنه هضم الطعام حيث تضمر البطن بعد الهضم، ومنه ضمور الخاصرة والبطن.

٤. «كشح» الخاصرة.

٥. «اخمص» من مادة (خمص) على وزن شمس، خلو البطن اثر الجوع.

٦. الفارق بين التصغير والتحقير، أنّ الحقير يطلق عادة بشأن الكيفية، مثلاً يعتبر الإنسان المحروم من العلم والمعرفة والصفات الحميدة حقيراً، أمّا الصغير فيطلق على الشيء القليل من حيث الكمية كالإنسان الصغير العمر وما شابه ذلك، إشارة إلى عدم قيمة الدنيا وقلتها.

النبي الأكرمﷺ يجانب الطعام إلى هذه الدرجة وكان أخلى بطناً من عامة الناس، فكيف كان يصمد أمام العدو في المعركة حتى وصفه عليعليه السلام بقوله: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى العَدُوِّ مِنْهُ»[1]. فقد ورد مثل هذا السؤال بشأن عليعليه السلام كيف وقف تلك المواقف الصعبة على عهد رسول اللهﷺ في معركة بدر واحد والأحزاب وخيبر وحنين وإبان حكومته في الجمل وصفين والنهروان ولم يكن طعامه سوى الشعير. وقد أجاب الإمامعليه السلام عن السؤال في كتابه إلى عثمان بن حنيف[2] فقال: «أَلاَ إِنَّ الشَّجَرَةَ البَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ الخَضِرَةِ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ أَقوى وُقُوداً وَأَبْطَأُ خُمُوداً» وعليه، فالنهم في الطعام ليس بدليل على القوّة والقدرة. ولعل أولئك الأعراب الذين كانوا يقتاتون على الأطعمة العادية قد ابلوا بلاءاً حسناً في الحرب التي نشبت بين ايران والروم على العكس من أولئك الجنود الذين كانوا يطعمون مختلف الأطعمة، فقاوموا وصمدوا بالشكل الذي أذهل الجميع. القضية الأخرى هي أنّ معنويات المقاتل هي التي ترسم صورة واضحة عن مصيره في جبهة القتال لا الطعام وانواعه، وكانت معنويات النبي الأكرمﷺ وعليعليه السلام في القمة بما أهلهما لتلك الشجاعة الفائقة. جدير ذكره أنّ ما ورد بشأن طعام النبي الأكرمﷺ وعليعليه السلام لا يعني أنّهما كانا يتناولان مثل ذلك الطعام طيلة حياتهما، بل المراد أنّهما لم يتعلقوا بطعام معين قط.

ﮪ

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٢٦.

٢. نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

القسم السادس

وَلَقَدْ كَانَ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ ٱلْحِمَارَ ٱلْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فُلاَنَةُ ـ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ ٱلْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ ٱلْبَصَرِ.

وَكَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ.

الشرح والتفسير

زهد النبي ﷺ

تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة بصورة عامة إلى زهد النبي الأكرم ﷺ وضرورة الاقتداء والتأسي به، إلّا أنّه بيّن هنا مصاديق ذلك الزهد والتواضع في حياته اليومية فأشار إلى سبعة مواضيع تكشف بجلاء عن مدى زهده وتواضعه[1]. فقال: «وَلَقَدْ كَانَ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ،

---

1. يستفاد من المطالعات التاريخية أنّ النبي ﷺ كان عادة ما يركب احداً خلفه، أحياناً اسامة واخرى الفضل بن العباس وسائر الأفراد من الصحابة حتى بلغ عددهم حسب ما أورده المؤرخون ٣٣ شخصاً (انظر شرح
⟵

وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ[١] بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ[٢] بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ ٱلْحِمَارَ ٱلْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ[٣] خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونَ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فُلَانَةُ ـ لِإِحْدَىٰ أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا»».

العبارة «يَأْكُلُ عَلَىٰ الْأَرْضِ» إشارة إلى عدم امتلاك المحتاجين للمفروشات آنذاك ليجلسوا عليها فكانوا يضطرون للجلوس على الأرض فكان النبي ﷺ يواسيهم في الجلوس على الأرض. والعبارة «وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلْعَبْدِ» تشير إلى مدى تواضعه في جلوسه، لا على غرار المتكبرين الذين يضعون رجلاً على أخرى بكل غرور. والمعروف عن النبي ﷺ أنّه كان يجثو على ركبتيه على غرار العبيد؛ فهي جلسة متواضعة إلى جانب كونها سهلة في النهوض. ورد في الحديث أنّ امرأة سيئة اللسان مرّت بالنبي ﷺ وهو جالس فقالت له: يا محمّد إنّك لتجلس كالعبيد؟ فقال ﷺ: «وأيُّ عَبْدٍ أعْبَدُ منّي»[٤].

والعبارة «وَيَكُونُ السِّتْرُ...» إشارة إلى عائشة حين وضعت ستراً مزيناً فيه صور لذي أرواح، فامتعظ رسول الله ﷺ من رؤيته لأنّه مزين فقال: «غَيِّبِيهِ عَنِّي فإنّي إذا نَظَرتُ إليهِ ذَكَرتُ الدُّنيا وَزَخارِفَها، وأمرَ بِرَفعِهِ فَوراً»[٥].

ثم قال ﷺ مواصلاً كلامه: «فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ،

☜ العلامة التستري لنهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٧) كما ورد في الحديث أنّ النبي ﷺ كان يستقبله الأطفال حين يعود من المدينة فكان يأمر بإركابهم خلفه وأمامه، وكان يوصي أصحابه بإركابهم، فكانوا يفخرون بركوبهم على مركب رسول الله ﷺ (المحجة البيضاء، ج ٣، ص ٣٦٦).

١. «يخصف» من مادة (خصف) على وزن وصف، رفع الشيء وخياطة القطع. وتعني هذه المفردة في الأصل ضم الشيء إلى آخر ومن هنا تطلق على خياطة الحذاء والثوب.

٢. «يرقع» من مادة (رقع) على وزن رفع، بمعنى وصل الشيء.

٣. «يردف» من مادة (ردف) على وزن حرف الكون خلف شيء، ومن هنا يقال لمن يركب خلف غيره رديف.

٤. اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧١ بتلخيص.

٥. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٢٩٣ ولكن ورد في هذا الحديث كلمة النمرقة بدل الستر.

وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً[1]، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مُقَاماً». إشارة إلى أنّ حبين لا يجتمعان في قلب إنسان. فإن افتتن بالدنيا وأحبّها رحل عن قلبه حبّ الله ونعيم الآخرة. فما لم يطرد من قلبه حبّ الدنيا لن يحبّ الله. ويصدق هذا المعنى على جميع الأفراد، وأبرز نموذج لذلك تمثل في حياة النبي الأكرمﷺ الذي قال: «مَا لِي وَلِلدُّنيا إنّما مَثَلِي وَمَثَلُها كَمَثَلِ الرَّاكِبِ رُفِعَتْ لَهُ الشَّجرةُ فِي يَومِ صائِفٍ فَقَالَ تَحتَها ثُمَّ رَاحَ وَتَركَها»[2].

ثم خلص الإمامعليه السلام إلى نتيجة واضحة أنّه طالما كانت الدنيا بهذا الشكل فما كان من النبيﷺ إلّا أنّ قاطعها: «فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا[3] عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ». وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: لماذا كل هذا الذم والتحقير للدنيا من قبل الإمامعليه السلام؟ سنرد على هذا السؤال بالتفصيل في آخر الخطبة إن شاء الله.

---

١. «رياش» جمع ريش، تعني في الأصل، ريش الطيور، ولما كان ذلك الريش ثوبه الطبيعي الجميل فإنّها تطلق أحياناً على كل ثوب جميل كما تطلق على كل زينة، والمعنيان محتملان في العبارة المذكورة.

٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٤ (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ العبارة (قال تحتها) من القيلولة، بمعنى الاستراحة والنوم عند منتصف النهار).

٣. «أشخصها» من مادة (شخوص) على وزن خلوص، تعني في الأصل التركيز في النظر على نقطة، ويفيد عادة الخوف ثم اطلقت على اخراج شخص من مكانه فجأة.

القسم السابع

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللّٰهِ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ.

فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ ٱللّٰهُ مُحَمَّداً بِذٰلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَٱللّٰهِ ٱلْعَظِيمِ - بِالإِفْكِ ٱلْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ٱللّٰهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَٱقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ ٱلْهَلَكَةَ، فَإِنَّ ٱللّٰهَ جَعَلَ مُحَمَّداً - صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ ٱلآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَىٰ حَجَرٍ، حَتَّىٰ مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ ٱللّٰهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَٱللّٰهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هٰذِهِ حَتَّىٰ ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: ٱغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ ٱلْقَوْمُ السُّرَىٰ!

الشرح والتفسير

لم التأسي بالنبي الأكرمﷺ

عاود الإمامؑ تأكيده لما أورده في المقطع السابق من الخطبة في ذم الدنيا والمتعلقين بها فقال بادىء الأمر على نحو الاستدلال المنطقي: «وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللّٰهِ - صَلَّى اللّٰهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَىٰ مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ

فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ[١]، وَزُوِيَتْ[٢] عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ[٣]». وعلى ضوء هذه المقدمة خاض في برهانه المنطقي فقال: «فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَاللهِ الْعَظِيمِ ـ بِالإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ». لا ينبغي أن ننسى هنا أنّ فئة من الأثرياء آنذاك كانت ترى ثروتها دليلاً على عناية الله بها، وبالتالي فإنّ الفقراء والضعفاء مبعدون عن عناية الله، وهذا التفكير دفع بهم لحث الآخرين على جمع الثروة عن أي طريق وبأية وسيلة. ومن هنا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٤] فرد عليهم الحق تعالى ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

والإمام عليه السلام ليفند بالبرهان القاطع هذه الفكرة المريضة السائدة في الأذهان، فالحق أنّ الله سبحانه وتعالى أولى رسوله صلى الله عليه وآله عناية فائقة، في حين كان محروماً من زخارف الدنيا وزبرجها، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنّ الله أهان نبيّه، وعليه نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ الإمكانات المادية والثروة ليست دليلاً على الشخصية ولذلك خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فَتَأَسَّى[٦] مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ».

---

١. «خاصته» بمعنى (قرابة الإنسان)، شرّاح نهج البلاغة فسّروا (خاصة) اسم الفاعل بالمعنى المصدري والمفهوم أنّه جاع رغم خصوصيته عند الله تعالى، لكنه لا يبدو مستقيماً.

٢. «زويت» من مادة (زي) على وزن حي، قبض الشيء وأبعاده.

٣. «زلفة» بمعنى المقام والمنزلة.

٤. سورة الزخرف، الآية ٣١.

٥. سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥.

٦. «فتأسى» وردت في أغلب نسخ نهج البلاغة (تأسّى) كفعل ماض، لكن يستفاد منها معنى الأمر بقرينة العبارة (وإلّا فلا يأمن الهلكة)، لكنّها وردت بصيغة فعل الأمر في بعض النسخ «فتأسّ».

ثم واصل عليه السلام حديثه بالقول: «فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ ٱلآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَىٰ حَجَرٍ، حَتَّىٰ مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ». إشارة إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله ورغم عظمته وكونه عَلَماً للساعة وبصفته البشير والنذير فقد عاش تلك الحياة البسيطة المتواضعة إلى درجة أنّه رحل عن الدنيا ولم يملأ بطنه أو يبني له بيتاً مشيداً (طبعاً بنى النبي صلى الله عليه وآله حجرات لأزواجه عند المسجد من الطين وسعف النخيل والعبارة «لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَىٰ حَجَرٍ» تشير إلى بيوت الأثرياء الذين كانوا يبنون بيوتهم من الحجر).

وأخيراً خلص إلى هذه العبرة: «فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ ٱللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ!». أجل، فإحدى نعم الله العظمى على البشر وجود هؤلاء الزعماء العظام الذين حفلت جميع حركاتهم وسكناتهم بالدروس والعبر، ولم تنتفع أيّة أمة كالمسلمين من النعمة الفضيلة. فالأُمم وإن كانت لها عظماء، إلّا أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان أعظم الجميع، وليت شعري أي كفران للنعمة أعظم من ضلالتنا وحيرتنا رغم نعمة الله علينا بهذا القائد العظيم. وأخيراً وليثبت الإمام عليه السلام أنّه أول من يتمثل عملاً بما يقول وأنّه يحذو حذو رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قال: «وَٱللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ[1] مِدْرَعَتِي[2] هٰذِهِ حَتَّىٰ ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ[3] عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ ٱلْقَوْمُ السُّرَىٰ!». يستفاد من هذه العبارة بوضوح أنّ الإمام عليه السلام كان يعطي ثوبه بين الحين والآخر ليرقعوه (وإن قام أحياناً بهذا العمل شخصياً) وقد كثرت رقعات ثوبه حتى شعر الإمام عليه السلام بالخجل من رقعه، مع ذلك لم يكن مستعداً لطرحه. شتان بين سيرة الإمام عليه السلام وبعض الأفراد الذين

---

١. «رقعت» من مادة (ترقيع) معروفة، وتستعمل اليوم بخصوص تطعيم الأعضاء.

٢. «مدرعة» ثوب الصوف.

٣. «اغرب» من مادة (غروب) اذهب وابعد.

ينتقون ثياب كل فصل وزمان ومكان بما يناسبه، فهناك ثوب لمجالس السرور وآخر لمجالس العزاء، وهكذا للسفر والحضر والنوم، بل الأسوأ من كل ذلك طرح بعض الملابس كونها لا تناسب الموضة. العبارة «فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ!»، مثل معروف عند العرب، معناه، أنّ من يصبر على النوائب ويتحمل الشدائد حين يبلغ هدفه يُسرّ بصبره ويحمد الله ويحمده الآخرون أيضاً[1].

تأمّل

لعلنا نتعرف بصورة عميقة على حديث النبي الأكرمﷺ أنه قال «حُبُّ الدُّنيا رَأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» كلما أمعنا النظر في حجم الذنوب والمعاصي والنزاعات الاجتماعية العنيفة وتأملنا الملفات الحقوقية والجزائية التي تضج بها المحاكم. والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يقتصر على النبي الأكرمﷺ بل أكده سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام كالإمام الصادق والإمام السجادعليه السلام إلى جانب تأكيده من الأنبياء السابقين عليهم السلام[2].

ولو توقفنا قليلاً وتأملنا لأمكننا ايجاز عمدة مظاهر حبّ الدنيا في ثلاثة أشياء هي: حبّ المال وحبّ الجاه وحبّ الشهوة. فليس هنالك من حرب وقعت في العالم ولا فساد انتشر في صفوف المجتمع إلّا كان معلولاً لأحد هذه المحاور الثلاثة. وبناءً على هذا فإن أردنا ممارسة عملية الإصلاح في المجتمعات الإسلامية كان لابدّ لنا

---

١. كتب أغلب شرّاح نهج البلاغة كلمة «يَحمده» على شكل فعل معلوم، لأنّهم اعتبروا الكلمة (سرى) معنىً مصدرياً، يعني (السير في الليل) وفي هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: يحمد السير في الليل والسائرون يحمدون الله تعالى عندما يصلون إلى مقاصدهم، ولكن في بعض النسخ «يُحمد» جاءت بشكل فعل مجهول، عندئذٍ تكون كلمة (سرى) بمعنى الوصف، يعني (السائرين في الليل)، وفي هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: عند الصباح يحمد السائرين في الليل، البتة النتيجة في المفهومين واحدة.

٢. روى المرحوم الكليني في أصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٧ حديثاً في باب حبّ الدنيا عن الإمام السجادعليه السلام شرح فيه المصادر السبعة للذنب حتى ورد في آخره: «فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة».

من مواجهة التعلق بالدنيا. ولعل هذا الموضوع يبدو بارزاً في المجتمعات الفقيرة التي تنتقل فجأة إلى الغنى، كالمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام؛ ذلك أنّ الفقر كان قد عمّ المجتمع قبل بعثة النبي الأكرمﷺ، إلّا أنّ الفتوحات وما انطوت عليها من غنائم بصورة مفاجئة قد غيرت الأوضاع فأخذ أصحاب الدنيا يتهافتون على اللذات والغرق في المعاصي. وعليه فلا يبدو من المستغرب على ذلك الإمام الهمام عليعليه السلام وبغية تغيير تلك الأوضاع أن يورد تلك الخطبة ويكرسها لذم الدنيا ومن تعلق بها؛ فيأخذ بأيدي الناس ويغوص بهم في أعماق تاريخ الأنبياء الماضين ويكشف لهم عن عمق زهد النبي الأكرمﷺ وحياته البسيطة المتواضعة بهدف إيقاظهم من غفلتهم وإعادتهم إلى المسار الصحيح.

على سبيل المثال كان على عهد عثمان ـ حين إزدادت الأموال في بيت مال المسلمين وكان ينبغي أن تصرف في العمران وبناء الدولة الإسلامية وانقاذ المحرومين ـ أن سيطرت قرابته وبطانته على الأموال، فجنى كل منهم ثروة عظيمة أفرد لها العلّامة الأمينيرحمه الله في الجزء الثامن من الغدير باباً أسماه (الكنوز المكنزة ببركة الخليفة) وقد عرض فيه بعض تلك الكنوز من مصادر العامة. وذكر بعض الأفراد من قبيل: مروان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ويعلي بن أمية وعبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسائر الأفراد، وقد حصل كل منهم على آلاف الدنانير من بيت المال، حتى ذكر أنّ ورثة زيد بن ثابت كانت تتقاسم ارثه من الذهب والفضة عن طريق كسرها بالفؤوس، كما ترك يعلي بن أمية مبلغ خمسمائة ألف دينار إلى جانب المزارع والبساتين والدور والديون التي له بذمة الناس والتي تبلغ مائة ألف دينار (كل دينار مثقال من الذهب المسكوك).

وأمّا عبدالرحمن بن عوف فقد ترك ألف ناقة وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس إلى جانب الأراضي الزراعية، ومن أراد المزيد فليراجع الغدير وما ذكره من مصادر

وأرقام بهذا الشأن[١].

وعلى هذا الضوء ألا يتوجب على زعيم عظيم كعلي عليه السلام أن يكون كالطبيب الحاذق فيشمّر عن ساعديه ويعالج ذلك المجتمع المريض بوباء حبّ الدنيا من خلال ذمها واستصغار شأنها؟ وعليه ينتفي السؤال الذي يطرح نفسه أنّه لم عرض علي عليه السلام بكل هذا الذم للدنيا وهو إمام الإسلام هذا الدين الذي يعني بالدنيا والآخرة والحضارة والمدنية. واليوم أيضاً إن أردنا أن نحول دون هذه النزاعات الدامية وسفك الدماء وتجار السلاح الذين يصدرون الموت والدمار للشعوب والوقوف بوجه مراكز الفساد والدعارة والانحراف، فليس أمامنا من سبيل سوى تحقير هذه الدنيا ومن تعلق بها واستصغارها حتى تصبح فضيحة ليقتنع الآخرون بالحياة البسيطة المتواضعة على حد الكفاف.

ونختتم الكلام بالحديث الذي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «جَعَلَ الخَيْرَ كُلَّهُ فِي بَيتٍ وَجَعَلَ مِفتَاحُهُ الزُّهدُ فِي الدُّنيا»[٢].

٭٭٭

١. الغدير، ج ٨، ص ٢٨٣.

٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٨.

١٦١

ومن خطبة له عليه السلام

في صِفَةِ النَّبِيِّ وَأهْلِ بَيْتِهِ وأتْباعِ دِينِهِ وَفِيها يَعِظُ بِالتَّقْوىٰ[1]

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على ثلاثة أقسام، أشار في المقطع الأول إلى بعثة النبي الأكرمﷺ وصفاته الحميدة وخصائص أهل بيته، ويذكر آثار دعوته في إظهار الحقّ ودحر الباطل، ويخلص إلى نتيجة مفادها أنّ شقاء الدنيا والآخرة في عدم الايمان بالإسلام الحنيف.

وتطرق الإمامعليه السلام في المقطع الثاني من الخطبة إلى التوكل على الله وسؤاله الهدى، ثم اختتم الخطبة بدعوة الجميع إلى الورع والتقوى وطاعة الله والحذر من التعلق بالدنيا بعبارات عظيمة المعاني إلى جانب ضرورة الاعتبار بالوقائع والأحداث التي يشهدها العالم.

8003

---

١. سند الخطبة:

يبدو أنّ لهذه الخطبة سنداً غير نهج البلاغة، كما لم يعثر صاحب مصادر نهج البلاغة على سند آخر، مع ذلك رواها بعض الأعلام ممّن عاش بعد المرحوم السيد الرضي كالعلامة المجلسي وآخرين (نحن أيضاً بحثنا في الحاسوب ولم نعثر على مصادر أخرى لهذه الخطبة).

القسم الأول

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ. ﴿فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً﴾ تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح والتفسير

صفات النبي ﷺ

استهل الإمام؈ الخطبة بالحديث عن خصائص النبي الأكرم ﷺ ورسالته فقال: «ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي[1] وَالْكِتَابِ الْهَادِي».

المراد من النور المضيء، نور نبوته ﷺ الذي أضاء كل شيء، «وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ» إشارة إلى معجزاته الواضحة، كما تبيّن العبارة «وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي» شريعته الغراء، «وَالْكِتَابِ الْهَادِي» القرآن الذي يهدي عامة الخلق إلى الله حتى قيام الساعة. هذا

---

١. «البادي» على وزن (النادي)، بمعنى الواضح والجلي بصورة تامة، ووصف شريعة النبي بالبادية إشارة إلى أنّ أوامره وتعاليمه تحظى بقبول العقلاء.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارات الأربع المذكورة تشير إلى القرآن الذي نظر إليه الإمام عليه السلام من عدّة جوانب؛ إلّا أنّ الأنسب ما ذكرناه من أنّ كل عبارة تشير إلى جانب معين؛ الأمر الذي استحسنه سائر الشرّاح. على كل حال فإنّ كلام الإمام عليه السلام إشارة إلى أركان الدعوة الكاملة الشاملة والتي تستند إلى نور الوحي، والتي بينت بمختلف المعجزات والأدلة والبراهين وكتاب الهداية القرآنية بأحكامه الجلية الواضحة.

ثم خاض عليه السلام بثمان عبارات قصيرة في التعريف بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ[1] عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ». متهدل، بمعنى متدلٍ وهنا تعني الفاكهة القريبة من الجميع. ولعل موفقية الإنسان وسعادته تتحقق في ظل أمور مختلفة ولكل من نجابة الأسرة وكرامة الحسب والنسب ورفعة شخصية الأهل والقرابة وأهميّة مسقط الرأس والبيئة والنشاط في أجوائها، دور مهم في تلك السعادة. ولو أمعنا النظر في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نجد أنه صلى الله عليه وآله إلى جانب سموه الذاتي قد توفرت له سائر العوامل اللازمة للتوفيق والنجاح ليتمكن على ضوئها من ممارسة دوره في هداية الناس، فنسبه الشريف يمتد إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حيث ورث منهما الشجاعة والتضحية. قبيلته بني هاشم من أشرف القبائل العربية. أبوه عبدالله، وجدّه عبدالمطلب، وعمّه حمزة وأبوطالب، وابن عمّه علي وجعفر عليهما السلام، وبنته فاطمة الزهراء عليها السلام أم المعصومين عليهم السلام. وولادته في مكة الحرم الالهي الآمن، وهجرته إلى المدينة الطيبة مركز الايثار والفداء والتضحية. ومن هناك وسع رقعة دعوته وأسمع صوته العالم بأسره، والأسرة من مادة أسر على وزن عصر، بمعنى القوة والقدرة إشارة إلى أسرة بني هاشم وقرابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

---

١. «طيبة» بمعنى الطاهرة، ويستفاد من لسان العرب أنّ النبي صلى الله عليه وآله دعاها بهذا الاسم (بمناخها المعتدل وكثرة اشجارها وإيثار أهلها) ونهى عن بقاء اسم يثرب لأنّه يعني في الأصل الفساد.

وتشير الشجرة إلى أصل هذه الأُسرة التي تنتمي إلى إبراهيمعليه السلام، والأغصان المعتدلة إشارة إلى فروعه كعبدالمطلب وأبي‌طالب وحمزة وجعفر وأميرالمؤمنينعليه السلام وأئمة الهدىعليهم السلام وهم بمثابة الفروع المتداخلة للشجرة في فضلهم وعلمهم وكمالهم وعدم اختلافهم ومعارفهم التي يتغذى على ثمارها جميع الناس على مرّ العصور والدهور.

ثم اتّجه الإمامعليه السلام صوب سيرته العملية فقال: «أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ[1]». نعم، فقد كانت له مختلف الأدلة العقلية والفطرية والمعاجز الحسية، فيعالج أمراض الناس والمجتمعات بكلماته الحكيمة ويصلح الخراب الذي لحق بالناس إبان الجاهلية في كافة مجالاتهم الاجتماعية. فقد اقترنت دعوة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله بالدليل والبرهان من حيث جذورها وانطلاقتها، كما تضمّنت على مستوى المضمون الخطط العملية الهادية، وكل ذلك يقود إلى نتيجة مرجوة تتمثل في إصلاح الفساد وإعادة بنية الأصول الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

ثم خاضعليه السلام في الأعمال المهمّة التي أتى بها رسول اللهصلى الله عليه وآله فقال: «أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ[2]، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ[3]». فالواقع هو أنّ النبي الأكرمصلى الله عليه وآله مارس ثلاثة أعمال مهمّة: أعلن العقائد الحقّة، وأزال البدع والخرافات، وبيّن الأحكام الشرعية بوضوح لجميع الناس، حصل كل منها بسعي متواصل وجهد عظيم. ثم خلص إلى هذه النتيجة التي صرّح بها القرآن الكريم: «﴿فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً﴾ تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ». فمن الطبيعي أن لا تكون

---

١. «متلافي» من مادة (تلافي) بمعنى تدارك، وتأتي بمعنى معالجة الفساد، وهذا هو المعنى المراد بها في هذه العبارة.

٢. «مدخولة» من مادة (دخول) إشارة هنا إلى البدع التي كانت تنسبها الجاهلية إلى الله، أو من مادة دخل، على وزن دغل، بمعنى الفساد، لأنّ هذه البدع مصدر فساد الفرد والمجتمع.

٣. «المفصولة» من مادة (فصل) واطلقت على الكلام والقضاء الذي يميز الحق من الباطل ويمكن أن يكون المراد بها المعنيان معاً، الأول إنّ أحكام الشريعة بيّنت بصورة منفصلة والآخر، فصل الحق عن الباطل، (تكون الجملة في الأول اسم المفعول وفي الثاني اسم الفاعل).

نتيجة مخالفة الدين الذي يتّسم داعيته بكل تلك المكارم ودينه الجامع والشامل، سوى الشقاء والضلال والهلكة. ويتضح من هذه العبارات مدى زيف الشعارات الجوفاء التي يرفعها البعض اليوم في الأوساط الإسلامية انفعالاً بكتّاب الغرب فيتبنون كفاية اعتناق أيٍّ من الأديان؛ الأمر الذي لا ينسجم ومنطق القرآن ولا كلمات أئمّة الهدى كعلي عليه السلام.

وأخيراً يعرب الإمام عليه السلام عن توكله على الله وإنابته إليه فيقول: «**وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَوَكُّلَ الإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ**». ربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى أنّ أسباب سعادة البشرية توفرت ببيعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والدين العظيم الذي بعث به، ولم يبق لتحقيق هذه السعادة سوى أن نسير على الدرب وبالتوكل على الله وطلب الهداية منه والإرشاد إلى الحق. ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بالتوكل على الله واسترشده الطريق إلى الجنّة.

تأمّل

من قال أم ما قال؟

يبدو أنّ هذه العبارة المعروفة: «**أُنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ**»[١] صادقة في القضايا الواضحة والمنطقية، أمّا في القضايا المهمّة والمعقدة والمدارس الفكرية المطروحة فلابدّ من النظر والتركيز على من قال، حتى يتسنى الوثوق به والتأسي بسيرته، ولذلك خاض القرآن في أكثر من موقع في خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[٢] وقال في موقع آخر: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ**

---

١. وردت هذه الكلمة في غرر الحكم، ح ١٠١٨٩ لعلي عليه السلام أنه قال: «لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال».

٢. سورة التوبة، الآية ١٢٨.

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حيث النسب والأُسرة والأصل وصفاته الكمالية وأثنى على شجرته وفروعها المثمرة، ثم تطرق إلى شريعته السمحاء من مختلف الجوانب ليلفت انتباه الآخرين إلى ضرورة الوثوق به ويقطع اعذار المغرضين.

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

القسم الثاني

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً. رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ؛ وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ - عِبَادَ اللهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلاَدِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لاَ يَتَفَاخَرُونَ، وَلاَ يَتَنَاسَلُونَ، وَلاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَلاَ يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح والتفسير

الاعتبار بالامم السابقة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة باسداء النصح والموعظة التي توقظ الغافلين بعد أن أكد في الموضع السابق على تقوية روح الايمان لدى المخاطبين ليؤكد هنا على بعض الجوانب العلمية، ذلك لأنّ عمل ثمرة الشجرة الايمان فقال: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالْمَنْجَاةُ[1] أَبَداً».

---

١. «المنجاة» من مادة (نجاة) اسم مكان بمعنى موضع النجاة، ولها معنى مصدري، «نجاة» بمعنى الخلاص.

ربّما أمكن عودة الطاعة والتقوى إلى مفهوم واحد، كما يمكن اعتبار التقوى أساس الطاعة، ذلك لأنّ طاعة الله إنّما تنبعث من التقوى والورع، كما يحتمل أن تكون التقوى إشارة إلى ترك الذنب، والطاعة إلى امتثال الأحكام الشرعية، فهما لا يفترقان كيفما كان الأمر (ولعل ذلك هو سبب الإتيان بالضمير مفرداً في أنّها والحال، ينبغي أن يكون مرجع الضمير مثنى)، واطلاق النجاة على التقوى من قبيل اطلاق المسبب على السبب، لأنّ التقوى سبب النجاة في الآخرة.

ثم قال: «رَهَّبَ[1] فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ[2]». إننا لنعلم أنّ الضمان الفعلي لجميع الأحكام الشرعية هو البشارة والإنذار. وقد شحنت الكتب السماوية بالوعد والوعيد والإنذار والبشارة ترغيباً للناس في الطاعة وحياشة لهم عن المعصية. ولما كان التعلق بالدنيا والخداع بمظاهرها رأس المعاصي والذنوب فإنّ الإمام عليه السلام عاد ليؤكد هذا الأمر فقال: «وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا». فالذي يستفاد من هذه العبارة القصيرة والعميقة المعاني أنّ الله بيّن أربعة أمور بشأن الدنيا؛ الأول أصل الحياة الدنيا وكما يبدو من أسمها حياة دنيئة وتافهة لا قيمة لها، والثاني، أنّها ليست مستقرة وذات يوم يحل الموت بالإنسان ويقضي على دنياه، والثالث، ما أن ينغمس الإنسان في متع الحياة الدنيا حتى يشعر بزوالها التدريجي، حيث تأخذ قواه البدنية بالضعف وتختل صحته ويشكل بفقد الأعزة والأصدقاء، الواحد تلو الآخر، وينظر إليهم وهم يتوسدون التراب، والرابع، أنّ الدنيا دائمة الانتقال من قوم إلى قوم: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[3].

---

١. «رهب» من مادة (ترهيب) بمعنى التخويف.

٢. «أسبغ» من مادة (اسباغ) بمعنى الإتيان بالعمل بصورة تامة، واطلقت على النعمة التامة والوضوء التام.

٣. سورة الحديد، الآية ٢٠.

فقد رسمت الآية القرآنية الشريفة صورة واضحة عن تفاهة الدنيا وانقطاع نعيمها وزوالها في إطار واضح، كما ورد هذا الانتقال في آية أخرى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1].

ثم قال مواصلاً وصف الدنيا: «أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللّٰهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللّٰهِ!». ودليل ذلك واضح هو أنّ الدنيا هوى وهوس يقذف بالإنسان في مستنقع الذنب من كل جانب وهذا ما يوجب غضب الله وعدم رضاه. طبعاً، المراد من الدنيا هنا، الدنيا المادية التي يجعلها الإنسان هدفاً ويعتمد كل الوسائل للحصول عليها وإن قارف الذنوب، وإلّا فالدنيا وسيلة على الاقتدار للطاعة وشكر النعمة وبلوغ السعادة.

ثم خلص ﷺ إلى هذه النتيجة: «فَغُضُّوا[2] عَنْكُمْ - عِبَادَاللّٰهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ[3]». إشارة إلى تصاعد آلام الدنيا وتزايد همها، فكلما اقترب الإنسان منها زاد عناؤه حتى يسيطر الهم على جميع كيانه.

قال الإمام الباقر ﷺ: «مَثَلُ الحَرِيصِ عَلَى الدُّنيا مَثَلُ دُودَةِ القَزِّ كُلَّما ازْدَادَتْ مِنَ القَزِّ عَلَى نَفْسِها لَفّاً كَانَ أَبْعَدُ لَهَا مِنَ الخُرُوجِ حَتَى تَمُوتَ غَمّاً»[4]. وقد تمثل الشاعر العربي فانشد[5]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرءَ طُولَ حَياتِهِ ... حَرِيصٌ عَلَىٰ ما لا يَزالُ يُناسِجُهُ
كَدُودٍ كَدُودِ القَزِّ يَنْسِجُ دائماً ... فَيُهلَكُ غَمّاً وَسْطَ ما هُوَ ناسِجُ

١. سورة آل عمران، الآية ١٤٠.
٢. «غضوا» من مادة (غض) على وزن حظ، بمعنى الحد والتقليل، وغض البصر، بمعنى عدم تركيز الإنسان على الشيء في النظر إليه، بل يخفض عينيه إلى الأسفل.
٣. «كادح» من مادة (كدح) على وزن مدح، السعي المصحوب بالمشقة.
٤. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٦.
٥. حاشية الكافي، ج ٢، ص ٣١٦، كدود في البيت الثاني صيغة مبالغة من مادة (كد) يعني الجهد.

ثم أخذ الإمام عليه السلام بيد مخاطبيه إلى العهود الماضية ليشرح عاقبة الحياة الدنيا لمن تعلق بها ضمن عشر عبارات قصيرة بما يهزّ ضمير الإنسان فقال: «وَٱعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ[1] ٱلْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ[2]، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَٱنْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ».

وتشير العبارة «تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُم» إلى تآكل الجسد تحت التراب، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى تآكل الوشائج الاجتماعية في حياة الإنسان والتي تزول بعد وفاة الإنسان، كما يمكن أن تكون الأسماع والأبصار إشارة إلى الأذن والعين الظاهرية لقدرة الرؤية والسمع الحسي، ولا تزول حواس الإنسان الظاهرية وأعضائه البدنية فحسب، بل تزول كل امتيازاته الاجتماعية من قبيل الترف المادي والعزة وكافة النعم والمتع. ثم أشار عليه السلام إلى جانب آخر من النعم التي يفارقها الإنسان بالموت فقال: «فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ ٱلْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ ٱلْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ».

بل وصفهم الشاعر[3]:

وَحَلُّوا بِدارٍ لا تَزاوُرَ بَينَهُم ... وَأَنّى لِسُكّانِ القُبُورِ التَّزاوُرُ

طبعاً هذا الكلام في جسم الإنسان ولا مانع من اجتماع أرواح المؤمنين وتزاورها وتحاورها.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة محذراً الجميع: «فَٱحْذَرُوا، عِبَادَ ٱللّٰهِ، حَذَرَ ٱلْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، ٱلْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، ٱلنَّاظِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَٱلْعَلَمَ قَائِمٌ، وَٱلطَّرِيقَ جَدَدٌ[4] وَٱلسَّبِيلَ قَصْدٌ». العبارة «فَٱحْذَرُوا... ٱلنَّاظِرِ بِعَقْلِهِ» إشارة إلى أنّ الإنسان يمكنه

---

١. «مصارع» جمع مصرع، موضع الوقوع على الأرض ويطلق أيضاً على المقتل.

٢. «أوصال» جمع وصل، على وزن قفل، العظام وانسجة الأعصاب التي تربط الأعضاء.

٣. منهاج البراعة، ج ٩، ص ٤١٢.

٤. «جدد» من مادة (جد) على وزن خط، القطع وطي الطريق المستوي، ويقال للطريق المحكم والمستوي، الجادة.

اجتياز الأخطار الواردة في العبارات السابقة للإمام من خلال: غلبته لنفسه ليتمكن بعد ذلك من كبح جماح شهواته ومن ثم النظر إلى الأمور ببصيرة العقل لا الشهوة المضلة، والعبارات الأربع الأخيرة في الخطبة تشير كل واحدة منها إلى قضية مستقلة، قال في الاولى: إنّ سبيل السعادة قد اتضح بواسطة القرآن وأولياء الله وقد نصبت الأعلام الواضحة على طول طريق السير إلى الله، كما أنّ الجادة محكمة ومستوية وخالية من العوائق والمطبات والانحراف، ولا يبقى شيء سوى العزم والإرادة للسالكين على الدرب واجتيازه بصورة سريعة. وهنيئاً لأولئك الذين عزموا وساروا على الدرب كما قال الشاعر:

فَطُوبَى لِعَبدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ   وَجادَ بِدُنياهُ لِما يَتَوَقَّعُ[1]

***

١. منهاج البراعة، ج ٩، ص ٤١٢.

١٦٢

ومن كلام له عليه السلام

لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَقَد سَأَلَهُ: كَيْفَ دَفَعَكُمْ قَوْمُكُمْ عَنْ هذا المَقَامِ وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ؟ فَقَالَ:[1]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام كجواب لأحد أصحابه وقد سأله عن كيفية دفعه عن حقّه في الولاية وجدارته بها. فأشار الإمام عليه السلام إلى أمرين تدور حولهما الخطبة:

الأول: أنّ السبب الرئيسي هو البخل والاستبداد والتعلق بالدنيا.

والثاني: الذي قال فيه إنّك إن تعجب من قضية بداية الخلافة، فانظر اليوم وقد تصدى معاوية وتبعه الناس، دون أدنى جدارة بهذا المنصب ولا يمكن المقارنة بيني وبينه.

---

١. سند الخطبة:

ذكر هذا لعلي عليه السلام قبل السيد الرضي، المرحوم الشيخ الصدوق في كتابه الامالي في سبب ترك الناس لعلي عليه السلام والطبري في المسترشد والمرحوم الشيخ المفيد في الإرشاد. كما ذكروا أنّ السائل هو (ابن دودان). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٧٧).

القسم الأول

فقال: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ ٱلْوَضِينِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ ٱلصِّهْرِ وَحَقُّ ٱلْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ ٱسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَّا ٱلِإسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهٰذَا ٱلْمَقَامِ وَنَحْنُ ٱلْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَٱلْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَٱلْحَكَمُ ٱللهُ، وَٱلْمَعْوَدُ إِلَيْهِ ٱلْقِيَامَةُ.

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ ... وَلٰكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ ٱلرَّوَاحِلِ

الشرح والتفسير

علة غصب الخلافة العلوية

أورد الإمام علي عليه السلام هذا الكلام في رده على السائل الذي يبدو أنّه طرح السؤال في موقع لم يكن مناسباً. مع ذلك أجاب عليه السلام عن السؤال فقال: «يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ ٱلْوَضِينِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ[1]، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ[2] ٱلصِّهْرِ وَحَقُّ ٱلْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ ٱسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ». أمّا لماذا خاطبه الإمام عليه السلام «يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ» وأشار ضمن كلامه بالقول لك علينا ذمامة الصهر؟ هناك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن؛ فالبعض كابن أبي الحديد ومغنية يقولان إنّ ذلك يعود إلى أنّ إحدى أزواج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش من طائفة بني أسد[3]. بينما يرى البعض الآخر أنّ

1. «سدد» بمعنى الاستقامة.
2. «ذمامة» الحق والحرمة.
3. «بنو أسد» قبيلة معروفة بالقتال بالجاهلية والإسلام، عاشت هذه القبيلة قرب نجد واعتنقت الإسلام وقاتلت ←

علياً عليه السلام تزوج امرأة من بني أسد، وإن لم تذكر كتب التاريخ ذلك، ولا مانع من الجمع بين الاحتمالين. العبارة «لَقَلِقُ ٱلْوَضِينِ» بالنظر إلى أنّ (الوضين) بطان يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرج، و(قلق)، بمعنى الضعيف فإنّ من الطبيعي أن اضطرب ذلك الحزام تململ الجمل وتحرك هنا وهناك ومن هنا يطلق على المضطرب: الوضين. والعبارة «وَحَقُّ ٱلْمَسْأَلَةِ» تعبير حي رائع يفيد أنّ لكل شخص الحق في سؤال الإمام، كما يستفاد ضمنياً التزام الإمام بالاجابة ما لم يكن هنالك محذور معيّن.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق ليتطرق إلى الأسباب التي وقفت وراء دفعه عن حقّه فقال: «أَمَّا ٱلْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا ٱلْمَقَامِ وَنَحْنُ ٱلْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَٱلْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ نَوْطاً[1]، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً[2] شَحَّتْ[3] عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ[4] عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَٱلْحَكَمُ ٱللهُ، وَٱلْمَعْوَدُ[5] إِلَيْهِ ٱلْقِيَامَةُ».

المراد من الإستبداد، من مادة (بدد)، بمعنى الابعاد والتفريق، بحيث يستولي الإنسان على شيء ويبعد الآخرين عنه. فقد عزى الإمام عليه السلام في هذا الموضع من كلامه الدليل الأصلي لغصب الخلافة رغم أولويته بها إلى الإستبداد والبخل الذي أعمى أعين البعض عن الواقع فسارع عزل الآخرين واعتلى موقع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. من الواضح أنّ المراد من هؤلاء الأفراد أولئك الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة، وإن دفع التعصب ابن أبي الحديد لينسب المقصود إلى الشورى

☜ إلى جانب سعد بن أبي وقاص في القادسية وقدمت العديد من القتلى. وتاريخ بني أسد مليء بالأحداث وقد سارعت فئة من بني أسد لدفن أجساد شهداء كربلاء، كما كانت فئة منهم في جيش عبيد الله بن زياد.

١. «نوط» بمعنى التعلق والالتصاق.

٢. «أثرة» بمعنى الاختصاص بالشيء (الاحتكار) دون الغير المستحق على العكس من الإيثار الذي يعني تقديم الغير على الذات.

٣. «شحت» من مادة (شح) بمعنى البخل.

٤. «سخت» من مادة (السخاء).

٥. «معود» اسم مكان، موضع العودة.

التي نصبها عمر ومعارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافة عليعليه السلام والذي يعد في الواقع من قبيل انكار البديهيات؛ ذلك لأنّ سؤال السائل كان بشأن أصل الخلافة بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله وجواب الإمامعليه السلام أيضاً عالج هذه القضية والذي يشبه ما أورده الإمامعليه السلام بهذا الخصوص في خطبة أخرى. والمراد من العبارة «وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ» إننا بني هاشم حين رأينا الإصرار العجيب لتلك الفئة على مصادرة الخلافة ولا تعود المقاومة سوى إلى تصدع كيان المجتمع الإسلامي غضضنا الطرف عنها بكل سخاء ولم تمارس أيّة مقاومة.

ثم تمثل الإمامعليه السلام بذلك الشعر الذي ينسب إلى امرؤ القيس الذي قال فيه دع عنك الحديث بشأن الغارات التي وقعت في الزمان الماضي وحدثني عن غارات اليوم (حيث آلت فيه الخلافة الإسلامية إلى معاوية الذي أصبح الخطر العظيم الذي يهدد الإسلام).

ودع عنك نهباً صيح في حجراته[1] ولكن حديثا ما حديث الرواحل. يذكر أنّ امرؤ القيس أنشد هذا البيت بعد قتل أبيه الذي لجأ إلى خالد بن سدوس فهجمت عليه طائفة من قبيلة بني جديلة ونهبوا الأموال والجمال. فأخبر امرؤ القيس خالد الخبر فقال له: أعطني جمالك حتى استعيد تلك الجمال فقبل. فاتّجه خالد إلى قبيلة بني جديله فطالبهم باعادة الجمال. فأنزلوه من ناقته وأخذوا منه البقية. فلما اطلع امرؤ القيس على هذا الخبر أنشد ذلك البيت، ومضمونه: دع عنك نهب تلك الجمال وحدثني عن هذه التي سلمها خالد لهذه القبيلة[2]. ينطوي هذا القسم على موضوعين مهمين سنتطرق إليهما في ختام الخطبة.

٭٭٭

١. «حجرات» جمع حجرة، على وزن ضربة، بمعنى الناحية.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٢٤٤.

القسم الثاني

وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ؛ وَلَا غَرْوَ وَاللهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوَدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة شرح لما ذكره الإمام عليه السلام على نحو الإشارة في البيت الذي تمثل به والذي أنشده امرؤ القيس، فقد صرح الإمام عليه السلام بترك الماضي رغم عيوبه وإشكالاته والنظر إلى الطامة التي تحدث اليوم: «وَهَلُمَّ[1] الْخَطْبَ[2] فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ».

إنّك تسألني لِمَ أبعدوك عن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في حين لا يرقى إليك أحد؟ تعال اليوم وانظر إلى ابن أبي سفيان عدو الإسلام اللدود الذي يطالبني بالخلافة. يا له من أمر مبكٍ ومضحك، أمّا أنّه مبكٍ فذلك لأنّ الإسلام بلغ مرحلة يريد فيها ابن أعدى أعداء الدين زعامة الدولة الإسلامية والدفاع عن حمى الإسلام

---

١. «هلم» تركيب من هاء التنبيه ولم، بمعنى اجمع، وتستعمل هذه المفردة كلمة واحدة بمعنى تعال إلينا وإلى جانبنا.

٢. «خطب» على وزن ختم، بمعنى الأمر العظيم، ومنه الخطاب والمخاطبة حيث الحوار المهم.

والمسلمين، وأمّا أنّه مضحك فذلك لأنّه ليست هنالك من نسبة للمقارنة بيني وبينه، ولذا لا يقاس معاوية أبداً بي بل أنا وهو طرفي التضاد، نعم ربّما لا يعود هذا البكاء والضحك لزمان واحد، فالبكاء لهضم حقوق الإسلام والمسلمين في كيفية رضاهم بحكومة بني أمية حثالة عصر الجاهلية.

ثم قال عليه السلام: «وَلَا غَرْوَ[١] وَاللهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ[٢] الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوَدَ[٣]!».

لعل صدر وذيل العبارة يبدو في الوهلة الأُولى متناقضاً، إلّا أنّه في الواقع نوع من البلاغة والفصاحة التي أوردها الشاعر حين أنشد:

قَدْ صِرْتُ فِي الميدانِ يَوْمَ طِرادِهِمْ فَعَجِبْتُ حَتّى كِدْتُ أَنْ لا أَعْجبا[٤]

أي، تعجبت إلى الحد الذي لم يبق لي من مجال للتعجب فقد وطأت الميدان فعجبت من الوضع إلى درجة أنّي كدت أن لا اتعجب، ولعل ذلك من باب المثل المعروف، «أنّ الشَّيءَ إذا تَجاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ ضِدَّهُ». والعبارة «وَيُكْثِرُ الْأَوَدَ!» إشارة إلى أنّ المجتمع الإسلامي بفعل حكومة يتزعمها ابن أبي سفيان سينحرف تماماً عن الصراط ويعيش الاعوجاج في كل شيء.

ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل هذا الأمر فقال: «حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ[٥] مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا[٦] بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً[٧]». فالعبارة «حَاوَلَ الْقَوْمُ...» إشارة إلى أنّ بني أمية لا يسعون إلى الحكومة وزعامة الأُمّة فحسب، بل هدفهم إطفاء نور الإسلام والقرآن، والهدف إعادة الأُمّة إلى الجاهلية

---

١. «غرو» بمعنى، التعجب.

٢. «يستفرغ» من مادة (فراغ) تعني هنا، الاخراج ومعنى العبارة، يستفرغ العجب أنّه يزيل أي عجب ولا يترك له من مكان.

٣. «أود» من مادة (أود) على وزن قول، بمعنى العوج، وأود على وزن سند، بمعنى الاعوجاج.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٤٧.

٥. «فوار» صيغة مبالغة بمعنى كثير الفوران، كما تعني عين الماء والثقب الذي يخرج منه الماء بشدّة.

٦. «جدحوا» من مادة (جدح) على وزن مدح، بمعنى، الخلط والمزج.

٧. «وبيئا» الشيء الذي يكثر فيه الوباء، طبعاً يطلق الوباء أحياناً على مرض خاص، وأخرى، على كل مرض، والمعنى الثاني هو المراد في الخطبة.

وعصرها المظلم وأعمالهم خير شاهدة على ذلك.

والعبارة «وَسَدَّ فَوَّارِهِ...» بينت نفس المعنى بتعبير آخر، حيث شبه الإسلام والقرآن بعين فياضة انفجرت في صحراء جاهلية العرب ورويت بمائها العذب ما تصحو من قلوبهم واثمرت تلك النبتة. ويسعى بني أمية لغلق هذه العين وسوق الأُمّة إلى تلك الصحراء.

والعبارة «وَجَدَحُوا...» تعبير رائع آخر للمعنى المذكور. فقد خلط هؤلاء القوم ماء الشريعة العذب الفرات بالسموم الفتاكة ليسمموا أفكار الأُمّة ويلوثوا أخلاقها، فمثل هذه الأُمّة لن تنقاد إلى بني أمية وآل أبي‌سفيان إن عاشت السلامة في فكرها والطهر في أخلاقها. نعم، فهؤلاء لم يسعوا لإطفاء نور الولاية فحسب، بل وعلى غرار المشركين الذين قال فيهم القرآن: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[1] سعوا إلى إطفاء نور الإسلام والقرآن والحيلولة دون نشر الإسلام والمعارف الدينية وقد وضعوا العديد من الأحاديث لتلويث هذا الماء العذب.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى عزمه الذي اتخذه بهذا الشأن فقال: «فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾». أي، إن زالت الموانع فإنّي على استعداد تام لإعادة الأُمّة الإسلامية إلى سابق عزّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسأبذل جهدي بهذا الخصوص، ولكن إن لم تسمح الظروف فلا إشكال، ذلك أنّي أعمل بوظيفتي وسيذوق هؤلاء وبال أعمالهم.

تأمّلات

١. حق السؤال

عادة ما يواجه الإنسان من حوله سيلاً من المجاهيل التي ترتبط أحياناً بالأمور

---

١. سورة الصف، الآية ٨.

المادية وأخرى المعنوية وسؤال العلماء والمختصين، مفاتيح حل تلك المجاهيل، ولذلك فتح الله تعالى على الإنسان أبواب السؤال بشأن عالم التشريع والتكوين. وتمتاز الشريعة الإسلامية الغراء بأنّها لم تأذن بفتح باب السؤال لكل شخص وفي أي مجال فحسب، بل أمرت بذلك. القرآن الكريم من جانبه أكد على هذا الأمر في آيتين: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في بعض كلماته القصار في نهج البلاغة: «وَلَا يَسْتَحْيِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ»[2]. نعم، فالسؤال ليس عيباً، بل العيب أن لا يسأل الإنسان ويبقى في الجهل. الجدير بالذكر أنّ الخطبة المذكورة إشارة إلى أنّ السؤال حق لكل شخص، ويبدو هذا الأمر أكثر أهميّة لدى الشباب وذلك لكثرة مجهولاتهم. فمن حيث التكوين والخلقة فإنّ الله خلق في ذات الإنسان حبّ الاستطلاع والبحث. فالإنسان يميل بطبعه لمعرفة الأشياء التي لا يعلمها، وتبدو هذه الرغبة أعمق لدى الشباب، بسبب تلك الحاجة. فهم يطرحون أحياناً على الوالدين بعض الأسئلة التي تنتهي عادة بارتفاع أصواتهم. والحال، واجبهم يتطلب منهم تلبية هذه الحاجة الروحية بكل عطف ورقة، فيعلمونهم ما لا يعلمون وإن عجزوا عن الجواب أرشدوهم إلى من يجيبهم. والبعض يعتقد أنّ السؤال عن القضايا الأصولية والعقائدية من دواعي الكفر والإلحاد، بينما تسهم مثل هذه الأسئلة في ترسيخ الإيمان وشد الجانب العقائدي لدى الإنسان. لا شك أنّ وظيفة العلماء تقتضي تأهبهم للاجابة عن الأسئلة في كافة الظروف والتعامل مع السائل بكل أدب واحترام، ولا ينبغي لهم نسيان ضرورة قيامهم بهذا الدور، لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللهَ يَأْخُذْ عَلَى الجُهَّالِ عَهداً بِطَلَبِ العِلْمِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى العُلَمَاءِ عَهداً بِبَذْلِ العِلْمِ لِلجُهَّالِ»[3].

---

١. سورة النحل، الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء، الآية ٧.

٢. نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٨٢.

٣. الكافي، ج ١، ص ٤١.

ونختتم البحث ببعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن: أولاً: ما روي عن الإمام الصادقعليه السلام في حثه أحد أصحابه وهو حمران بن أعين على السؤال أنّه قال: «إِنَّمَا يَهْلِكُ النَّاسِ لأَنَّهُم لا يَسْأَلُونَ»[١].

وثانياً: قال عليعليه السلام: «القُلُوبُ أَقْفَالٌ مَفَاتِحُها السُّؤالُ»[٢].

وثالثاً: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «العِلْمُ خَزَائِنُ وَمَفَاتِيحُهُ السُّؤالُ فَاسْأَلُوا يَرْحَمُكُمُ اللهُ فَإِنَّهُ يُؤجَرُ فِيهِ أَربَعَةٌ: السَّائِلُ وَالمُعَلِّمُ وَالمُسْتَمِعُ وَالمُحِبُّ لَهُم»[٣]. التفت اعرابي يوم الجمل إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، تقول أنّ الله واحد؟ ما المراد بهذه الوحدة. فهجم عليه الناس من كل جانب وقالوا له ألا ترى انشغال أمير المؤمنين بالقتال؟ (فلكل حادث حديث) فأشار عليهم الإمامعليه السلام دعوه فما يسأل عنه الأعرابي هو ما نريده من القوم (إننا ندعوهم إلى التوحيد والقتال لمعرفة هذه التعاليم المقدّسة) ثم قسم الإمامعليه السلام التوحيد إلى أربعة أقسام اثنان مرفوضان واثنان مطلوبان[٤].

٢. الهدف الاصلي من السؤال والجواب في الخطبة

مراد الرجل الاسدي من السؤال بشأن الخلافة واجابة الإمامعليه السلام واضحة تماماً أنّها بخصوص السقيفة وتغيير محور الخلافة عن أهل بيت النبي الأكرمصلى الله عليه وآله بعد وفاته، إلّا أنّ تعصب ابن أبي الحديد لمذهبه جعله يفسر العبارة ومرادها على أساس احتمال ضعيف من قبيل أنّ المراد معارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافة عليعليه السلام ودفعها لعثمان. والغريب في الأمر أنّ ابن أبي الحديد نقل هنا قصة عن استاذه أبي جعفر النقيب تؤيد تماماً ما قلناه، وهي منطقية تماماً، مع ذلك لم يستطع

١. الكافي، ج ١، ص ٤٠.
٢. ميزان الحكمة، ج ٤، ح ٨٠٣٩.
٣. المصدر السابق، ح ٨٠٤١.
٤. راجع كتاب توحيد الصدوق، ص ٨٣ باب «معنى الواحد والتوحيد».

هذا الرجل المفكر ابن أبي الحديد من التسامي على بعض تعصبه، إذ يروي عن أستاذه الذي يصفه بأنّه رجل منصف علوي المذهب وله حظ وافر من العقل أنّه يسأله ماذا عنىٰ ذلك السائل بسؤاله الإمام علي‌عليه‌السلام عمن أبعدوه عن حقّه؟ أكان مراده يوم السقيفة أم يوم الشورىٰ؟ أجاب: السقيفة. قلت: لا أجيز لنفسي أن أقول إنّ أصحاب النبي الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله خالفوه ولم يلتزموا بمعتى الخلافة. قال: إنا أيضاً لا أجيز لنفسي أن أنسب إلى رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه أهمل أمر الخلافة والإمامة من بعده وترك الأُمّة دون إمام، فقد كان رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينة، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافة بعد وفاته وأضاف الأستاذ أنّ الجميع يعتقدون أنّ رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله كان قمة الكمال العقلي، كما يعتقد اليهود والنصارى والفلاسفة والحكماء أنّه رجل حكيم وله نظرة صائبة وقد أتى بقوانين منطقية وعقلية، وبغض النظر عن مقام النبوّة فإنّ تعاليمه تستند إلى الوحي، وهذا الإنسان كان عارفاً بالعرب ويعرف طباعهم وأحقادهم وإن قُتل شخص لقبيلة ثأروا له، فإن عجزوا فمن أهله وقرابته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يحب بنته فاطمة ووليديها الحسن والحسين وبعلها علياً‌عليهم‌السلام، ولا شك في أنّه لو لم يستند إلى الوحي فلن يتركهم دون إمام، أتظن أنّه أراد أن تكون إحدى ضعفاء المدينة. وفي وسط قوم أراق علي‌عليه‌السلام دماء قرابتهم، والواقع هو أنّ رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله سفك دماءهم لا علي‌عليه‌السلام.

خلاصة القول أنّ هذا الرجل العاقل كان لابدّ له من تنصيب أحد للخلافة من أهل بيته لكي لا تموت رسالته. قال: فقلت له: هذا صحيح، لكن كلام الإمام‌عليه‌السلام لا يدل على النص في الخلافة، أجاب: صحيح، إلّا أنّ السائل لم يسأل عن النص في الخلافة بل سأل كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم الأعلى نسباً وقرابة من النبي الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله فأجابه الإمام‌عليه‌السلام عن هذا السؤال[1].

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٤٨.

٣. بني امية ومؤامرة القضاء على الإسلام

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة ولاسيما قوله: «حَاوَلَ ٱلْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ ٱللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ...» أنّ هدف بني أمية لم يقتصر على الإستيلاء على الخلافة الإسلامية فحسب، بل إنّهم سعوا جاهدين لمحو آثار الإسلام، كونهم حثالى عصر الجاهلية، ولولا تضحيات تلك الثلة المخلصة في كربلاء والتي كشفت عن كوامن بني أمية لما بقي اليوم من الإسلام إلّا اسمه، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة منها:

١. إنّ المؤرخ المعروف المسعودي قد روى في كتابه (مروج الذهب) قصة عن المأمون، الخليفة العباسي انّه أصدر أمراً سنة ٢١٢ هـ وبعث بمنادٍ ينادي أن ليس لأحد أن يذكر معاوية بخير أو يقدمه على أيٍّ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وحين حاول البعض معرفة دافع المأمون، اتضح أنّ السبب ما ذكره له ابن المغيرة بن شعبة، قال: دخلت الشام مع أبي وكان كل يوم يقصد معاوية ويمدحه حتى رجع يوماً حزيناً فسألته الخبر. قال: رجعت من أخبث الناس. قلت: لم؟ قال: كنت عند معاوية فأشرت عليه بالعدل والخير تجاه بني هاشم وصلة الرحم فقال غاضباً: ـ هَيهاتَ هَيهاتَ أخو تيم (أبو بكر) ولّي الخلافة وفعل ما فعل، فلما مات انقطع ذكره، ثم ولاها أخو عدي (عمر) فلما مات انقطع ذكره، وكذلك عثمان إلّا أخو هاشم ينادى باسمه كل يوم خمس مرات «أشهد أنّ محمّداً رسول الله» فما الذي يبقى لنا ثكلتك أمّك.

ثم قال: «وَاللهِ إلّا دَفناً دَفناً»[١]. فلما سمع المأمون ذلك أصدر أمره المذكور بحق معاوية[٢] فهذا الخبر الذي تناقلته كتب التاريخ يكشف الكثير من الأمور ويتضمن الأجوبة عن الكثير من الأسئلة التي تطرح بشأن مؤامرات بني أمية.

---

١. ورد في شرح ابن أبي الحديد انّه قال: لا والله إلّا دفناً دفناً.

٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٥٤؛ شرح نهج البلاغة، ج ٥، ص ١٢٩.

والشاهد الآخر على ما ذكرناه الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاوية حين سمع بمصرع الحسين فأنشد:

لَعِبَتْ هاشِمُ بِالمُلكِ فَلا خَبَرٌ جاءَ وَلاَ وَحيٌ نَزَلْ

ولا غرو فهو ابن معاوية بن أبي سفيان. قال الطبري: حين وُلّي عثمان الخلافة خاطب أبوسفيان بني أمية: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، قال: «تَلَقَّفُوها تَلَقُّفَ الكُرَةِ فَما هُناكَ جَنَّةٌ وَلا نارٌ»[١].

وروى المسعودي (في مروج الذهب) أنه قال «يا بَنِي أُمَيَّةَ تَلَقَّفُوها تَلَقُّفَ الكُرَةِ فَوالَّذي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سُفيانَ ما زِلتُ أَرجُوها لَكُم وَلَتَصِيرَنَّ إِلى صِبيانِكُم وراثَةً»[٢].

كما روى هذا المعنى ابن عبدالبر في الاستيعاب، وقال: كان هذا في مجلس عثمان، فلما سمع انكاره للجنّة والنّار قال: «قُم وانصرف عنّي»[٣].

١. تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٥ حوادث عام ٢٨٤ هجرية لرسالة كتبت للمعتضد العباسي في فضائح معاوية.

٢. مروج الذهب، ج ١، ص ٤٠٣.

٣. الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٩.

١٦٣

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة[١]

إنّها خطبة بليغة وفصيحة تتكون من قسمين:

القسم الأوّل: يتحدث عن صفات الله الجمالية والجلالية، وقد شرح الإمام عليه السلام تسع عشرة صفة من صفات الله بعبارات غاية في الروعة حسبما ذكره المرحوم المحقق البحراني.

أمّا القسم الثاني: فخاطب فيه الإمام عليه السلام الإنسان وقد بين آيات القدرة الإلهية في خلقه رغم ضعفه وعجزه، ليربط صدر الخطبة بذيلها ويرسم صورة جميلة عن توحيد الله ومعرفته.

---

١. سند الخطبة:
ذكر أبو نعيم الإصفهاني في حلية الأولياء، والواسطي في عيون الحكم والمواعظ والزمخشري في ربيع الأبرار جوانب من هذه الخطبة.

القسم الأول

ٱلْحَمْدُلِلهِ خَالِقِ ٱلْعِبَادِ، وَسَاطِحِ ٱلْمِهَادِ، وَمُسِيلِ ٱلْوِهَادِ، وَمُخْصِبِ النِّجَادِ. لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ٱبْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ ٱنْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَٱلْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ ٱلْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ ٱلْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا. لَا تُقَدِّرُهُ ٱلْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَٱلْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَٱلْأَدَوَاتِ. لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى؟» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَٱلْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟» لَا شَبَحٌ فَيُتَقَضَّى، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلَا ٱزْدِلَافُ رَبْوَةٍ، وَلَا ٱنْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ ٱلْقَمَرُ ٱلْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي ٱلْأُفُولِ وَٱلْكُرُورِ، وَتَقَلُّبِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ ٱلْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ ٱلْأَقْطَارِ، وَتَأَثُّلِ ٱلْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ ٱلْأَمَاكِنِ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

الشرح والتفسير

حادثة مهمّة

يبيّن المقطع الأول من الخطبة كما ذكرنا جانباً من صفات الله، والمهم أنّه يستهل الخطبة بصفات الأفعال، يعني خلق عالم الوجود وما ينطوي عليه من عجائب

وغرائب، ذلك لأنّ هذه الصفات تدرك من قبل الجميع، حيث قال: «ٱلْحَمْدُلِلَّهِ خَالِقِ ٱلْعِبَادِ، وَسَاطِحِ[1] ٱلْمِهَادِ[2]، وَمُسِيلِ ٱلْوِهَادِ[3]، وَمُخْصِبِ[4] النِّجَادِ[5]». فقد أشار الإمام عليه السلام بادىء الأمر إلى خلق الناس بصفته، أروع خلق الله، ثم أشار إلى ثلاثة محاور مهمة (موضع السكن والماء، مادة الحياة، والمواد الغذائية) ليثير لدى الآخرين الشعور بالإمتنان والشكر ويعدّهم للتعرف على صفات الله الجمالية والجلالية. (والعباد) الواردة بقرينة العبارات القادمة تعود إلى الناس وأن تشمل أحياناً الملائكة والجن. وتشير «وَسَاطِحِ ٱلْمِهَادِ» إلى ما ورد في الآية الشريفة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾[6]. والعبارة «وَمُسِيلِ ٱلْوِهَادِ» بالنظر إلى أنّ الوهاد تعني الوديان والمنخفضات إشارة إلى أنّ الله تعالى جعل بعض مناطق الأرض منخفضة لتتخللها المياه دون غيرها. والعبارة «وَمُخْصِبِ النِّجَادِ» إشارة إلى قدرة الله في إحياء الأراضي المرتفعة بالنباتات رغم عدم وصول المياه إليها.

ثم خاض الإمام عليه السلام في جانب مهم من صفاته تعالى الأزلية والأبدية وواجب الوجود فقال: «لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ٱبْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ ٱنْقِضَاءٌ. هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَٱلْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ». أثبتت الأدلة العقلية أنّ الله واجب الوجود ليس له بداية ولا نهاية، كان دائماً ولا يزال، فوجوده عين ذاته وذاته مطلقة، وعليه فالعبارة «هُوَ ٱلْأَوَّلُ... وَٱلْبَاقِي...» نتيجة للعبارة ««لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ... وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ...» لأنّه حين لا تكون لأزليته وأبديته بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر، وهاتان الصفتان في الواقع أساس أغلب صفات الله، وصفاته الجمالية والجلالية إنّما تعود إلى هاتين الصفتين.

---

١. «ساطح» من مادة (سطح) بمعنى معروف، ويقال ساطح، لمن يجعل الشيء مسطحاً.

٢. «مهاد» و«مهد» بمعنى الفراش، وتطلق على الأرض موضع السكن والاستراحة، وهذا هو المعنى المراد.

٣. «وهاد» جمع وهدة، بمعنى الأراضي المنخفضة.

٤. «مخصب» من مادة (خصب) على وزن غضب، بمعنى كثرة النبات، وعليه فالمخصب تطلق على الشخص الذي يملأ الأرض نباتاً وبركة.

٥. «نجاد» جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ومصدرها نجود.

٦. سورة النبأ، الآية ٦.

قال القرآن الكريم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

ثم قال عليه السلام: «خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ». ومن المسلَّم به أنّ خالق جميع الأشياء والمخلوقات والنعم والذي يستمد الوجود بأسره، الوجود منه فهو أهلٌ للعبادة والسجود والحمد وليس لأحد غيره هذا المقام. وبالطبع فإنّ ذلك السجود والحمد يختص بالعارفين بالله لا الكفّار والمشركين الذين لا يستحقون الذكر.

ثم واصل كلامه بالإشارة إلى بعض الصفات السلبية المنزهة من كل نقص فقال: «حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا». إشارة إلى أنّ جميع المخلوقات محدودة وذاته المقدّسة فقط لا تعرف الحدود، ومن هنا ليست هنالك من صعوبة في تمييز الخالق من المخلوق والإبتعاد عن السقوط في مستنقع الشرك. وهنا يرد هذا السؤال: أفيمكن أن يخلق الله شيئاً غير محدود أو بعبارة أخرى، واجب الوجود؟ أنّ ذات كل مخلوق تقتضي كونه محدوداً. ومن هنا كيف يقال إنّ الله خلق الأشياء المحدودة حتى لا تشبه ذاته ؟

والجواب عن هذا السؤال : إنّ المراد من «حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا...» تمييزه عن المخلوقات؛ بعبارة أخرى، فإنّ «إِبَانَةً لَهُ» ليست مفعولاً لأجله، بل نتيجته وغاية الفعل. والمسألة الأخرىٰ الجديرة بالإلتفات أنّ أغلب نسخ نهج البلاغة نقلت العبارة «ابانة لها» وفي هذه الحالة لا يرد أي غموض وإبهام؛ حيث مفهوم العبارة أنّ الله حدّ الأشياء عند خلقها أي جعل لكل موجود حدود معينة تميزه من الأخرىٰ، من قبيل ما ورد في الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[2].

ثم أسهب عليه السلام في شرح مطلقية ذات الله المقدّسة ليكشف عمق هذه الحقيقة

---

١. سورة الحديد، الآية ٣.

٢. وردت هذه العبارة ضمن خطبة أخرىٰ وبصيغة أخرىٰ في أصول الكافي والتي تدعم التفسير الأول وهي «حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهِ، وإِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا» (أصول الكافي، ج ١، ص ١٣٥).

بعبارات مختلفة تسلط الضوء على كل جوانب غناه عن الحدود فقال: «لَا تُقَدِّرُهُ ٱلْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَٱلْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَٱلْأَدَوَاتِ». ليست له أعضاء كأعضاء الأنسان ولا يعتمد الوسائل والأدوات لتحقيق مايشاء، كما لا يحتاج الحركة والإنتقال من مكان إلى آخر، ذلك لأنّ كل هذه الأمور من علامات المحدودية ولا تعرف ذاته الطاهرة أية حدود وقيود، ومن هنا تعذر على سكان العالم المحدود المعروف بالنقص والحاجة، الوقوف على كنه تلك الذات المقدّسة . فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوهَامِكُم فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُم مَرْدُودٌ إِلَيكُم»[1].

ثم وضح ماقاله سابقاً: «لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى؟» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَٱلْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟»» وعلى هذا الضوء ليست له من بداية ولا نهاية، لا ظاهر كظهور الشمس والقمر، ولا باطن كالمعادن الخفية في باطن الأرض، وفي ذات الوقت فذاته أظهر من كل شيء وأخفى من كل شيء، بعبارة أخرى، فإنّ ظهوره ظهور ذاتي وخفاءه من كنه ذاته.

ثم خاض عليه السلام بصورة أعمق ليقول: «لَا شَبَحٌ[2] فَيُتَقَصَّى[3]، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى[4]. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ». فقد نفى الإمام عليه السلام في هذه العبارات بادىء الأمر، الجسمية عن الله، ذلك لأنّ الجسم إمّا ظاهر له حدّ وحدود أو مخفي ومحتجب في شيء آخر وله حدّ وحدود في كلا الحالتين، والحال ليس لواجب الوجود من حدود، كما يلاحظ في العبارتين الأخيرتين تجلي آخر لغنى الذات المقدّسة عن الحدود. فهو أقرب لكل شيء، لكن ليس بمعنى الإلتصاق أو الحلول والإتحاد، بل بمعنى الحضور في كل مكان والاحاطة بكل شيء، كما هو

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٢.

٢. «شبح» بمعنى الشخص، وتطلق أحياناً على الشخص الذي لا يبدو واضحاً من بعيد.

٣. «يتقصى» من مادة (قصو) على وزن قصد، بمعنى الابتعاد، وتعني أيضاً، البحث والتحري عن الشيء.

٤. «يحوي» من مادة (حواية)، الاستيلاء على الشيء.

بعيد عن كل شيء ليس بمعنى المسافة والانفصال عن الأشياء، بل بمعنى سمو ورفعة وجوده وصفاته بالنسبة لسائر الأشياء. وهذا يشبه ما ورد في الخطبة الأُولى من نهج البلاغة: «مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ». لا شك أنّه يستحيل جمع هذه الصفات في الممكنات؛ ذلك أنّ الشيء إن بعد فلا يسعه الاقتراب، وإن اقترب فلا يمكنه الابتعاد، ولكن ليس هنالك من معنى لتضاد القرب والبعد وأمثال ذلك في ذات واجب الوجود المطلق.

ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع علم الله تعالى بكل شيء وفي كل زمان ومكان من خلال عبارات رائعة عميقة المعنى فقال: «وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ[1] لَحْظَةٍ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلَا ازْدِلَافُ[2] رَبْوَةٍ[3]، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ[4]، وَلَا غَسَقٍ[5] سَاجٍ[6]». فالإمام عليه السلام بغية تشخيص عدم خروج أخفى الأشياء عن علم الله يفترض مسافراً مرّ في ليلة ظلماء بصحراء وقد صوب بصره إلى الصحراء وينبس ببعض الكلمات، يقترب من التلال والمرتفعات ويتسلقها بسرعة ليبلغ غايته وهو يشق طريقه في تلك الظلمة المعتمة. فالله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من حركات عيون وشفاه وأقدام هذا المسافر لهو أعلم بأعمال عباده وهم يأتون بها في وضح النهار وفي المدن والبلدان.

ثم قال في وصف هذه الليلة الظلماء: «يَتَفَيَّأُ[7] عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ[8]». إشارة إلى أنّ علم الله بالموجودات وأعمال

---

١. «شخوص» بمعنى التركيز في النظر على الشيء.

٢. «ازدلاف» بمعنى الاقتراب والصعود من نقطة مرتفعة، ويقال (المزدلفة) للمشعر الحرام لاقتراب الناس هناك من منى أو اقترابهم من الله بهذه العبادة.

٣. «ربوة» الموضع المرتفع.

٤. «داج» من مادة (دجو) على وزن علو، المظلم، وليل داج، الليلة المظلمة الخالية من القمر.

٥. «غسق» شدة الظلمة، وتطلق هذه المفردة على منتصف الليل لشدة ظلمته.

٦. «ساج» الساكن، والمراد من الغسق الساج، الظلام الطويل والمستمر.

٧. «يتفيأ» من مادة (فيئ) على وزن غيب، العودة، وتفيأ بمعنى، الإنتقال والذهاب والإياب.

٨. «كرور» له معنى مصدري، الرجوع.

الإنسان لا يقتصر على اليالي المظلمة، بل يشمل اليالي المقمرة والنهار الواضح، بالتالي ليس هنالك من مكان خارج عن علم الله كالذي ورد في ما بعد: «عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّماواتِ العُلىٰ كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الأرضِينَ السُّفلَىٰ».

ثم قال مواصلاً كلامه: «وَتَقَلُّبِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ». هذه العبارة كتلك التي وردت في العبارات القادمة: «عِلْمُهُ بِالأمواتِ الماضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأحياءِ الباقِينَ» وكل هذه العبارات تشير إلى سعة علم الله الذي لا يحدّه الزمان والمكان. وهنا يرد هذا السؤال: لماذا استند إلى إقبال الليل والنهار مع أنّ لكل من الليل والنهار إقبال وإدبار؟ لعل هذه العبارة تأكيد لما مرّ في العبارات السابقة بشأن نفوذ علم الله إلى أعماق الظلمات وليس فقط وضح النهار. وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أن تركيز الإمام على إقبال الليل وإدبار النهار ربّما إشارة إلى أنّ أمور الدنيا غالباً ما تجري على خلاف رغبة الإنسان[1].

ثم قال عليه السلام : «قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ». الواقع أنّ العبار (لا يخفى عليه من عباده...) التي تحدّث فيها عن علم الله بالزمان والمكان وكل إنسان وشيء تشمل هذا المعنى أيضاً أنّه عليم بنهاية عمرِ كل إنسان وكل موجود قبل أن ينتهي عمره كما يعلم عدد الموجودات قبل أن تعد وتحصى[2].

ثم قال في نتيجة كلية: «تَعَالَىٰ عَمَّا يَنْحَلُهُ ٱلْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ ٱلْأَقْطَارِ، وَتَأَثُّلِ[3] ٱلْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ ٱلْأَمَاكِنِ». نعم؛ فكل طائفة ضالة تفتقر إلى المعرفة من قبيل المشبّهة والمجسّمة إنّما شبهت الله بمخلوقاته وجعلت له

---

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ١، ص ٢٧٣.

٢. إعتبر أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارة مستقلة تشير إلى عدم حدود الذات المقدّسة، إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو صحيحاً، لأنّه لو كان كذلك لقال (بعد كل غاية ومدة) أي أنّ ذاته موجودة بعد كل نهاية كما هي موجودة قبل كل بداية. أمّا من فسّرها كما أوردنا فهو العالم المعروف محمد عبدة في شرحه لنهج البلاغة حيث ربط هذه العبارة بعبارة (لا يخفى) وهذا ما عليه ظاهر عبارة العلّامة الجعفري.

٣. «تاثل» بمعنى عمران المسكن، ومن مادة اثل على وزن أمل، شجرة معروفة.

جسماً وأعضاءاً، وأنّ له مكان وينتقل من مكان إلى آخر فيحضر هنا ويغيب هناك، والحال أنّه لأرفع من الزمان والمكان والقياس والوهم؛ أرفع ممّا نرى ونقرأ ونكتب، فليس له جسم ولا مكان ولا صفة من صفات المخلوقات. والعبارة المذكورة إشارة إلى أربعة أنواع من الحدود يتنزه الله عنها جميعا: الحدود من حيث القامة كالصغر والكبر ومن حيث النهاية كمقدار العمر ومن حيث اختيار السكن وأخيراً من حيث المكان. فهو وجود مطلق لا متناهٍ غنيٌ عن أي من الحدود، ذلك لأنّ كل هذه الأمور من صفات المخلوقات. ومن هنا اختتم الخطبة بالقول: «فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ». فهذه العبارة هي عصارة الأبحاث السابقة في أنّ كل محدودية هي إنّما تعودالمخلوقات ومن شأن الممكنات، وليس لهذه الصفة من سبيل إلى ذاته المطلقة.

تأمل

الله حقيقة مطلقة

إنّ أول وأهم مطلب ينبغي إثباته في باب صفات الله ليتضح مفهوم التوحيد وكذلك سائر الصفات كالعلم والقدرة وماشابه ذلك يتمثل في كون ذاته مطلقة لا متناهية، وذلك لأنّه إن ثبت هذا المطلب فقد تمهد السبيل أمام إدراك جميع صفاته الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية). ولإثبات ذلك لابدّ من الألتفات إلى الأمور التالية:

١. إنّ محدودية الوجود تعني طروء العدم، ذلك لأنّه إن لم يرد العدم فلا معنى للحدود. فلو قلنا إنّ عمر فلان محدود، فذلك يعني أنّ عمره سينتهي يوما إلى العدم، وهكذا بشأن العلم والقدرة وماشابه ذلك.

٢. إنّ الوجود ضد العدم فإن اقتضى شيء بذاته الوجود فلا يمكنه اقتضاء العدم.

٣. ثبت في برهان العلة والمعلول أنّ سلسلة العلة والمعلول لهذا العالم يجب أن

تنتهي إلى نقطة ثابتة وأزلية يصطلح عليها (واجب الوجود) أي أنّ وجوده من ذاته لا من خارجها، وعليه فإنّ العلة الأُولى للعالم تقتضي الوجود بذاتها فهي لا تمتزج بالعدم. وعلى ضوء هذه المقدمات الثلاث يتضح أن طرأت حدود على الذات الواجبة الوجود فلابدّ أن تكون من خارجها، ذلك لأنّ المحدودية استناداً إلى المقدمات المذكورة بمعنى الامتزاج بالعدم، والشيء الذي تقتضي ذاته الوجود فإنّها لا تقتضي العدم اطلاقاً. وبناءً على هذا فإنّ اعترته محدودية فلابدّ أن يحده عامل خارجي ويلزم من ذلك أنّه ليس بواجب الوجود، لأنّه معلول لذات أخرىٰ ومخلوق آخر في حد وجوده. بعبارة أخرىٰ، ممّا لا شك فيه أنّ العالم ينتهي إلى واجب الوجود، فإن كان واجب الوجود غير محدود فليست هنالك من مشكلة، أمّا إن كان محدوداً فذلك ليس من مقتضيات ذاته، لأنّ ذاته تقتضي الوجود لا العدم، إذن لابدّ أن تطرأ عليه من الخارج. ومفهوم هذا الكلام أنّ هنالك علة خارج وجوده وهو معلول لتلك العلة وفي هذه الحالة سوف لن يكون واجب الوجود.

وقد تعرضت الرواية الواردة عن الإمام السجادعليه السلام إلى وجوده المطلق على ضوء البرهان المذكور، فقال: «إِنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ عَظُمَ رَبُّنَا عَنِ الصِّفَةِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ مَنْ لَا يُحَدُّ»[1]. وورد عن الإمام الرضاعليه السلام أنّه قال: «هُوَ أَجَلُّ مِنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهْمٌ أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ» قال السائل: حده لي؟ قال عليه السلام: «إِنَّهُ لَا يُحَدُّ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ عليه السلام: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَنَاهٍ إِلَىٰ حَدٍّ فَإِذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ إِحْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَإِذَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ إِحْتَمَلَ النُّقْصَانَ فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَزَايِدٍ وَلَا مُتَجَزِّىءٍ وَلَا مُتَوَهَّمٍ»[2].

٭٭٭

---

١. اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠ باب النهي عن الصفة.

٢. بحارالأنوار، ج ٣، ص ١٥ للوقوف على المزيد راجع نفحات القرآن، ج ٣، ص ١٤٩.

القسم الثاني

لَمْ يَخْلُقِ ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ٱمْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ٱنْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ ٱلْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ ٱلْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ ٱلْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي ٱلْأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَى.

الشرح والتفسير

العلم الإلهي المطلق

واصل الإمام عليه السلام ما طرحه سابقاً بشأن قدرة الله التامة وعلمه المطلق فقال: «لَمْ يَخْلُقِ ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ» فالعبارة إشارة إلى الابداع في الخلق، أي خلق الأشياء دون سابقة، فلم تكن هناك مواد أزلية استعان بها الله لخلق الأشياء، كما لم تكن هنالك إشكال وصور احتذاها في تصويره الأشياء، خلافاً لما اعتقده الفلاسفة من أزلية المادة، فلا أبدية وأزلية سوى للذات المقدّسة، وهذا ما بيّناه في برهان التوحيد من امتناع وجود الأبدي والأزلي في عالم الممكنات. والعجيب أنّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن هذه الحقيقة في عصر وبيئة لم ترق لهذه الأفكار ولم تشهد معرفة الله مثل هذا المنطق الرصين.

ثم أشار عليه السلام إلى قدرة الله المطلقة من زاوية أخرى فقال: «لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ٱمْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ٱنْتِفَاعٌ». بل الجميع مستسلم لإرادته التكوينية، فيوجد ما يشاء متى شاء ويعدم ما يشاء كيفما شاء، مع ذلك فاستسلام الموجودات وطاعة

المطيعين وعبادة العابدين لا تزيد في عظمته شيئاً، لأنّ وجوده مطلق ومصدر جميع الخيرات والبركات. هذا من حيث القدرة، أمّا بشأن العلم المطلق فقال: «عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ ٱلْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأَحْيَاءِ ٱلْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ ٱلْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي ٱلأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَى». فما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغة الرائعة العميقة المدى اقتباس من بعض الآيات القرآنية من قبيل: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1] ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[2] والاية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾[3]. وزبدة الكلام: تتعذر معرفة الله دون الوقوف على علمه المطلق وقدرته اللامتناهية وأزليته وأبديته الغنية عن الحدود.

تأمّل

دور الإيمان بعلم الله على العمل

الموضوع المهم هنا أنّ مثل هذا الايمان بعلم الله وقدرته وأزليته وأبديته لا يقتصر دوره على البعد الذهني والفكري فحسب، بل له تأثير عميق وشامل على أعمالنا وأفعالنا، لأننا حين نوقن بأنّه معنا أين ما كنّا وكان قبلنا وسيكون بعدنا ولا يخفى عليه ظاهرنا وباطننا بل حتى تفاصيل دوافعنا وجزئيات نيّاتنا، فإنّ هذا الإيمان سيربيّنا ويضطرنا إلى مراقبة أنفسنا وأعمالنا ويسوقنا إلى محاسبة أنفسنا، إلى جانب إبعادنا عن الشعور باليأس والإحباط ويبعث فينا روح الرجاء والأمن. وعلى هذا الأساس فإنّ إيماننا بالله على ضوء الصفات المذكورة لا يقتصر دوره

١. سورة يونس، الآية ٦١.
٢. سورة فاطر، الآية ٤٤.
٣. سورة الحجر، الآية ٢٤.

على يوم الجزاء فحسب، بل من شأنه إصلاح حياتنا الدنيوية والأخذ بأيـدينا إلى الورع والتقوى والشعور بالأمن والاستقرار، وعليه فما نراه اليوم من تهتك لحجاب التقوى من جانب وحالة الاضطراب من جانب آخـر إنّـما يُـعزى أحـد أسـبابها الرئيسية إلى الابتعاد عن العقائد الدينية الصحيحة.

ﷺ

القسم الثالث

أَيُّـهَا ٱلْـمَخْلُوقُ السَّـوِيُّ، وَٱلْـمُنْشَأُ ٱلْـمَرْعِيُّ، فِـي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ ٱلْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾، وَوُضِعْتَ ﴿فِـي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لَا تُـحِيرُ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً؛ ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَىٰ دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ ٱلْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَـيْهَاتَ، إِنَّ مَـنْ يَـعْجِزُ عَنْ صِـفَاتِ ذِي ٱلْـهَيْئَةِ وَٱلْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ ٱلْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!

الشرح والتفسير

الأرفع من الخيال والوهم

هذا المقطع الذي يمثل القسم الأخير من الخطبة هو جواب عن سؤال من الأسئلة التي تفرزها الأقسام السابقة، وهو تعذر معرفة الله بهذه الصفات من قبيل كونه الأول والآخر والظاهر والباطن والقريب من الأشياء والبعيد عنها والمطلق العلم واللامتناهي القدرة. صحيح، لدينا علم إجمالي بكل هذه الصفات ولكن ليس لدينا من سبيل إلى العلم التفصيلي الذي نعبّر عنه بالعلم بكنه الذات والصفات. يشير الإمام عليه السلام هنا إلى جانب من خلق الإنسان والأسرار المعقدة التي تكتنف فترة كونه جنيناً إلى جانب الأسرار العظيمة لولادته وما بعدها، ثم يخلص إلى نتيجة في أنّك إن عجزت عن التوصل إلى أسرار خلقتك كيف يسعك العلم بكنه صفات خالقك؟

فقال: «أَيُّهَا ٱلْمَخْلُوقُ ٱلسَّوِيُّ[١]، وَٱلْمُنْشَأُ ٱلْمَرْعِيُّ[٢]، فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ ٱلْأَسْتَارِ». نعم؛ مرحلة الجنين من أعجب مراحل الخلقة التي تنطوي على العديد من الأسرار. فنطفة الإنسان تطوي مراحلها التكاملية بصورة متتالية في وسط مغلق ومظلم ومحاط بالأستار بحيث يطأ كل يوم مرحلة جديدة في إطار خلقة موزونة ومنظمة، ورغم أنّها تجري في وسط رقيق وشفاف إلّا أنّها بعيدة كل البعد من المخاطر.

ثم خاض في شرح هذا المطلب فقال: «بُدِئْتَ ﴿مِنْ سُلَالَةٍ[٣] مِنْ طِينٍ﴾، وَوُضِعْتَ ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ[٤] * إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ». إشارة إلى أنّ عملية توقف الإنسان في الرحم خاضعة لحساب دقيق. من حيث كمية البدن وكيفيته من حيث المدة والزمان وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أحدهما بالعبارة «إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ» والأخرى بالعبارة «وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ».

ثم تطرق إلى المرحلة الأخرى التي تعقب الرحم فقال: «تَمُورُ[٥] فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لَا تُحِيرُ[٦] دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً». فهذه العبارة إشارة لطيفة إلى الحركة المتتابعة للجنين في بطن أمّه والتي تتمّ من خلال السباحة في ماء معين حوله. وأنّه ليتلقى بوازع من فطرته وبحكم طبيعته الأمر بالحركة، دون أن يسأل أو يجيب أحداً، ذلك لأنّه ليس له من سمع ولا لسان، لكن الله وفرّ له كل حاجاته مسبقاً حين كان في ذلك الوسط المظلم والمغلق.

---

١. «سوي» من مادة (تسوية) التنظيم والرعاية لتناسب أجزاء الشيء.

٢. «مرعي» على وزن منفي، بمعنى الشيء الذي يرعى ويحافظ عليه.

٣. «سلالة» من مادة (سل) على وزن حل، عصارة الشيء وخلاصته، ومنه معنى الإختيار أيضاً.

٤. «مكين» من مادة (مكانة) بمعنى المنزلة وبمعنى الشخص أو الشيء الذي له منزلة واستقرار وثبات وتحت تصرفه جميع وسائل العمل.

٥. «تمور» من مادة (مور) على وزن قول، بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنى الذهاب والإياب. وورد هذا التعبير بشأن الجنين بسبب كونه دائم الحركة داخل الرحم.

٦. «تحير» من مادة (حوْر) على وزن غوْر، بمعنى الذهاب والإياب، وكذلك وردت هذه المادة بمعنى الحوار في الكلام، فعليه (لا تحير) في العبارة المذكورة بمعنى أنّ الجنين لا يردّ على أي كلام ولا يقدر على بيان حاجاته.

ثم أشار ﷺ إلى مرحلة الولادة والرضاعة في احضان الأُم فقال: «ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَىٰ دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا». نعم، يرد من ذلك القرار المكين والمكان الآمن إلى الدنيا لا يعرف منها شيئاً. فلا يعرف الغذاء اللازم ولا الإرادة للحصول عليه ولا كيفية تناوله، لا يعرف وسائل النمو، ولا معوقاته، ولا يعرف أسلوب التعايش ولا التعامل مع الآخرين، فإن لم يأخذ اللطف الإلهي بيده وتشمله الهداية التكوينية لعجز قطعاً عن مواصلة الحياة، غير أنّ الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه يحفه بعنايته فيتجاوز الطرق الوعرة بحكم الغريزة التي أودعها الله إيّاه.

لذلك واصل الكلام ﷺ قائلاً: «فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ[1] ٱلْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!». حقاً من علم الوليد أنّ غذاءه في ثدي أمّه؟ عليك أن تضغط بأصابع يدك الصغيرة وتمتص ما في الثدي من اللبن بفمك الصغير؟! من علمه ذلك البكاء بالصوت الحزين ليعلن من خلاله عن حاجاته كافة؟! العطش والجوع والحر والبرد والمرض والحاجة إلى النوم؟! والغريب أنّ فراخ الطيور والدواب وسائر الحيوانات يندفع كل منها بطريق عجيب نحو حاجته.

ثم اختتم الخطبة بهذه النتيجة: «هَيْهَاتَ[2]، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ ٱلْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!». أجل، لا يمكن حقاً الوقوف على عجائب وغرائب عالم الخلق وسبر غور أسراره. فإن عجزنا عن إدراك بعض ما يتعلق بمخلوقات الله فأنّى لنا بالوقوف على كنه الذات والصفات الغنية عن الحدود من جميع الجهات. البنية المعقدة للأعصاب والقلب والعروق والخلايا والجينات ومختلف الغرائز التي أودعها الله أجسامنا لمن المسائل التي شغلت أذهان العلماء لقرون وما زالوا يعترفون بكثرة المجاهيل التي

١. «اجترار» من مادة (جر) بمعنى الجر الشيء وسحبه.

٢. «هيهات» اسم فعل يفيد البعد.

تعتري خلقة الإنسان حتى آلّف ذلك العالم الفرنسي المعروف، كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

تأمّل

الدورة الجينية المذهلة

ما ورد في هذا الجانب من الخطبة بشأن الأسرار الغريبة لخلق الإنسان في الدورة الجينية ومن ثم الولادة والرضاع ينسجم تماماً والعديد من الآيات القرآنية التي أكدت على التفكير في هذه الأسرار، ومنها سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾[1] وسورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]. وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المرحلة في توحيد المفضل كآية من آيات الله في التوحيد والقدرة، وأوصى المفضل وقال: «نبتدىء يا مفضّل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلم البطن، وظلم الرحم، وظلم المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلال منفعة ولا دفع مضرّة، فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذوا الماء النبات فلا يزال ذلك غذاؤه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بأمّه فأزعجه أشدّ إزعاج، وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثدييها فانقلب الطعم واللّون إلى ضرب آخر من الغذاء...»[3].

---

١. سورة الزمر، الآية ٦.

٢. سورة المؤمنون، الآيات ١٢ ـ ١٤.

٣. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح تكامل المولود في مختلف المراحل وهو يعرض لعجائب الخلقة الواحدة تلو الأخرى[١]. (طبعاً لا يسع البحث الاستغراق في القضايا المذهلة التي تم اكتشافها في عصرنا الراهن بشأن تكامل النطفة من خلال مرورها بتلك المراحل، وكل الذي يسعنا قوله إنّ مثل هذا البحث ينطوي على آلاف الأسرار والعجائب: ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾. ومن الضروري أن نشير هنا إلى سر من تلك الأسرار وهو أنّ الجنين طيلة هذه المدّة يسبح في كيس صغير مملوء بماء غليظ، ولا يتأثر هذا الكيس بالضربات حتى وإن سقطت المرأة على الأرض أو قامت بحركات سريعة وعنيفة، فليس هنالك أدنى أذى على الجنين. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّه يمتاز بتعديله للحرارة والبرودة بالشكل الذي يحول دون تأثيرهما على الجميع. أضف إلى ذلك فإنّ سباحة الجنين في ذلك السائل يبعد الضغط عن أعضائه الرقيقة، وأخيراً يحفظ هذا الكيس الجنين من الأمواج الصوتية العالية ويحافظ على نعومة الجلد، كما يلعب دوراً مهمّاً في التغذية: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

---

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢.

١٦٤

ومن خطبة له عليه السلام

لَمّا اجْتَمَعَ النّاسُ إِلَيْهِ وَشَكوا مَا نَقِمُوهُ على عُثْمَانَ وَسَأَلُوهُ مُخَاطَبَتَهُ لَهُمْ وَاسْتِعْتَابَهُ لَهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ:[١]

نظرة إلى الخطبة

المراد الأصلي من هذه الخطبة كماذكرنا سابقاً أنّها تعرض بالنصح لعثمان وتحذيره بمنتهى الأدب والحرص للحيلولة دون تجاوز أجهزة حكومته للحدود، وهي تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خطاب لشخص عثمان، خطاب الناصح المشفق الذي يرى مقابله على شفا حفرة خطيرة، وقد ركز الإمام عليه السلام على علم عثمان بالأحكام الإسلامية وسوابقه مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليصده عن الزلل والأنحراف.

أمّا القسم الثاني: فيعرض فيه الإمام عليه السلام بحثاً جامعاً وكلياً بشأن أئمة العدل

---

١. سند الخطبة:
كما ورد سابقاً حين إزداد حجم المخالفات في أجهزة حكومة عثمان وظهرت للقاصي والداني، اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه أن يكون سفيرهم إلى عثمان فيعظه وينصحه، وقد نقل هذا الكلام قبل السيد الرضي، البلاذري في (أنساب الأشراف) والطبري المؤرّخ المعروف (في حوادث سنة ٣٤ هجرية)، وابن عبد ربّه في (العقد الفريد) والمرحوم الشيخ المفيد في (الجمل). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٨٧).

والظلم وخصائص كل منهما، وبما يجعل كل إمام منهما أسوة للآخرين في سيرته وفي كل زمان ومكان، ومن ثم حذر عثمان من أن يصبح ألعوبة بيد بطانته كمروان وأمثاله.

والقسم الثالث: نقل جواباً عن عثمان وما أن سمع الإمام عليه السلام ذلك الجواب حتى عرض عليه كيفية الخروج من المأزق، والمؤسف أنّ هذه النصائح لم تجد أذاناً صاغية من عثمان فوقعت تلك الحوادث المنيفة والمريرة.

القسم الأول

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى أَبِي رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاَ. فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ ـ وَاللهِ ـ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلاَمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ.

الشرح والتفسير

إتمام الحجة على عثمان

ينبغي لاتضاح مضمون هذه الخطبة الإشارة إلى الأحداث والأوضاع التي أدّت إلى هذا الحوار بين الإمام عليه السلام وعثمان. حيث ذكر المؤرخ المعروف الطبري أنّ الناس حين رأوا أعمال عثمان ـ من قبيل سلب ونهب بيت المال وتسليط الظلمة والفسقة على المناصب الحساسة في الحكومة الأسلامية ـ كتب عدد من صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كتبهم إلى أمراء الجيش على الثغور ودعوهم إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دين محمد صلى الله عليه وآله والقدوم إلى هنا وإنقاذ من يقوم بهدم هذا الدين. وتقاطر الجنود من كل مكان على المدينة ـ سيما أولئك الذين أتوا من مصر والذين عاشوا

ظلم الولاة وعمال الخليفة ـ حتى قتلوا عثمان[١]. آنذاك تعالت الأصوات التي ضجت من ظلم عثمان، فقدم جماعة من الناس إلى الإمام عليه السلام وسألوه وضع حد لتلك الأوضاع بطريقة سلمية، فيكون عليه السلام سفيرهم إلى عثمان ويتم الحجة عليه. فأورد الإمام عليه السلام ذلك الكلام بما يجعله وبطانته يكفون عن الظلم. وكلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة يتضمن براعة البلاغة والفصاحة والقضايا النفسية الدقيقة أملاً في عودة الطرف المقابل إلى رشده ولعلّه يلتفت إلى الأخطار المحدقة بالإسلام والعالم الإسلامي. وقد تحدث الإمام عليه السلام باديء الأمر عن علم عثمان ومعرفته بالأحكام الإسلامية بشأن رعاية حقوق الناس والابتعاد عن الظلم والجور فقال: «إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي[٢] بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ». من الواضح أنّ عبارات الإمام عليه السلام لا تعني أنّ عثمان بمصاف الإمام علي عليه السلام في العلم والمعرفة، بل مراده أنّ عثمان كان يعلم بالأحداث التي وقعت وسوء الظلم والجور وضرورة رعاية حقوق الناس، وهي الأمور العادية التي يتساوى فيها عثمان مع عامة الناس الذين كانوا يعرفون تلك الأمور، بل حتى الأطفال ـ فضلاً عن العقلاء والكبار ـ كانوا يعلمون صحيحها من سقيمها كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد[٣]. وبناءً على هذا فإنّه يخطئ كل من يتصور بأنّ العبارات المذكورة دليلاً على أنّ عثمان بمنزلة الإمام علي عليه السلام في العلم والمعرفة. فعلي عليه السلام كما قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله باب علم مدينة النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام حسب الروايات الإسلامية من عنده علم الكتاب وهو الملاذ العلمي للأمة في حل جميع مشاكلها حتى صرح بعض الخلفاء «اَللّٰهُمَّ لَا تُبْقِنِي لِمُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا ابْنُ

---

١. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٠٠ و ٤٠١، في بيان حوادث سنة ٣٥.

٢. «استسفروني» من مادة (سفارة) والسفير، يقال لشخص يقوم بالوساطة بين شخصين أو بلدين.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٦٢.

أَبِي طَالِبٍ»[١].

ثم واصل كلامه مشيراً إلى سوابق عثمان في الإسلام فقال: «وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اَللهِ ـ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَمَا صَحِبْنَا». إشارة إلى أنّك كنت مع رسول الله ﷺ لسنوات عديدة وقد سمعت منه تعاليم الإسلام وأحكامه الشرعية، وعليه فكيف تخفي عليك هذه المسائل الواضحة بشأن حق الناس وبيت المال والعدالة الاجتماعية. آنذاك طرق السبيل الثالث بغية التأثير على أفكار عثمان فقارنه بأبي بكر وعمر، ذلك لأنّهما لم يرتكبا ما ارتكبه عثمان قط، وإن كانت لهم زالتهم الأخرىٰ فقال: «وَمَا اَبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا اَبْنُ اَلْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ اَلْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَبِي[٢] رَسُولِ اَللهِ ـ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا». بالنظر إلى أنّ الوشيجة بمعنى جذور الشجرة أو الألياف التي تصنع من النخيل وثم أطلقت على اشتباك القرابة، فإنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكره بقرابته من النبي ﷺ حيث يقرب للنبي ﷺ من جده عبد مناف. فقد اعتمد الإمام عليه السلام مختلف الطرق بغية التأثير عليه وإعداده لقبول الحق والكفّ عن ممارسة الباطل. إلّا أنّ المؤسف أنّ الخليفة الثالث لم يعد يسمع قول الحق وقد انغمس في الفساد الذي دب في كافّة مرافق الحكومة. على كل حال عاد الإمام عليه السلام ليؤكد على الخليفة ضرورة الانصياع إلى الحق والشفقة على نفسه فقال: «فَاللهَ اَللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ ـ وَاَللهِ ـ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ اَلطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ اَلدِّينِ لَقَائِمَةٌ». فالإمام عليه السلام لم يتخلّ عن أي أسلوب من شأنه التأثير على الخليفة، فأحياناً يحدثه بحسن وقبح مثل هذه الأمور، وأخرىٰ يقول له

١. الغدير، ج ٦، ص ٢٦٢.

٢. الغريب أنّ كلمة «أبي» التي وردت في نسخة صبحي الصالح لم ترد في أي من سائر النسخ. فلم ينقلها هنا المرحوم الشارح البحراني والخوئي والعلّامة الجعفري ومحمد عبده وابن أبي الحديد وسفينة والتستري وصاحب مصادر نهج البلاغة، ويبدو أنّها من زلات صبحي الصالح، سيما بالنظر إلى أنّ مثل هذه التعبيرات لم ترد في كلمات علي عليه السلام بالنسبة للنبي الأكرم ﷺ.

إنك سمعت من النبي ﷺ ما ينبغي سماعه، وتارة يقول له على الأقل سر بسيرة من سبقك من الخلفاء فهما ليسا أولى منك بالعمل بالحق. وأخيراً يبيّن له أنّ طريق الحق واضح فلماذا تعرض نفسك لكل هذه الأخطار وتسلك السبيل غير القويم، لكن لم يستجب عثمان حتى حدث ما لا ينبغي أن يحدث بعد أن ولّى ظهره لكل تلك المواعظ والإرشادات القيّمة.

تأمل

سبُل نفوذ الكلام في الآخرين

إذا قام شخص ببعض المخالفات وكان يبدو مدركاً لبعض الأعمال الخطيرة وأراد عاقل أن يوقظه من نوم الغفلة، فإنّ أفضل أسلوب يمكن اعتماده بادىء الأمر أن يستقطب قلبه ويذكره بإيجابياته، فيقول مثلاً: إنّك من أسرة عريقة ولديك تحصيلات علمية قيمة وسمعتك حسنة بين الناس لعله يشعر بشخصيته ويثق بالمقابل فيتقبل منه. ومن ثم مقارنته بأمثاله وأقرانه بهدف إعادته إلى الصواب والابتعاد عن الخطر.

الإمام عليه السلام بصفته سيد الفصحاء والبلغاء والعالم بالقضايا التربوية والنفسية، فقد ذكّر عثمان بكل هذه الأمور، فقال له إنّك لصهر رسول الله ﷺ[1] وأقرب إليه من الخليفة الأول والثاني ولك سابقة في الإسلام وقد لازمت النبي ﷺ وليس هنالك من شيء غائب عنك لأذكرك به، فهنالك ظلم وجور وتطاول على بيت مال المسلمين وهضم لحقوق الناس. إلّا أنّ الخليفة الثالث قد انغمس في شباك بطانته ـ تلك البطانة التي يمثل اغلبها حثالات الجاهلية ـ ولم يعد يتحمل نصح ذلك الناصح الأمين وينقذ نفسه من تلك الورطة. ويتضح ممّا مر معنا أن ليس هنالك من فضيلة لعثمان تضمنتها عبارات هذه الخطبة.

---

١. كان عثمان زوج رقية بعد أم كلثوم بنتي النبي ﷺ.

القسم الثاني

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا». وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هذِهِ الأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هذِهِ الأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً.

فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عليه السلام:

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير

خصائص الحاكم العادل والظالم

تضمن المقطع الأول من هذه الخطبة، خطاب الإمام عليه السلام بصورة خاصة لعثمان

وبذل له النصح والإرشاد لإنقاذه من خطورة الموقف الذي كان فيه وليطفىء عنه غضب الأُمّة، والأهم من كل ذلك رضى الله تبارك وتعالى. أمّا هنا فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى الضوابط الكلية والعامة للحاكم العادل ومن ثم صفات الحاكم الظالم ليتبيّن الخليفة من ذلك، الطريق الصحيح فيسلكه فقال عليه السلام: «فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ». فقد ركز الإمام عليه السلام بادىء الأمر على هذا الموضوع المهم في أنّ أفضل عباد الله هو الإمام العادل، كيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً قِيَامَ لَيْلِهَا وَصِيَامِ نَهَارِهَا»[1] ثم تطرق إلى خصائص الإمام العادل، ومنها أن تلمس الهدى عن طريق القرآن والوحي والعقل السليم ثم هدى الناس إلى الصراط المستقيم، ذلك لأنّ البرامج الثقافية البناءة من وظائف الحاكم العادل لأنّها تتمثل في إقامة السنن المعلومة وإماتة البدع المجهولة؛ لأنّه لابدّ للحاكم العادل من رؤية دقيقة بحيث لا تطمس السنن الحسنة وتنسى وتسود المجتمع خصال الخير والفضيلة والتقوى والعلم والمعرفة والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب عدم السماح لظهور البدع السيئة والخرافات والاختلافات والنزاعات وكل ما جهد الأنبياء من أجل تنقية الأُمّة من شوائبه. خاصة أنّ الإمام عليه السلام صرّح بأنّ للسنن والبدع علامات. فعلامات السنن الأمن والاستقرار وتطور البلاد ومسارعة الأفراد إلى المعنويات، على العكس من علامات البدع المتمثلة بالاضطراب والإرباك والركود والتخلف والخرافات. وبالطبع فإنّ مميزات الحاكم الظالم (الإمام الجائر) بالضبط على العكس من سابقتها في الحاكم العادل، فهو ضال مضل لغيره، يطمس سنن الله ويحيي البدع، وللأسف كلنا نعلم أنّ الخليفة الثالث كان مصداقاً للإمام الجائر بتسليطه لبطانته على رقاب المسلمين ونهبهم لبيت المال.

---

١. ميزان الحكمة، ج ٦، ح ١١٩٧٣.

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً». فمن البديهي أنّ دعائم العدالة وركائزها في المجتمع إنّما تستحكم في ظل إحياء السنن الإلهية التي تضمن خير البشرية وسعادتها، وتهجر البدع التي تسوق الناس إلى الفساد والظلم. والحاكم الذي يقوم بهذه الأعمال إنّما يفصح عن ظلمه وفساده، بالتالي فهو شر الناس، ذلك لأنّه يسوق المجتمع إلى البؤس والشقاء، بغض النظر عن ظلمه لنفسه وسوقها للشقاء الأبدي.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مستشهداً بحديث خطير عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ـ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ يَقُولُ: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ ٱلْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ ٱلرَّحَىٰ، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا»»[1]. فقوله عليه السلام: «وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ» إشارة إلى أنّه كان له في الدنيا فئة من الناس يقفون إلى جانبه في الشدائد والمشاكل التي تعرض عليه ويجدون له المبررات في ممارسة الظلم والجور، ومن جانبه كان يغدق عليهم الإمتيازات بغية الإحتفاظ بهم. أمّا في ذلك اليوم فهو وحيد فريد في محكمة العدل الإلهي وليس له سوى النار جزاء لأعماله الشنعاء. ولعل العبارة «فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ ٱلرَّحَىٰ» إشارة إلى أنّ دورانه في نار جهنم يوجب مزيداً من الألم والأحراق أولاً ويجلب انتباه الآخرين ثانياً فتبدوفضيحته علانية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة تتعلق بمصير عثمان تحذره من مغبة سوء فعاله فقال: «وَإِنِّي أَنْشُدُكَ[2] ٱللهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا ٱلْقَتْلَ وَٱلْقِتَالَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ». فالإمام عليه السلام وإن لم يشر إلى من قال هذا الكلام، لكن من الواضح أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وقع عين ما أخبر به حيث كان الظلم سبب قتل عثمان وأثر ذلك ـ وبحجة دم عثمان ـ حصل كل ذلك

---

١. روى الطبري هذه الخطبة مع الحديث في (تاريخه)، ج ٣، ص ٣٧٦ حوادث سنة ٣٤.

٢. «أنشد» بصورة ثلاثي مجرّد على وزن أقتل من مادة (نشد)، على وزن قتل، بمعنى التذكير والطلب وإنشاد ضالة، بمعنى كسب الإطلاع من الناس بشأن الضالة.

القتال وسفك الدماء ومازلنا نشهد حتى العصر الراهن بعض التبعات والاختلافات التي تحدث بين المسلمين. والشاهد على ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ والذي ورد في سنن أبي داود أنّه قال: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ وَإِذَا وُضِعَ السَّيفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»[١].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ورد عن رسول الله ﷺ فقال: «وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ ٱلْفِتَنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ ٱلْحَقَّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ[٢] فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ[٣] فِيهَا مَرْجاً». وتشير العبارة «وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا» إلى أنّ الساسة المحترفين يحاولون تضليل الرأي العام فهم ينطلقون في الظاهر على أساس المطالبة بدم الخليفة المقتول، لكنهم يزيّفون الحقائق باطناً بهدف الوصول إلى الخلافة، فهم يصورون الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً[٤]. والعبارة «وَيَبُثُّ ٱلْفِتَنَ فِيهَا» وهي إشارة إلى اتساع الفتن في صفوف الأُمّة نتيجة ذلك، والعبارات القادمة بمثابة نتيجة، فمن جانب يصعب تمييز الحق من الباطل ومن جانب آخر فإنّ الناس سيعومون في بحر من الفتن. والفارق بين يموجون ويمرجون أنّ الأُولىٰ إشارة إلى اقتتال الأُمّة في تلك الفتن. والثانية إشارة إلى اختلاط الحق والباطل في المجتمع بحيث يصعب تمييز الحق من الباطل. جدير بالذكر أنّ كل ما تنبّأ به النبي الأكرم ﷺ في الرواية وأخبر به أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام وقع دون أدنى زيادة أو نقصان. فقد ألب عثمان وبطانته الأُمّة عليهم لظلمهم حتى قتل عثمان واندفعت عقب ذلك فئة من بني أمية لتستغل الأحداث السياسية لصالحها وارتفعت حدة الخلافات بين

---

١. سنن أبي داود، ج ٤، ح ٤٢٥٢.

٢. «يموجون» من مادة (موج) بمعنى الحركة، كما تستعمل بمعنى الاضطراب والحيرة والكناية.

٣. «يمرجون» من مادة (ورج) على وزن فلج، بمعنى الاختلاط أو البعث والترك، ولما كان الاختلاط وترك الشيء يؤدّي إلى الفساد، فإنّ هذه المفردة تستعمل بمعنى الفساد.

٤. يفهم من بعض كلمات شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارة جزء من حديث النبي ﷺ لكن بالنظر إلى أنّ الحديث المذكور ورد في بعض المصادر المعروفة (كسنن أبي داود) دون ذيلها، فالذي يستفاد أنّ حديث النبي ﷺ ينتهي بالعبارة (إلى يوم القيامة).

الناس حتى تعذر تمييز الحق من الباطل وسفكت تلك الدماء الغزيرة، ثم امتدت تلك الاضطرابات لقرون. راجع المزيد بشأن عوامل القيام ضد عثمان الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب[١].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أهم عنصر يقف وراء انحراف عثمان ـ والذي جرّ عليه كل تلك الويلات ـ والمقصود من طاعته العمياء لمروان، فقال عليه السلام: «فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً[٢] يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ[٣] السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ».

ورد في التاريخ أنّ عمر عثمان كان آنذاك ٨٢ سنة[٤]. لا شك أنّه كان لمروان الدور الأساسي في حكومة عثمان بحيث كان سير الأمور حسب رغباته، وحتى حين استمع عثمان لنصائح الإمام عليه السلام وعزم على الاعتذار من الأُمّة، اعترضه مروان بشدّة وحال دون إصلاحه لأخطائه، والواقع أنّه صب الزيت على فتيل النار التي أوقدها الناس حتى طالت حياة عثمان، وربّما كان ذلك يستند إلى خطة تمكنه أو تمكن معاوية من استلام زمام الأمور بعد عثمان.

فلما بلغ الإمام عليه السلام هذا الموضع من كلامه استجاب له عثمان وتأثر شديداً: «فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ. فَقَالَ عليه السلام: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ». إشارة إلى أنّ المهلة في هذه الحالات الحادة قد تقود إلى ثورة عارمة فلا معنى لهذه المهلة، إضافة إلى أنّ المهلة إنّما تهدف إلى إعداد المقدمات، وإعادة حقوق الناس لا تحتاج إلى أي مقدمات، فما كان في المدينة لابدّ من إصدار الأوامر بشأنه فوراً

---

١. نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٤٤ علل القيام ضد عثمان، ج ٢، ص ١٥٢ عوامل قتل عثمان وكذلك الجزء الثاني بعنوان الأعمال التي مارسها عثمان ودعت إلى الغضب العارم.

٢. «سيقة» على وزن (سيدة) صفة مشبهة من مادة سوق، على وزن فوق، بمعنى ما يساق من الدواب إلى هذا الجانب أو ذاك، وتعني أحياناً ما يستاقه العدو من الحيوانات.

٣. «جلال» بمعنى الكبر، وجلال السن، بمعنى السن الرفيعة.

٤. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٤١ وهنالك أقوال أخرى في سن عثمان آنذاك وأغلبها ترى أنّ عمره كان ٨٢ سنة.

فيؤخذ من الظلمة ويسلم إلىٰ المظلومين، وما كان في المناطق البعيدة فلابدّ من الإسراع في انتزاعه. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذه النقطة في أنّ الساسة حين يواجهون أزمة إنّما يلجأون إلى التسويف بغية الهروب من المسؤولية ويطلبون من الطرف المقابل مهلة زمنية على أمل امتصاص نقمة الغضب وتوجيه ضربة مهلكة إلى الطرف الآخر، فما كان من الإمامعليه‌السلام إلّا أنّ سد عليه الأبواب كافة واختلاق الذرائع. صرّحت كتب التاريخ بأنّ عثمان استجاب للإمامعليه‌السلام لكنه استمهل الإمامعليه‌السلام ثلاثة أيّام بالنسبة للمدينة. فوافقه الإمامعليه‌السلام وخرج من عند عثمان وأخبر الناس وكتب العهد على عثمان ومهلة الثلاثة أيّام لإعادة الحقوق المهضومة وعزل الولاة الظلمة الذين نقم منهم الناس. وقد أشهد على العهد طائفة من المهاجرين والأنصار، فانسحب الناس على أمل وفاء عثمان بالعهد بينما أراد عثمان خلال الأيّام الثلاثة جمع العدّة والعدد وتجهيز الجيش، فلما مضت المهلة شعر الناس بعدم الوفاء بالعهد فثاروا على عثمان، حتى انتهى الأمر إلىٰ قتل عثمان، جدير بالذكر أنّ كل ما ذكرناه أورده الطبري في تاريخه[1].

أضواء على حادثة قتل عثمان

أشرنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى الأحداث التي رافقت مقتل عثمان، ونود هنا أن نشير إلى بعض الأمور، ومنها:

١. لا شك في أنّ قتل عثمان حادثة مفجعة، ذلك لأنّها انعكست سلباً على المسلمين، وكما ورد في الرواية الواردة عن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله فإنّ قتل عثمان أدّىٰ إلى تصاعد الخلافات بين المسلمين وسفك المزيد من الدماء، رغم أنّ المقصر الأصلي في هذه الحادثة شخص عثمان وبطانته وقرابته الذين أخرجوا الحكومة من إطارها المتعارف وأشاعوا في المجتمع معاني الظلم والجور إلى جانب الفساد والانحراف.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٠٤ حوادث سنة ٣٥ هجري.

٢. جدير ذكره أنّ هذه الحادثة وقعت في المدينة أمام الصحابة من المهاجرين والأنصار ولم يهبّوا للدفاع عن عثمان، وكأنّهم راضون عن حركة الناس ضد عثمان، بل حسبما ورد في تاريخ الطبري أنّ جماعة من الصحابة كتبوا لبعضهم إنّ الجهاد حقاً في المدينة لا في الروم (لأنّ الحكومة الإسلامية اندفعت نحو الفساد وإصلاحها مقدم على كل شيء). أمّا الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانب عثمان وحال دونه فهو أمير المؤمنينعليه السلام والذي أمر ولديه بالدفاع عنه، لأنّه كان يعلم بالآثار السلبية التي تترتب على قتل عثمان وإن كانت حركة الأُمّة عنيفة ولم تنجح تدابير الإمامعليه السلام في الحيلولة دون وقوعها.

٣. تقدم الإمامعليه السلام في الخطبة المذكورة وقبل تصاعد حدة الاعتراض بإسداء النصح والإرشاد المشفق لعثمان وحذره بشدّة بضرورة الكفّ عن مواصلة ذلك الأسلوب وتلافي ما فرط منه، ووعد هو من جانبه بالعمل بذلك، لكنه إمّا أن يكون رفض أو منعته حاشيته من الإستجابة. والذي يستفاد من بعض المصادر التاريخية أنّه لم يكن مستعداً بفعل تعصبه الشديد لقرابته أن يعترف صراحة بما فرط منه. حيث قال بعد نصح الإمام: لم أرتكب خلافاً. فقد وصلت رحمي (فالأموال التي أنفقتها على قرابتي من باب صلة الرحم) وأغنيت الفقراء وآويت المحتاجين واستعملت مثل من استعمل عمر وولاه. فرد الإمامعليه السلام إنّ عمر كان يعاقب بشدّة من يرتكب الخلاف ممّن ولاه من عمّاله. لكنك ضعيف. أمّا قرابتك وولاتك فلا تكترث لما يرتكبون من أخطاء[1].

والعجيب أنّ عثمان صعد المنبر بعد هذه الأحداث ليحدث الناس بأنّ لكل شيء آفة وآفة هذه الأُمّة أهل الغيبة الذين يتكلّمون بما لا يعلمون والأُمّة تلهث خلفهم، وإنّكم لتعيبون عليَّ بعض الأمور التي كنتم ترضونها لعمر، لغلظته عليكم، على العكس من مداراتي لكم وإن شئت لأشرت على رجالي، فلا تفعلوا ما يدعوني إلى

١. تاريخ الطبري حسب نقل ابن أبي الحديد، ج ٨ ص ٢٦٤.

النقمة عليكم، فاسكتوا ولا تطعنوا في ولايتي. وهنا انبرى مروان ليصرخ: أيّها الناس إن شئتم جعلنا السيف حكماً بيننا وبينكم. فغضب عثمان وأسكته وقال له دعني أُكلم أصحابي، ألم أُوصيك بعدم الكلام؟ فصمت مروان ونزل عثمان من المنبر[1].

وهذه العبارات تفيد أنّ عثمان إمّا كان جاهلاً بالأوضاع! أو أنّه كان يثق بقرابته وبطانته بحيث كان يرى ظلمهم وجورهم عين العدالة والقسط! فكان أسيراً بيدهم بحيث لم يستطع تغيير مسار الأحداث[2].

ﮘﮗ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٩، ص ٢٦٥.

٢. راجع بشأن قتل عثمان وأسباب القيام عليه وأعماله التي جعلت العامة تنقم عليه الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب في الصفحات التي ذكرتها سابقاً.

١٦٥

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَذْكُرُ فِيها عَجِيبَ خِلْقَةِ الطَّاوُوسِ[1]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى العجائب والغرائب التي تكتنف المخلوقات ولا سيما الطيور ليستدل عن هذا الطريق على وجود الله والإيمان به. ويركز في القسم الثاني على خلق الطاووس من بين الطيور وأسرار خلقته ليشير إلى تفاصيل لطيفة ودقيقة عن هذا المخلوق، كما يرد على بعض الخرافات والأوهام الواردة بشأنه.

ويختتم هذا الكلام بالإشارة إلى نقطة وتتمثل بعجز العقول عن وصف مخلوقات

---

١. سند الخطبة:

روى الزمخشري من أعلام القرن السادس بعض هذه الخطبة في كتابه «ربيع الأبرار» حيث نقل أغلب كلمات الإمام عليه السلام باختلاف بحيث يفهم أنّه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ورغم أنّه عاش بعد الشريف الرضي لكن من المستبعد أن يستند إلى كتب الشيعة لموقفه المعادي لهم، وفسر ابن اثير بعض مفردات هذه الخطبة في كتابه (النهاية)، ويفهم من عباراته أنّه اقتبسها من مصدر آخر، ذلك لأنّه ذكر كلمات لم ترد في الخطبة التي رواها السيد الرضي (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٠).

الله فأنّى لها بوصف الخالق العظيم ؟ كما تطرق في القسم الثالث إلى عجائب خلق الديدان الصغيرة وكشف عن عجائب خلق النمل ليستدل من خلال ذلك على توحيد الله تعالى. أمّا القسم الرابع والأخير فقد خاض في جانب من أوصاف الجنّة بما يجعل السامع يعيش لهفة الشوق إليها، وعلى هذا الأساس يربط بين المبدأ والمعاد ليعرض صورة واضحة متكاملة في بحث العقائد.

ﮧﮨ

القسم الأول

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

الشرح والتفسير

خلق الطيور

إنّ معرفة الله من أهم أُصولنا العقائدية والتي يستند جانب كبير منها إلى القرآن الكريم، وهذا هو الهدف من الخطبة. وممّا لا شك فيه أنّ أعمال الإنسان وسلوكه إنّما يتوقف على تلك المعرفة ومدى رسوخ دعائمها. فقد بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عجائب الخلقة التي تعكس وجود الله وعلمه المطلق وقدرته التامة، سيما أنّ الإمام عليه السلام يصطحبنا إلى عالم الطيور ويكشف لنا النقاب عن أسرار تلك الخلقة. ومن

ثم يتطرق إلى الطاووس ليكشف عجيب صنعه بما يحير العقول ويسوق الإنسان إلى حمد الله والثناء عليه وتسبيحه وتقديسه، فقال: «ٱبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ». المراد من الموات، الجوامد كالأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر، وبعضها ساكنة والأخرى متحركة (وإن كان هنالك رأي بحركتها جميعاً). والمراد من الابداع، الخلق من غير مثال مسبق، وهذا موضوع في غاية الأهميّة، ذلك لأنّ جميع ما سوى الله إنّما يحتذي الأمثلة المسبقة في تصويره وصنعه وابداعه. ثم خاض في شرح هذا الكلام فقال: «وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ ٱلْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا ٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ[1] فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ». حقاً أنّ الإنسان لو تعرّف على العلوم الطبيعية وخاض في دراسة عجائب خلقة موجودات العالم لانطلق نحو الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى جانب خاص من غرائب وعجائب العالم ـ المليءِ بالأسرار واللطائف ـ ليتحدث عن عالم الطيور ويشرح أسرارها، فقال: «وَمَا ذَرَأَ[2] مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ ٱلْأَطْيَارِ ٱلَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ[3] ٱلْأَرْضِ، وَخُرُوقَ[4] فِجَاجِهَا[5] وَرَوَاسِيَ[6] أَعْلَامِهَا[7]»[8].

---

١. «نعقت» من مادة (نعق) على وزن برق، تعني في الأصل صوت الغراب، ثم أطلقت على الأصوات التي تقال لأمر الحيوانات ونهيها عن الحركة.

٢. «ذرأ» من مادة (ذرأ) على وزن زرع، الخلق والإيجاد.

٣. «أخاديد» جمع (أخدود) الشق الواسع والعميق في الأرض ويطلق على الوادي.

٤. «خروق» جمع (خرق) على وزن زرع، الصحراء الواسعة، كما تعني الشقوق.

٥. «فجاجها» جمع (فج) على وزن حج، الطريق الواسع، وتعني في الأصل الوديان الواسعة بين الجبال والتي كانت تجتازها القوافل.

٦. «رواسي» جمع (راسية) تعني الثابت والراسخ، ولذلك تطلق على الجبل.

٧. «أعلام» جمع (علم) على وزن قلم، بمعنى العلامة وتطلق على القمم والجبال.

٨. احتمل البعض بشأن إعراب ما ذرأ أنّها عطف على (ما انقادت)، كما قالوا إنّها معطوفة على الضمير في دلائله أو كلمة دلائله، ولا يبدو هذا الاحتمال مستبعداً أنها مبتدأ لخبر محذوف وتقدير الجملة وما ذرأ... من آثار صنعه وعظمته.

هذا أول تنوع لخلق الطيور من حيث موضع سكنها، فبعضها كالبوم تـلجأ إلى شقوق الأرض وتخرج عند الظلام، كما يسكن البعض في الوديان كالفاختة والبعض الآخر في سفوح الجبال كالنسر والعقاب، وقد أمدّ الله تعالى كلّا منها بما يتطلبه في حياته. طبعاً ماذكره الإمام عليه السلام في العبارات المـذكورة يـقتصر عـلى نـماذج مـن الحيوانات البحرية والأهلية الأليفة من قـبيل الطـيور التـي تـعيش فـي الغـابات والأعشاش والصحارى ولكل عجائبه وغرائبه التي تحير عقل الأنسان. فما ذكره الإمام عليه السلام تصنيف للطيور على أساس سكنها.

ثم أشار إلى تصنيف آخر ـ على أساس نوع الطيران والأجنحة - فقال: «مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ[1] فِـي زِمَـامِ التَّسْـخِيرِ، وَمُـرَفْرِفَةٍ[2] بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ[3] الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ[4]، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ». وهو ما أشير إليه فـي القرآن بعدة آيات مثل: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»[5].

ثم خاض الإمام عليه السلام في تصنيف ثالث ورابع للطيور فمنها ما لها أشكال مختلفة وطيور ثقيلة الوزن تعجز عن الطيران وأخرى خفيفة تحلق إلى عنان السماء فقال: «كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِـي حِـقَاقِ[6] مَـفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ[7] خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْـهَوَاءِ خُـفُوفاً[8]، وَجَـعَلَهُ يَـدِفُّ

---

١. «مصرفة» من مادة (صرف) على وزن حرف، بمعنى التغيير وتأتي معرفة بمعنى الأشكال المختلفة.

٢. «مرفرفة» من مادة (رفرفة) بمعنى الجناح، وبسطه، كما وردت بمعنى القماش الجميل والملون، والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

٣. «مخارق» جمع (مخرق) على وزن مشرب، الفلاة والصحراء الشاسعة.

٤. «منفسح» من مادة (فسح) على وزن مسح، بمعنى الوسيع.

٥. سورة النحل، الآية ٧٩.

٦. «حقاق» جمع (حق) على وزن، حب، مجتمع المفصلين.

٧. «عبالة» بمعنى الثقل والضخامة.

٨. «خفوف» السرعة والخفة التي تكون غالباً لازماً وملزوماً.

دَفِيفاً[١]». نعم؛ فأشكال الطيور على درجة من الاختلاف بما يذهل تنوعها عقل الإنسان، فبعضها غاية في الجمال بما لا تشبع العين من رؤيته، والبعض الآخر له شكل مخيف غالباً ما يفزع الإنسان من مشاهدته، وبعضها ذات أقدام طويلة وكأنّ أجسامها حملت على عمودين (كالنعامة واللقلق) والأخرىٰ قصيرة لا ترى إلّا بصعوبة، ومنها الطيور ذات الجثة الضخمة والأخرىٰ النحيفة، كما تختلف مع بعضها في الطيران فبعضها لا تستطيع الطيران لكنها تبسط جناحيها وتنطلق بسرعة، وتحلق الأخرىٰ إلى ارتفاعات منخفضة فتنهض من الأرض كنهوض الطائرة، أمّا البعض الآخر فيرتفع سريعاً من الأرض ويحلق في عنان السماء مستفيداً من دفع أقدامه بالإضافة إلى الإستعانة بأجنحته (كحركة المروحيات)، وتبقى بعض الطيور محلقة في السماء لأسابيع دون أن تشعر بالتعب والملل، كالطيور المهاجرة التي تقطع أحياناً نصف الكرة الأرضية وتتغذى على ما تدخره من مواد غذائية. جدير بالذكر أنّ بعض الطيور ذات الأجنحة المنبسطة والبدن الخفيف تستغني عن بسط جناحيها حين تبلغ ذروة التحليق وعلى العكس من ذلك الطيور ذات الجثة الثقيلة والتي لا غنى لها عن الأجنحة مهما حلقت. حقّاً أنّ الإنسان كلما تأمل هذه الأنواع تعرّف أكثر على عظمة الخالق وعلمه المطلق وإرادته التامة.

وأشار عليه السلام في المرحلة الرابعة إلى تنوع ألوان الطيور والذي يكشف أيضاً عن جانب من العجائب فقال: «**وَنَسَقَهَا[٢] عَلَىٰ ٱخْتِلَافِهَا فِي ٱلْأَصَابِيغِ[٣] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ[٤] فِي قَالَبِ[٥] لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ؛**

١. «دفيف» بسط الجناح ولما كانت الطيور تبسط اجنحتها قرب سطح الأرض فإنّ هذه المفردة تطلق على مرور الطائر فوق الأرض.

٢. «نسقها» من مادة (نسق) على وزن غسق، الترتيب سواء في الصفوف أو العبارات والكلمات وغيرها.

٣. «أصابيغ» جمع اصباغ، واصباغ جمع صبغ، على وزن فعل اللون.

٤. «مغموس» من مادة (غمس) على وزن لمس، غمر الشيء في الماء، وقد شبه الإمام لون الطيور وكأنّها مرتبة في قالب من اللون فأخرجت بهذا الشكل.

٥. «قالب» على وزن قالَج، ما يصب فيه الفلز ليظهر بالشكل المطلوب.

وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ». فتنوع ألوان الطيور هو الآخر من العجائب. وقد قام البعض بإنشاء حديقة كبيرة في بعض المناطق تدعى حديقة الطيور فضمت مختلف أنواع الطيور وتعيش ظروفاً كالظروف الطبيعية للحياة مع فارق بسيط هي أنّها أحيطت بسياج كبير بغية المحافظة عليها، والحق أنّ كل من يتأمل ألوانها المتنوعة ليسحره منظرها الخلاب فيخيل إليه أنّ رسّاماً ماهراً جلس لأيّام يخط هذه الألوان، فلا يملك الناظر سوى التوجه إلى الله بالحمد والثناء والتسبيح والتقديس.

تأمل

عجائب عالم الطيور

إنّ النظر إلى طائر جميل والإبداع في بنية جناحه وبالتالي خلقه يجعل الإنسان مستغرقاً في التوحيد، فما ظنك لو قطعنا هذه الرحلة الطويلة في عالم الطيور والتي تتطلب سنوات عديدة. لقد ألف العلماء العديد من الكتب بشأن الأسرار المودعة في الطيور ومختلف أنواعها وأقسامها بما فيها الطيور البرية والبحرية والمهاجرة وغير المهاجرة، ولا يسع البحث لاستيعاب زاوية منها ولذلك نقتصر على الإشارة إلى جانب منها، فمما قاله العلماء:

١. هنالك حوالي أربعة عشر ألف نوع من الطيور في الكرة الأرضية وقد دفع اختلافها العلماء إلى تصنيفها إلى عدّة فصائل، وبالطبع فإنّ لكل فصيلة آلاف المصاديق في الخارج، ولا يخفى أنّ هنالك الآلاف المؤلفة أيضاً من الطيور في الغابات والوديان التي لم يقف عليها الإنسان لحد الآن.

٢. إنّ بعض الطيور كالنعامة التي تزن حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتستطيع بأرجلها الطويلة أن تسير بسرعة ٩٥ كيلومتر بالساعة، وهنالك الطيور الخفيفة الصغيرة التي لا يتجاوز وزنها بضعة كيلو غرامات، وربّما لا تقل سرعة طيرانها عن سرعة سير النعامة.

٣. إنّ خلقة كل طير تتناسب مع بيئته وظروفه المحيطة وأوضاعه المعاشية، فلبعضها منقار طويل وحاد يتمكن من صيد الأسماك، ولبعضها منقار قصير ومخروطي يستطيع كسر البذور النباتية، كما هنالك المنقار النحيف والحاد الذي يمتص رحيق الأزهار، وأخيراً المنقار الذي يشبه السلة ويتمكن من صيد عدد من الأسماك والاحتفاظ بها.

٤. ليس لأي من الطيور أسنان لكنها تطحن الطعام وتمتصه في أوعيتها الصلبة.

٥. الطيور بيوضة عادة تنام على بيضها لأيّام لتفقس عن أفراخ، طبعاً الأنثى هي التي تنام عليها، كما يتناوب معها الذكر أحياناً، وأحياناً يحبس الذكر أنثاه في عش ولا يسمح لها بالخروج ولا يدع سوى فتحة صغيرة في العش ليوصل إليها ما تحتاج من غذاء.

٦. بدن الطيور خفيف للغاية مستعد للطيران وهو مليء بالغضاريف والغدد التي تساعدها على الطيران.

٧. لطيور الماء، ويقصد بها الطيور العائمة في المياه وسواحل البحار برامج عجيبة فأحياناً تستهدف طعامها تحت الماء من خلال اكتشافه بجهاز يشبه الرادار فتغوص في الماء لتحصل عليه وبالطبع فإنّ جسمها دهني لا يسمح بنفوذ الماء إلى داخلها.

٨. ألوان الطيور من عجائب الخلقة، فهناك بعض الطيور الجميلة التي تخطف الأبصار وتشرح القلوب حتى يظن الناظر أنّها رسمت بريشة فنان عبقري (وهذا من أبدع أمور الخليقة التي ركز عليها الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة) ولا يدرك الإنسان هذه العظمة دون النظر والتأمل.

٩. أعشاش الطيور هي الأخرى متنوعة وعجيبة، ورغم أنّها لا تمتلك الأيدي إلّا أنّها تصنع أعشاشها وتبنيها بدقّة متناهية، فهنالك طائر يسمى (الخيّاط) يقوم بصنع عشه من خلال خياطته لأوراق الأشجار حيث يستعين بمنقاره كأبرة وخيوطه ألياف النباتات.

١٠. طيور الصيد لها أرجل وأجنحة قوية كالعقاب والغراب ولها رؤية حادة وقوية بحيث ترى حتى الحشرات الصغيرة في الأرض وهي على ارتفاعات في السماء، وبعضها على درجة من الضخامة بحيث يمكنها التقاط شاة وحملها معها.

١١. وللطيور المهاجرة عالم غريب وعجيب فهي تنطلق أحياناً من خط الإستواء نحو المناطق القطبية وبالعكس فتقطع أكثر من عشرة آلاف كيلومتر دون أن تضل طريقها، فهي تحلق لأيام وليالٍ دون تعب وتعكف قبل الهجرة غريزتاً على جمع المواد الغذائية لتستفيد منها طيلة مدّة الهجرة.

١٢. للطيور مقاومة شديدة لدرجات الحرارة والبرودة فهي صامدة حتى في درجة تحت الصفر، وحرارة جسمها أعلى من درجة حرارة جسم الإنسان وتصل إلى ٤٥ درجة فوق الصفر[١].

١٣. خدمات الطيور للإنسان كثيرة، فطعام أغلب هذه الطيور من الحشرات، وطيور الصيد تحول دون مضاعفة نسل الطيور الأخرى، وهنالك الطيور التي تتغذى على الميتة فتطهر سواحل البحار وسطح الأرض كما تلعب دوراً في القضاء على الآفات.

١٤. نقل شارح نهج البلاغة عن كتاب روبرت لمن «كل شيء عن الطيور» والذي ترجمه الدكتور بدران، أنّ البعض يعتقد أنّ على وجه الأرض أكثر من مئة مليارد طير أكبرها النعامة التي يبلغ طولها مترين ونصف... وأصغرها الطنان وطوله خمسة سانتي مترات، وتحلق بسرعة حيث تبلغ سرعتها أكثر من تسعين كيلومتر بالساعة وتستطيع الوقوف مدّة طويلة في الجو، وتبلغ خطوة بعض الطيور أكثر من ستة أمتار. وتحلق بعض الطيور إلى ستة آلاف متر في الهواء بينما تغطس بعضها إلى

---

١. القاموس الثقافي وكتب أخرى.

عمق ١٨ متر[١]. وزبدة الكلام فإنّ الإنسان لا يملك إنّ تأمل هذا الخلق العجيب سوى الركون لله والإستسلام لقدرته المطلقة وصنعه العجيب.

٭٭٭

١. في ظلال نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦٧.

القسم الثاني

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ.

إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلّاً عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ.

يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ. يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ. وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ.

الشرح والتفسير

أعجب طير في العالم

بعد أن تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة إلى عجائب عالم الطيور أشار هنا بالخصوص إلى أعجب وأجمل طيور الدنيا ألا وهو (الطاووس) الذي يضرب به المثل في الجمال حتى يستفاد من ريشه الجميل كعلامة للوصول إلى آية معينة في القرآن وصنع المكانس لنكث الغبار عن الأضرحة المقدّسة، حيث أشار الإمام عليه السلام الى بعض خصائص هذا الطائر فقال: «وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ[1] أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ

---

1. «نضد» من مادة (تنضيد) بمعنى نظم الأشياء وترتيبها مع بعضها.

أَشْرَجَ[١] قَصَبَهُ[٢]، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ[٣]».

الشيء الأول الذي يلفت الانتباه في الطاووس، الألوان الرائعة العجيبة لأجنحته وذيله الطويل نسبياً حيث يخط وراءه عندما يمشي ويتبختر كأنّه العروس الجميلة في ليلة زفافها. حقاً لا يمكن وصف ألوان الطاووس بأي شكل من الأشكال، سوى أن يقف الإنسان مذهولاً أمام عظمة الخالق ويشاهد ويتمتع بهذا الطائر اللطيف. ما يجدر ذكره في عالم الحيوانات أنّ الذكر يستغل مختلف الطرق بغية جلب انتباه الأنثى له. فأحياناً عن طريق الصوت العذب وأخرى، الحركات الموزونة وبعض الحركات الأخرى، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة فقال: «إِذَا دَرَجَ[٤] إِلَى الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ[٥]، وَسَمَا بِهِ مُطِلّاً[٦] عَلَى رَأْسِهِ». حقا أنّ بسط الطاووس لجناحه لمن أروع المناظر ويعكس حالة من النسق والنظام الرائع.

ثم أورد الإمام عليه السلام تشبيها لذلك فقال: «كَأَنَّهُ قِلْعُ[٧] دَارِيٍّ[٨] عَنَجَهُ[٩] نُوتِيُّهُ[١٠]». ربّما كان هذا التشبيه لأنّ حركة الشراع نحو المقصد تمنح السفينة جمالاً خاصاً، الطاووس أيضاً عند حركته وفتحه لمظلته يجلب انتباه الآخرين لجماله وروعته.

---

١. «أشرج» من مادة (أشراج) بمعنى خلط الأشياء مع بعضها أو إدخال الحبال والخيوط بكيس أو صندوق مع بعضها وإحكام غلقها.

٢. «قصب» بمعنى ساق النبات الأجوف.

٣. «مسحب» من مادة (سحب) على وزن (سهو) السحب على الأرض، وله هنا معنى المصدر أو اسم المصدر.

٤. «درج» من مادة (درج) على وزن خرج، المشي إلى موضع معين أو صعود السلم. والمعنى الأول هو المراد في عبارة الخطبة، كما يطلق على حركة الطفل البطيئة.

٥. «طي» بمعنى اللوي من طيه، وفي الخطبة بمعنى بعد طيه، إشارة إلى أنّ الطاووس يفتح جناحيه المركبين.

٦. «مطل» من مادة (طل) على وزن حل، بمعنى المشرف والنظر من الأعلى والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

٧. «قلع» شراع السفينة.

٨. «داري» ينسب إلى (دارين) في البحرين مركز تجارة المسك ومفهوم العبارة أنّ الطاووس ينشر مظلته كأنّه شراع السفينة التي تجلب العطر من دارين.

٩. «عنج» من مادة (عنج) على وزن رنج، السحب والغلق.

١٠. «نوتي» ربان السفينة من مادة (نوت) على وزن فوت الحركة هنا وهناك واطلاق هذه المفردة على الربان لأنّه يحرك السفينة كيفما يشاء.

ثم قال ﷺ: «يَخْتَالُ[١] بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ[٢] بِزَيَفَانِهِ[٣]. يُفْضِي[٤] كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ[٥] بِمَلَاقِحِهِ[٦] أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ[٧] لِلضِّرَابِ[٨]». الواقع أنّ هذا الكلام مقدمة لابطال بعض خرافات عامة الناس بشأن هذا الطائر (وبالها من خرافات كثيرة يحيكها العوام بشأن عجائب الحيوانات) لذلك قال: «أُحِيلُكَ مِنْ ذٰلِكَ عَلَىٰ مُعَايَنَةٍ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَىٰ ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ».

ثم واصل ﷺ كلامه قائلاً: «وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا[٩] مَدَامِعُهُ[١٠]، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ[١١] جُفُونِهِ[١٢]، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذٰلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَىٰ الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ[١٣]، لَمَا كَانَ ذٰلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ[١٤] الْغُرَابِ». إشارة إلى عدم التعجب من هذه الخرافة التي قيلت بشأن الطاووس، فقد قيل الأعجب من ذلك بشأن الغراب، أنّه ليس هنالك من جماع لدى الغراب بل إنّ أراد لأنثاه الحمل يضع منقاره في منقارها وينقل إليها مقداراً من الماء من القامصة الذكرية فتحمل، وهو كلام باطل ولقد شوهد الجماع كراراً لدى الغراب، وإن سعى إلى الإبتعاد عن

---

١. «يختال» من مادة (اختيال) بمعنى التكبر والغرور الذي يظهر عادة من الخيال الفارغ.

٢. «يميس» من مادة (ميس) على وزن حيث الحركة والغرور.

٣. «زيفان» المشي المتبختر تأكيد لعبارة يميس.

٤. «يفضي» من مادة (افضاء) كناية عن اللقاح وتعني في الأصل التوسعة.

٥. «يؤر» من مادة (أر) على وزن شر، الجماع واللقاح.

٦. «ملاقح» جمع ملقحة، من مادة (اللقاح)، الآلة التناسلية وتعني الحمل.

٧. «مغتلمة» من مادة (غلمة) على وزن لقمة، شدة الشهوة، وفحول مغتلمة بعض الحيوانات التي تندفع من شبقية الشهوة.

٨. «الضراب» لقاح الفحل لأنثاه.

٩. «تسفح» من مادة (سفح) على وزن محو، نبع الدموع والسفاح، سفك الدم

١٠. «مدامع» جمع مدمع، على وزن منبر، مجرى الدمع.

١١. «ضفة» ساحل النهر أو البحر، حيث شبه الأجفان بجانبي النهر.

١٢. «جفون» جمع جفن، معروفة في العين.

١٣. «منبجس» من مادة (انبجاس) وأصله بجس على وزن نحس، نبع الماء بصورة رقيقة وشفافة.

١٤. «مطاعمة» من مادة (طعم) بمعنى تناول الطعام مع الآخرين، ومن ثم أطلق على عمل الطيور التي تضع مناقيرها في مناقير الأخرى وكأنّ كل واحد يطعم الآخر.

أنظار النّاس، وعليه فعملية الجماع لديه خفية حتى ضرب المثل بـه لدى العـرب فقيل: «أخفى من سفاد الغراب» ولعل سبب هذه الخرافة أنّ أغـلب الطـيور تـضع مناقيرها أمام مناقير الطيور الأخرىٰ قبل الجماع وهذا ما جعل البعض يلتبس عليه الأمر. وشبيه ذلك ما قيل في الطاووس من أنّ الأنثى تـمتص دمـع الذكـر قـبل الجماع[1].

سؤال: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ترى من الذي جعل الإمامعليه السلام يتعرض لهذه الخرافة بشأن الطاووس أو الغراب، والحال لو كان الأمـر كـذلك لكـان مـن عجائب الخلقة وغرائبها؟

والجواب: أنّ الناس لو اتجهوا صوب الخرافات لإثبات العـجائب والغـرائب لاضطربت الواقعيات وسلبت نتائجها المطلوبة. والسؤال الآخر الذي يـرد هـنا لم يكن في الحجاز طاووس ليرى الإمامعليه السلام عملية التلقيح فكيف ورد هذا الكلام؟

أجاب ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة من نهج البلاغة أنّ المدينة وإن خلت من هذا الطائر غير أنّ الإمامعليه السلام أورد هذه الخطبة في الكوفة التي كان يجلب إليها كل شيء بما فيها هدايا وصفايا الملوك، وعليه فليس من العجيب أنّ الإمامعليه السلام شاهد الطاووس وحركاته[2].

٭٭٭

١. وعليه فما ذكر جواب القضية الشرطية «ولو كان...» جملة «لما كان ذلك بأعجب...».

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٧٠.

القسم الثالث

تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ، وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ، وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنًى جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ. يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ.

الشرح والتفسير

صورة رائعة لجناح الطاووس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عجيب خلقة الطاووس من خلال وصف جناحه وريشه الملون الرائع ليشرح ذلك بعبارات فصيحة بليغة وتشبيهات غاية في الروعة فقال: «تَخَالُ قَصَبَهُ[1] مَدَارِيَ[2] مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ[3]، وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ[4]، وَفِلَذَ[5] الزَّبَرْجَدِ[6]».

---

١. «قصب» بمعنى عمود الريش.

٢. «مداري» جمع مدرى، على وزن املاء، بمعنى المشط.

٣. «دارت» جمع دارة، بمعنى الحلقة أو الهالة لطرف القمر.

٤. «عقيان» بمعنى الذهب.

٥. «فلذ» جمع فلذة، على وزن بدعة، بمعنى القطعة.

٦. «زبرجد» حجر ثمين للزينة له عدة ألوان وأشهرها الأخضر، ومن هنا يشبه كل شيء أخضر اللون جميل بالزبرجد.

يعلم كل من رأى ريش الطاووس أنّ ألوانه خارقة في الجمال، إلّا أنّ هنا لك لونين يجليان الإنتباه أكثر من غيرهما، هما اللون الأصفر - الذي يسلمع كالذهب الخالص، واللون الأخضر الذي يشبه قطعات الزبرجد (ذلك الحجر النفيس الأخضر اللون والذي يستخدم في الزينة وتاج الملوك) ومن هنا ركز الإمام على هذين اللونين من بين سائر الألوان، والغريب أنّ جميع ريشه الجميل ينبت على قصبة بيضاء شبهها الإمام عليه السلام بالفضة. ثم شبّه الإمام عليه السلام جناحي الطاووس بغية زيادة التوضيح تارةً بالأزهار الربيعية المتنوعة الألوان وأخرى، بالثياب النفيسة الملونة. وأخيراً التيجان المرصعة بها، فقال: «فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ ٱلْأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ[1] جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ». ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّه يوجد في بعض البلدان عشرة آلاف نوع من البراعم والزهور ولكل جماله الخاص به.

ثم ذكر الإمام عليه السلام تشبيها آخر وعبارة رائعة فقال: «وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ[2] بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمُوشِيِّ[3] ٱلْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ[4] عَصْبِ ٱلْيَمَنِ» والتشبيه الثالث والأخير: «وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ[5] ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ[6] ٱلْمُكَلَّلِ[7]». فقد كان لقدماء الملوك تيجان مفعمة بالنقوش والألوان ومليئة بالمجوهرات حيث يجعلون المجوهرات على شريط أو يخيطونها عليه بخيوط رقيقة ليزينوا بها تيجانهم. والقصبات التي تتوسط جناحي الطاووس - كما وردت سابقاً في عبارة الإمام عليه السلام - بيضاء كالفضة والريش على جانبيها كالمجوهرات. الواقع، أنّ النقوش الجميلة والملونة لا تعدو عادة أحد هذه الأشياء الثلاثة: باقة الورد والملابس والجواهر. وقد

---

١. «جني» بمعنى الحصاد، وقيل باقة الزهور.

٢. «ظاهيته» من مادة (مظاهاة) بمعنى، التشبيه.

٣. «موشي» بمعنى المنقوش من مادة (وشي)، بمعنى النقش والنميمة أيضاً.

٤. «مونق» بمعنى الجميل والعجيب من مادة انق.

٥. «فصوص» جمع فص على وزن نص، فص الخاتم.

٦. «الجين» بمعنى الفضة.

٧. «مكلل» ذوتاج من مادة (إكليل)، بمعنى التاج، كما يطلق على ما يزين بالمجوهرات.

استعان الإمام عليه السلام بالتشبيهات الثلاثة بتلك العبارات الفصيحة البليغة ليجسد جمالية ريش الطاووس.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليخوض في شرح الطاووس من خلال مشيه ونظرته لنفسه فقال: «وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ، يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ[١] الْمُخْتَالِ[٢]، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ،[٣] فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ[٤] وِشَاحِهِ[٥]؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا[٦] مُعْوِلاً[٧] بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ[٨] كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ[٩]. وَقَدْ نَجَمَتْ[١٠] مِنْ ظُنْبُوبِ[١١] سَاقِهِ صِيصِيَةٌ[١٢] خَفِيَّةٌ». فقد أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة لطيفة وهي أنّ الله سبحانه جعل في هذا الطائر بعض نقاط الضعف رغم آيات الجمال، وإذا ما شعر حيناً بالغرور ودفعه ذلك للضحك بالقهقهة فإنّه لا يكاد يخفي ألمه إن وقعت عينيه على نقصه. وبالطبع فإنّ هذا نموذج من عالم الخلق الذي حال فيه الحكيم دون الغرور والطغيان الناشيء من الشعور بالقوّة حيث جعل قدراً من الضعف والنقص بغية التوازن والقضاء على الغرور والغفلة. فهنالك الكسل والعجز الذي يطارد الشباب والنشاط، والمرض والسقم الذي يتبع الصحة والعافية،

---

١. «مرح» بمعنى سكر النعمة والقدرة، من مادة (مرح) على وزن فرح، بمعنى شدّة السرور.

٢. «مختال» المتكبر والزاهي بنفسه، من مادة (خيال).

٣. قال الراغب في المفردات: الثوب ويطلق على مطلق اللباس.

٤. «أصابيغ» جمع أصباغ، و«أصباغ» جمع صبغ، بمعنى اللون.

٥. «وشاح» شريط عريض جميل يلقى على الكتف ويحمل.

٦. «زقا» من مادة (زقو) على وزن ضعف، بمعنى الصياح.

٧. «معول» بمعنى رفع صوته بالبكاء، وأصله عويل.

٨. «حمش» جمع أحمش الشخص أو الشيء النحيف الرجل كما وردت بمعنى اللون الغامق.

٩. «الخلاسي» الديك المتولد من دجاجتين هندية وفارسية.

١٠. «نجمت» من مادة (نجم) على وزن حجم، بمعنى نبتت.

١١. «ظنبوب» الإنحراف والإعوجاج.

١٢. «صيصية» شوكة في رجل الديك وتعني أيضاً، المشط الذي يصفف به القماش قبل نسجه.

والفقر الذي يجري خلف الغنى، وإدبار الدنيا الذي يحثّ الخطى نحو إقبالها. نـعم هذه إحدى فلسفات المرض والعجز وسائر المحن والويلات.

القسم الرابع

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ ٱلْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ، وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ، وَمَغْرِزُهَا إِلَىٰ حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ ٱلْوَسِمَةِ ٱلْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ ٱلْخُضْرَةَ ٱلنَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ ٱلْقَلَمِ فِي لَوْنِ ٱلْأُقْحُوَانِ، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ ٱلْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح والتفسير

صورة دقيقة عن جمال الطاووس

خاض الإمام عليه السلام هنا بعبارات فصيحة بليغة في خمس خصائص أخرىٰ تعكس جمال الطاووس ليذكر من خلالها هذه الجمالية على ضوء مظاهر جمال الله وجلاله، فقال: «وَلَهُ فِي مَوْضِعِ ٱلْعُرْفِ[1] قُنْزُعَةٌ[2] خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ[3]». العرف عند العرب، شعيرات طويلة تبدأ من أعلى الكتف والرقبة حتى خلف الرأس لتنتهي بين الأذنين فيكون كالتاج وحيث هذا التاج أخضر براق في الطاووس فإنّه يمنحه جمالاً يسحر الأبصار ويلفت نظر الإنسان إلى مبدأ هذا الجمال الساحر.

---

١. «العرف»: ما على الرأس من شعر.

٢. «قنزعة» الخصلة من الشعر.

٣. «موشاة» بمعنى منقوشة.

وقال في الخاصية الثانية: «وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ[١]، وَمَغْرِزُهَا[٢] إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ ٱلْوَسِمَةِ[٣] ٱلْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ[٤]».

وقال في الثالثة : «وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ[٥] بِمِعْجَرٍ[٦] أَسْحَمَ[٧]؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ ٱلْخُضْرَةَ ٱلنَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ».

وقال في الخاصية الرابعة: «وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ[٨] ٱلْقَلَمِ فِي لَوْنِ ٱلأُقْحُوَانِ[٩]، أَبْيَضُ يَقَقٌ[١٠]، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ[١١]».

وأخيراً قال في الخاصية الخامسة: «وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ[١٢]، وَبَصِيصِ[١٣] دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ[١٤]، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ ٱلْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ[١٥]».

إنّ التمعن في هذه الخواص الخمس للطاووس إضافة لما ذكر في مقاطع الخطبة السابقة يكشف من جانب، عن عظمة وقدرة المصور الماهر الذي جمع كل هذا الحسن والجمال في هذا المخلوق وجعله نموذجاً لأنواع الجمال، حيث أدنى وقفة

---

١. «ابريق»، وقال البعض فيها أنّ أصلها فارسي (أبريز) الذي يستعمل لغسل اليد أو الفم قبل تناول الطعام أو لرش الورد في الضيافة وقد صنع أنبوبها بانحناء خاص وشكل جميل.

٢. «مغرز» بمعنى موضع الغرز.

٣. «وسمة» لون خاص تخضب به اللحية والحاجب.

٤. «صقال» بمعنى الجلاء.

٥. «متلفع» بمعنى الملفوف، من مادة (لفع) على وزن نفع، الاحاطة وستر جميع الأشياء.

٦. «معجر» بمعنى المقنعة والربطة.

٧. «اسحم» بمعنى الأسود.

٨. «مستدق» بمعنى النحيف والرقيق، من مادة (دق)، على وزن حق.

٩. «الاقحوان» بمعنى البابونج.

١٠. «يقق» بمعنى شديد البياض، من مادة (يقوقة).

١١. «يأتلق» بمعنى يلمع، من مادة (الق)، على وزن دلق.

١٢. «بريق» بمعنى لمعان، من مادة (برق).

١٣. «بصيص» بمعنى اللمعان.

١٤. «رونق» بمعنى الحسن، من مادة (رنق)، على وزن فتق.

١٥. «قيظ» بمعنى شدة الحرارة.

عند هذا المخلوق دليل على وجود الخالق سوى لهذا المخلوق البديع لكفى في الوقوف على الخالق العظيم، وكلما أوغل الإنسان أكثر وتعمق أصبح أكثر خضوعاً لخالقه الحكيم ونطق بلسان حاله: يا لك من مخلوق رائع جميل، فما أجمل من خلقك ومنحك كل هذا الجمال. ومن جانب آخر، نقف على مدى عظمة هذا الإمام العظيم بطل التوحيد ومدى دقته في عرض عجائب وجمال عالم الخلقة وإرشاده الخلق إلى الخالق، والحق أنّ أحداً لم يستطع أن يتحدث عن جمال هذا الطائر كما تحدث الإمام عليه السلام.

ﷺ

القسم الخامس

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَىٰ مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَىٰ، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ ٱنْحِتَاتَ أَوْرَاقِ ٱلْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّىٰ يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ! وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَىٰ صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ ٱلْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ ٱلْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ ٱلْوَاصِفِينَ!

وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ ٱلْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَٱلْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بَهَرَ ٱلْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً؛ وَأَعْجَزَ ٱلْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!

الشرح والتفسير

حيرة العقول في الوصف

أشار الإمام في هذا المقطع والذي يمثل ختام الكلام في الطاووس إلى أمرين مهمين ؛ الأول قال: «وَقَدْ يَنْحَسِرُ[1] مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَىٰ مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَىٰ[2]، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ[3] مِنْ قَصَبِهِ ٱنْحِتَاتَ أَوْرَاقِ ٱلْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّىٰ يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ».

---

١. «ينحسر» يعني يعري وينكشف، من مادة (حسر)، على وزن حشر، بمعنى العري.

٢. «تترى» من مادة (وتر)، بمعنى الواحد، وتأتي بمعنى الواحد تلو الآخر.

٣. «ينحت» يعني يتقشر، من مادة (نحت)، على وزن تخت، التقشر.

ثم قال: «لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ!». لا شك في أنّ ريش الطاووس ورغم كل هذا الجمال لكنه قد يتعرض مع مرور الزمان إلى الإتساخ بالتراب والغبار، ومن هنا فإنّ الله تعالى ينزع عنه كل سنة لباسه القديم ويغطي جسمه بلباس جديد وجميل ليبقى غضاً جميلاً على الدوام. غالباً ما تسقط أوراق الأشجار في فصل الخريف ويسلب الطاووس نشاطه وحيويته، وحين تتفتح الأزهار في فصل الربيع تدب الحيوية في الطاووس ويكتسي حلة جديدة ملونة تجعل قصبه الأبيض الفضي اللون يبدو كسيقان الأشجار.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة لطيفة فقال: «وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً[1]». لما كانت على ريش الطاووس دوائر جميلة بألوان مختلفة، وكل لون يختص بخصلة معينة لتبدو بصورة رائعة.

وأخيراً يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال: «فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ[2] الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ[3] الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ! وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!». نعم؛ إن عجز الإنسان العاقل والمفكر عن الوقوف على عجائب الطاووس وتعذر عليه وصفه وإدراكه فكيف بعالم الخلقة وأسراره؟! وإضافة إلى النتيجة السابقة الواضحة في موضوع معرفة الله وإدراك عظمة الخالق وسعة علمه وقدرته إنّما خلص إلى نتيجة أخرى، فإن عجزنا عن إدراك كائن من هذه الكائنات فكيف لنا بإدراك كنه الذات والصفات والتعرّف على الله كما هو[4]، فقال: «فَسُبْحَانَ الَّذِي

---

١. «عسجدية» من عسجد، الذهب.

٢. «عمائق» جمع عميقة، الدقيق والعميق.

٣. «قرائح» جمع قريحة، بمعنى الذهنية والذكاء الذي أودعه الله في الفطرة.

٤. على ضوء التفسير المذكور فإنّ جميع الضمائر تعود إلى الطاووس، وهذا ما فهمه أغلب شرّاح نهج البلاغة ←

بَهَرَ[1] الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ[2] لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ[3] صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!».

تأمّل

غرائب الطاووس

إنّ عالم الخليقة لعجيب كيفما نظرنا إليه، إلّا أنّ هنالك البعض الأعجب غيره ومن ذلك الطاووس. فهذا الطائر فريد في الجمال ومن هنا ضرب به المثل. لقد اصطبغ ريشه بعدّة ألوان جميلة، وإن نشر جناحيه بدا أكثر جمالاً وروعة ويفعل ذلك على وجه السرعة حين تلحظه أنثاه ليلفت نظرها إليه، فهو يبدو كالعروس التي ترتدي حلتها ليلة الزفاف، ويشعر بالمتعة من هذا المنظر فيمشي باختيال وغرور ويختتم ذلك بقهقهة ضاحكاً.

يبلغ عمر الطاووس ٢٥ ـ ٢٠ سنة وتبيض الأُنثى في الثالثة من العمر، تبيض الأُنثى عادة مرّة في العام وتضع ١٢ بيضة، إلّا أنّ كثرة حركاته تجعله لا يحافظ على بيوضه، لذلك توضع البيضة تحت بطن آخر لتفقس، يعتبره اليونانون والرومانيون طائراً مقدّساً، بينما يراه الآخرون مشؤوماً أدى إلى دخول ابليس إلى الجنّة، يبلغ طوله من منقاره إلى انتهاء ذيله أكثر من مترين، والأُنثى أقصر من الذكر.

وكما ذكر الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة فإنّ هنالك خرافة سائدة بين الناس بشأن حمل الطاووس وأنّ الذكر حين يتهيج يضع قطرة دمع في عين الانثى فتمتصها

☜ وإن مروا عليه بنوع من الإجمال والإبهام، كما يحتمل أن يعود الضمير في العبارة (أعجز الألسن عن تلخيص صفته) وكذلك العبارة (عن تأدية نعته إلى الله تعالى)، وعليه فمفهوم العبارة: أنّى للعقل بإدراك كنه الذات والصفات وهي عاجزة عن إدراك صفات المخلوق.

١. «بهر» من مادة (بهر)، على وزن نهر، بمعنى الغلبة والقهر.

٢. «جلاه» يعني أظهره، من مادة (جلاء).

٣. «تلخيص» ورد بمعنى الشرح، وكذلك الخلاصة والمعنى الأول الأول هو المراد هنا.

وتحمل، والواقع أنّه يلقح اثناء على أساس الجماع كما لوحظ ذلك كثيراً. عادة ما يربى هذا الطائر الجميل الذي يستفاد منه في الزينة، وهنالك من يتناول لحمه، غير أنّ الشريعة الإسلامية حرمت ذلك[1].

৪০৫

١. جواهر الكلام، ج ٣٦، ص ٣٠٩؛ راجع حياة الحيوان للدميري، وقاموس دهخدا، والزولوجي الحديث.

القسم السادس

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَىٰ مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ! وَوَأَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

الشرح والتفسير

الديدان والفيلة والحيتان

أشار الإمام هنا بصورة عابرة إلى عجائب سائر الأحياء حتى لا يتصور أنّ العجائب تقتصر على الطاووس، فقال: «وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ[1] قَوَائِمَ[2] الذَّرَّةِ[3] وَالْهَمَجَةِ[4] إِلَىٰ مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ[5] وَالْفِيَلَةِ!». فقد أشار الإمام إلى حشرتين من أصغر الحشرات على الأرض صغار النمل والذباب وإلى أضخم وأكبر حيوانين هما الحوت في البحار والفيل في اليابسة، ولقد لفت الإنتباه إلى أيدي وأرجل صغار الحشرات، اليد والرجل التي تضاهي يد الفيل ورجله فتتحرك يميناً وشمالاً وتأخذ أوامرها من الدماغ وتشتمل على الأعصاب والعضلات والمفاصل وما شابه ذلك، والحق لو جعلنا رجل هذه الدودة الصغيرة تحت المجهر وتأملنا بنيتها لتعرفنا على قدرة الله تعالى وعلمه المطلق.

---

١. «أدمج» من مادة «دموج» بمعنى الاستحكام.

٢. «قوائم» جمع قائمة، بمعنى العمود، وهنا إشارة إلى الأيدي والأرجل التي تعتبر أعمدة البدن.

٣. «ذرة» صغار النمل، وبمعنى الغبار، كما تطلق على الذرة في الكيمياء.

٤. «همجة» ذباب صغير، وجمعه همج.

٥. «حيتان» جمع حوت معروفة.

كذلك لو تأملنا الحيوانات الكبيرة حيث إنّ زنة بعض الحيتان تبلغ طناً وترضع فراخها اللبن تحت الماء، حيث تسكب الأم اللبن في الماء ويمتصه الوليد فوراً، وتنطوي سائر عجائبها على الدروس البليغة في التوحيد ومعرفة الله، نعم؛ إنّ هذه الديدان ـ على سبيل المثال ـ كثيرة من حولنا وقد اعتدنا على رؤيتها فلم نعد نلفت إلى أنّ بنيتها تفوق بنية الطائرة الضخمة. قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَكَأَيِّنْ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1].

وأشار الإمام عليه السلام أخيراً إلى مصير الأحياء كافّة، أي الموت والعدم، فقال: «وَوَأَىٰ[2] عَلَىٰ نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَبَحٌ[3] مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ». أجل؛ إنّ الموت هو مصير كل ذي روح وهذا الكلام هو إشارة إلى أنّ الدنيا لا تدوم رغم كل ما فيها من جمال وعجائب ولا يمكن التعلق بها، ومن جانب آخر يمكن الوقوف على عظمة الله تعالى بصورة أفضل من خلال مقارنة موت هذه الموجودات بحياتها، لأنّ أهميّة كل شيء تظهر حين فنائه.

تأمّل

غيض من عجائب الحيتان والفيلة

سنخوض في شرح الخطبة ١٨٥ التي أوردها الإمام عليه السلام بشأن النمل إن شاء الله، ونشير هنا إلى الحيتان والفيلة بصورة مختصرة:

الحيتان

يقول العلماء: إنّ هنالك خمسة عشر ألف نوع من الحيتان في بحار ومحيطات العالم، بعضها صغيرة جدّاً لا تتجاوز سانتيمترين وبعضها الآخر كالحوت الذي يبلغ

١. سورة يوسف، الآية ١٠٥.

٢. «وأى» من مادة «وأي»، على وزن سعي، بمعنى الوعد.

٣. «شبح» بمعنى الشخص، وكل شيء يتراءى للإنسان ويدركه الحس.

طوله ثلاثين متراً ويزن ثلاثين طناً تنطوي على العديد من العجائب. فمعدتها كبيرة جدّاً تستوعب الكثير من المواد الغذائية، ويبلغ طول وليدها ستة أمتار حين الولادة. وتتغذى فراخها على لبنها الذي يخرج من بدنها بغزارة. تتحرك دائماً على سطح الماء للتنفس ولا تستطيع البقاء أكثر من ساعة تحت الماء، فهي أكبر الحيوانات على الأرض وتعتبر من الثديات. أبدانها دهنية، يستفاد منها في الصناعات المختلفة ولا تملك أسناناً بل لها شفرات عظيمة طويلة وخطيرة تشبه الأسنان ويستفيد الصيادون من هذه الشفرات والغدد الدهنية.

الفيلة

يعتبر الفيل في الوقت الحاضر من أكبر الحيوانات، والفيلة نوعان: الفيلة الهندية ويطلق عليها الفيلة الأسيوية. والآخر، الفيلة الأفريقية. والفيلة الأسيوية أكبر ومستعدة للتربية أكثر من نظيرتها الأفريقية. والواقع هو أنّ خرطوم الفيل بمثابة أنفه وشفته العليا، غير أنّه يقوم بعمل اليد عادة، أي أنّ الفيل يحمل الطعام بيده إلى فمه ويقذف الماء على ظهره عند الحرارة. يتغذى الفيل على العلف حيث يجمعه من الأرض بخرطومه ويضعه في فمه، كما يستعين بعاجه القوي والحاد على اقتلاع الأشياء من الأرض. الفيل حيوان ذكي جدّاً يمكن ترويضه للقيام بعدّة أعمال، كما يقوم بالعديد من الحركات السريعة والعجيبة في السيرك. تعيش الفيلة بصورة جماعية وهذا بدوره دليل على ذكائها. تعمر أحياناً مائة وخمسين سنة! تعرف أسنان الفيل (بالعاج) الذي يعتبر من الأشياء النفيسة والذي تصنع منه أشياء الزينة. كان قدماء الملوك والسلاطين عادة ما يشكلون جيشاً من الفيلة ويزينون فيلتهم وينصبون عليها الأعلام. نعم؛ عجائب الحيتان والفيلة أكبر من أن تختصر في هذا البحث، وغرض الإمامعليه السلام من التطرق إلى هذه الخصاص إلفات الإنتباه إلى آيات الخلقة العظيمة[1].

---

١. «الموسوعة» المسماة (موسوعة ومفردات قاموس عميد).

القسم السابع

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي ٱصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ ٱلْمِسْكِ عَلَىٰ سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَىٰ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَىٰ مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَىٰ نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ ٱلْمُصَفَّقَةِ، وَٱلْخُمُورِ ٱلْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ ٱلْكَرَامَةُ تَتَمَادَىٰ بِهِمْ حَتَّىٰ حَلُّوا دَارَ ٱلْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ ٱلْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا ٱلْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَىٰ مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَنَاظِرِ ٱلْمُونِقَةِ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا إِلَىٰ مُجَاوَرَةِ أَهْلِ ٱلْقُبُورِ ٱسْتِعْجَالاً بِهَا. جَعَلَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَىٰ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ مَنَازِلِ ٱلْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير

نعم الجنّة ومفاتنها

يشير هذا المقطع من الخطبة كما يفهم من مضمونه وصرح به السيد الرضي إلى صفات الجنّة، وبالطبع فإنّ هنالك مطالب أخرىٰ بين هذا المقطع وما سبقه إلّا أنّ السيد اقتطف هذه الرياحين كعادته، لكن يبدو أنّ الإمام تحدث سابقاً عن التوحيد، بينما تطرق هنا إلى المعاد، ليتكامل مبحث المبدأ والمعاد، أو بعبارة أخرىٰ يعرض لنعم الجنّة بعد هذه الدنيا. فقال : «فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا

لَعَزَفَتْ[١] نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ[٢] بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ[٣] أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ[٤] الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا».

وما أنّ فرغ الإمام عليه السلام من وصف الأشجار في الجنّة، حتى تطرق إلى ثمارها فقال: «وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ[٥] اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا[٦] وَأَفْنَانِهَا[٧]، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ[٨] أَكْمَامِهَا[٩]، تُجْنَى[١٠] مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا».

إنّ أحد معضلات أشجار الفاكهة في الدنيا يكمن في جنيها الذي ينطوي على متاعب جمة، إلى درجة أنّ البعض يتسلق الشجرة لعملية الجني، فيفقد حياته. هذه هي طبيعة الدنيا في مزج اللذّة بالألم، أمّا في الجنّة حيث لا موضع للألم وكل شيء على ما يرام وطبق المراد فإنّ ثمار الأشجار في متناول الجميع، وعلى كل حال، سوى الوقوف أو الجلوس، بل على أساس بعض الروايات أنّ غصون الشجرة تحضر بثمارها عند الشخص كلما اشتهاها: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[١١]، وفي آية أخرى:

---

١. «عزفت» من مادة (عزف)، على وزن حذف، الترك والانصراف عن شيء، كما وردت بمعنى اللعب واللهو.
٢. «ذهلت» من مادة (ذهل)، بمعنى غفلة العقل وترك الشيء ونسيانه.
٣. «اصطفاق» بمعنى اضطراب شيء بحيث يحدث صوتاً كالتصفيق أو تضارب أوراق الأشجار.
٤. «كثبان» جمع كثيب، بمعنى التل، من مادة (كثب)، على وزن حرب، بمعنى الجمع.
٥. «كبائس» جمع كباسة، على وزن حماية، بمعنى عنقود الفاكهة وما شابهه.
٦. «عساليج» جمع عسلوج، على وزن بهلول، بمعنى غصن الشجرة.
٧. «أفنان» جمع فن وفنن، على وزن قلم، بمعنى الغصن الطري المليء بالأوراق، ويقال الفنون لمختلف فروع العلم والمعرفة والصناعة وما شاكل ذلك.
٨. «غلف» جمع غلاف، من مادة (غلف)، على وزن قصر، بمعنى الغطاء.
٩. «اكمام» جمع كم، على وزن جن، بمعنى الوعاء الذي يغطي الفاكهة، وجمع كم على وزن أم بمعنى الردن التي تغطي اليد.
١٠. «تجني» من مادة (جني) على وزن نهي، بمعنى قطف الثمار.
١١. سورة الحاقة، الآية ٢٣.

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[١].

ثم خاض الامام عليه السلام في النعمة الأخرى في الجنّة فقال: «وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ[٢] قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ[٣]». وقد أشار القرآن إلى الشراب الطهور اللذيذ في الجنّة الذي لا يصيب الرأس بالصداع ولا يذهب بعقل الانسان، ومن ذلك ما ورد في سورة الدهر التي أشارت إلى هذا الشراب اللذيذ وأربع صور وطبائع: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ... * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾[٤] وقال في موضع آخر: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[٥].

ثم أشار عليه السلام إلى أوصاف الجنّة فقال: «قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ[٦] الأَسْفَارِ». ويستفاد من هذه العبارة أنّ أصحاب الجنّة حفظوا قدسيتهم وطهارتهم وورعهم إلى آخر عمرهم ولم يخدشوا الكرامة الانسانية التي أشارت إليها الآية القرآنية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾[٧] فلقوا ربّهم على الايمان والعمل الصالح الذي ملأ كيانهم، كما تفيد العبارة، التأكيد على حسن العاقبة وأنّ كل شيء يتوقف على خاتمة الأمور والأعمال. وأخيراً يشعل في قلوب الآخرين شعلة الشوق إلى لقاء اللطف الالهي ونعمه التي لا تحصى في ذلك العالم: «فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ[٨]،

---

١. سورة الرحمن، الآية ٥٤.

٢. «افنية» جمع فناء، على وزن غناء، بمعنى الساحة ومقدمة الدار.

٣. «مروقة» بمعنى المصفاة، من مادة (روق).

٤. سورة الدهر، ٥ و٦ و١٧ و١٨ و٢١.

٥. سورة الواقعة، الآية ١٩.

٦. «نقلة» من النقل وتأتي أحياناً بمعنى النميمة.

٧. سورة الاسراء، الآية ٧٠.

٨. «مونقة» بمعنى المعجبة، من مادة (أنق)، على وزن شفق، الإعجاب بالشيء.

لَزَهِقَتْ[١] نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا إِلَىٰ مُجَاوَرَةِ أَهْلِ ٱلْقُبُورِ ٱسْتِعْجَالاً بِهَا». أراد الإمام عليه السلام أن يؤكد في هذا الكلام على حقيقة هي أنّ عظمة نعم الجنّة أكبر من أن يحيطها وصف الإنسان، ولو تأملها الإنسان لذاب شوقاً إليها وكأنّه يروم التحليق إليها، كما ورد ذلك في خطبة المتقين: «فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً»[٢].

وهكذا اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء: «جَعَلَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَىٰ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ مَنَازِلِ ٱلْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ». إشارة إلى أنّ الإنسان لا يبلغ شيئاً دون أن تشمله رحمة الله.

تفسير بعض الكلمات الصعبة في الخطبة (من جانب الشريف الرضي):

قال السيد الشريف الرضي في آخر هذه الخطبة:

قَوْلُهُ عليه السلام: «يَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ» الْأَرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ، يُقَالُ: أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يَؤُرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا. وَقَوْلُهُ عليه السلام: «كَأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ» الْقَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَدَارِيٌّ: مَنْسُوبٌ إِلَى دَارِينَ، وَهِيَ بَلْدَةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجْلَبُ مِنْهَا الطِّيبُ. وَعَنَجَهُ: أَيْ عَطَفَهُ. يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ ـ كَنَصَرْتُ ـ أَعْنُجُهَا» عَنْجاً إِذَا عَطَفْتُهَا. وَالنُّوتِيُّ: الْمَلَّاحُ. وَقَوْلُهُ عليه السلام: «ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ» أَرَادَ جَانِبَيْ جُفُونِهِ. وَالضَّفَّتَانِ: الْجَانِبَانِ. وَقَوْلُهُ عليه السلام: «وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ» الْفِلَذُ: جَمْعُ فِلْذَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ. وَقَوْلُهُ عليه السلام: «كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ» الْكِبَاسَةُ: الْعِذْقُ وَالْعَسَالِيجُ: الْغُصُونُ، وَاحِدُهَا عُسْلُوجٌ.

تأمّل

أيّها أجمل؟

تحدث الإمام عليه السلام بكل فصاحته وبلاغته المعهودة في هذه الخطبة عن جمال هذا

---

١. «زهقت» من مادة (زهوق) على وزن غروب، بمعنى الهلكة.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

العالم أحياناً، وأحياناً أخرىٰ عن جمالية العالم الآخر، لكنه ما أن يبلغ شرح نعم الآخرة حتى يشير إلى هذه الحقيقة وهي أنّ ما يتعلق بذلك العالم يتعذر بيانه، بحيث لو يراه الإنسان لتمنى المسارعة إليه. حقّاً أنّ آداب الحياة الدنيا لا يسعها شرح الحياة الآخرة، وذلك أشبه بأن يسجن الإنسان منذ ولادته في غرفة ولما اكتمل عقله أرادوا أن يشرحوا له المناظر الجميلة المتناثرة في الحدائق والبساتين والشلالات ومختلف الأماكن الطبيعية الرائقة، يحدثوه عن الطاووس وألوانه الجميلة وأصوات الطيور العذبة، والفاكهة الذيذة وسائر المناظر الخلابة، فبالطبع لا تسعفه الآداب التي تعلمها في تلك الغرفة المظلمة لأن يفهم ما يسمع. الجدير بالذكر أنّ الإمام ينظر إلى نعم الآخرة من زوايا مختلفة، فتارة من زاوية حظ البصر وأخرىٰ من خلال الفواكه الذيذة والثمار الطبيعية، وأحياناً من خلال الضيافة المفعمة بالكرامة والاجلال، والأخرىٰ عن الأمن والسكينة التي تسود الجنّة. فليس هنالك من مرض ولا تعب ولا إرهاق ولا موت ولا سلطان ظالم ولا خيانة ولا مكر ولا غدر ولا حرب وخراب ودمار، بل الحاكم هو الإمن والأمان والسلام.

عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا حَوَّطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَغَرَسَ غَرْسَهَا قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. فَقَالَ: طُوبَىٰ لَكَ مَنْزِلَ الْمُلُوكِ»[1].

وعن عبد الله بن جابر الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَىٰ: أَتُحِبُّونَ أَنْ لَذِيذَكُمْ فَيَقُولُونَ: وَهَلْ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ رِضْوَانِي أَكْبَرُ»[2].

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٨٠.

٢. المصدر السابق.

١٦٦

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة[1]

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: حثّ الإمام عليه السلام في القسم الأول الناس على احترام بعضهم البعض الآخر ويتبع الصغير الكبير ويراف الكبير بالصغير ولا يكونوا كجفاة الجاهلية. وأخبر في القسم الثاني عن مصير بني أمية الذين يستولون على كل شيء بفعل فرقة المسلمين وابتعادهم عن أصالتهم، وسيصلون إلى أقصى مناطق البلاد الإسلامية، إلّا أنّهم لا يلبثون كثيراً حتى يفقدون كل شيء.

وأخبر في القسم الثالث عن عوامل تخلف المسلمين في آخر الزمان وفي مقدمتها عدم نصرة الحق والوقوف بجانب الإمام العادل.

---

١. سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة قبل المرحوم السيد الرضي، مسلم ابن قيس في كتابه، كما روى صاحب الكافي جوانب منها في الجزء الثامن، وقال صاحب مصادر نهج البلاغة يستفاد من رواية الكافي والشيخ المفيد في الإرشاد أنّ هذه الخطبة وما ورد في الخطبة ٨٦ (طبق نسخة صبحي الصالح ٨٨) خطبة واحدة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٣).

القسم الأول

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً.

الشرح والتفسير

ثلاث وصايا أخلاقية

أورد الإمام في هذه العبارات القصيرة العميقة المعنى ثلاث وصايا أخلاقية واجتماعية مهمّة يؤدّي العمل بها إلى تماسك عرى المجتمع، فقال في الأولى: «لِيَتَأَسَّ[1] صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ». ذلك لأنّ الكبير عادة سلسلة من التجارب وقد ذاق حلاوة الدنيا ومرارتها ووقف على خيرها وشرّها، أضف إلى ذلك فقد اجتاز هذا الكبير عصر الفتوة بنشاطه وحيويته ويشعر الآن بنوع من الاستقرار الأخلاقي وقد تعرف على الآداب والأعراف الاجتماعية، ولا يمكن التنكر لهذه الحقيقة، بالرغم من أنّ هذه ليست قاعدة كلية ولا تخلو من الاستثناء.

الوصية الثانية «وَلْيَرْأَفْ[2] كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ» فيتلافى ضعفهم وينقل إليهم تجاربه ويتغاضى قدر المستطاع عن أخطائهم ويقف في كل الأحوال إلى جانبهم. ولو كان هناك التزام بهاتين الوصيتين لتوطدت العلاقات بين الجيل القديم والحديث بما يجعلهم يشكلون جبهة واحدة رصينة الصفوف. وإلّا فليس هنالك سوى احتدام

---

١. «ليتاس» من مادة (أسوة) على وزن عروة، بمعنى اتباع الغير والاقتداء به.

٢. «ليرأف» من مادة (رأفة) بمعنى العطف والشفقة.

النزاع بينهما بما يعكر صفو المجتمع.

أمّا الوصية الثالثة والتي تمثل في الواقع تأكيداً للوصايا السابقة: «وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ[1] الْجَاهِلِيَّةِ: لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ». نعم، فالجهال لم ينفتحوا على التربية الدينية ولم يستعينوا بعقولهم، فهم زمرة فضة متحللة تهد كيان المجتمع، لا ترحم الصغير ولا تتعظ بنصائح الكبير.

ثم خاض عليه‌السلام في هذه الفئة فقال على سبيل التمثيل: «كَقَيْضِ[2] بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ[3] يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا[4] شَرّاً». إشارة إلى الحذر من كون ظاهركم الإسلام وباطنكم كجفاة العصر الجاهلي بحيث يشك الصالحون بكم حين التعامل، فلو عاملوكم بصدق وأمانة خشوا من باطنكم الذي تشم منه رائحة النفاق، وإن عاملوكم كمنافقين خشوا أن يكون باطنكم طاهراً. من المعروف أنّ النعامة تحفر الرمل وتبيض هناك وهكذا تفعل الحية والأفعى، ومن هنا فإنّ الإنسان حين يرى هذه البيضة لا يعلم هل هي للأفعى تعود أم النعامة؟ فيشك في التعامل معها! وبعبارة أخرى أنّ صورة الإنسان الجافي صورة إنسان إلّا أنّ باطنه مملوء بالشر والفساد، كالبيضة التي صورتها بيضة الطيور وباطنها حية قاتلة. وعلى هذا الضوء فقد رسم الإمام عليه‌السلام بهذا التشبيه الرائع صورة واضحة للمشاكل التي تفرزها التعامل مع الفرد المنافق.

⁂

---

١. «جفاة» جمع جافٍ، من مادة (جفاء)، بمعنى الغلظة، ويقال للشخص العنيف، الجافي.

٢. «قيض» قشرة البيضة، وتأتي بمعنى كسر البيضة أيضاً.

٣. «أداح» جمع دُحي، على وزن نَهي، بمعنى مبيض الانعام في الرمال، ومن مادة (دحو) على وزن سهو، بمعنى السعة.

٤. «حضان» بمعنى البيض تحت بطن الطائر ليفقس عن فرخ، ومن مادة (حضانة) بمعنى ما تحت الجناح والريش.

القسم الثاني

اَفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَ تَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالَ مَعَهُ. عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلَاحِدَابُ أَرْضٍ. يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَ ٱيْمُ اللهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَ التَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

الشرح والتفسير

المصير الأسود لبني أمية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى المصير الباهر لأصحابه إلى جانب النهاية المفجعة فقال: «اَفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ» فمنهم من التحق بالخوارج وقف في وجه الإمام عليه السلام ومنهم من أصابه الشك واعتزل عن الجماعة، ومع ذلك فإنّ هناك بعض أصحابه «فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالَ مَعَهُ». فهذه إشارة إلى طائفة ثبتت على الحق وتمسكت بالثقلين (الكتاب والعترة) وتعلقوا بغصن شجرة النبوة المتمثل بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فانطلقوا خلفهم لرضى الله. نعم؛ ذهب البعض إلى أنّ هذه العبارة إشارة إلى فئة منحرفة أيضاً. والحال تفيد العبارات القادمة أنّ المعنى الأول هو الصحيح. لأنّ الإمام قال لاحقاً: «عَلَىٰ أَنَّ اللهَ

تَعَالَىٰ سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ[١] الْخَرِيفِ[٢]». ثم قال: «يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً[٣] كَرُكَامِ السَّحَابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً».

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين كيف سيواجه اتباع أهل البيت عليهم السلام ظلمة بني أمية فقال: «يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ[٤] كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ[٥]، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ[٦]، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ[٧] رَصٌّ[٨] طَوْدٍ[٩]، وَلَا حِدَابُ[١٠] أَرْضٍ». ما ورد في هذه العبارة إشارة إلى قوم سبأ الذين عاشوا في اليمن وبنوا سداً عظيماً بين جبلين يعرف بسد مارب منعوا السيول واستفادوا من ماء السد في بناء جنتين عظيمتين على جانبي نهر كان يجري هناك، فعاشوا حياة مرفهة وادعة، إلّا أنّ جحودهم وبطر نعمتهم وغرورهم عرّضهم لأليم العقاب.

إنهار السد عند الليل فأتى السيل على جنّتيهم وأحال أرضهم خراباً فاضطر من تبقى منهم للهجرة. وسيكون أتباع أهل البيت عليهم السلام بمثابة السيل الذي يدمر ظلمة بني أمية ويخربون بيوتهم ويقضون عليهم ويهاجر من يبقى منهم.

ثم شبه الإمام عليه السلام هذه الجماعة المدافعة عن الحق فيما بعد زوال بني أمية بالماء المطمور في الأرض والذي ينبع كعيون جارية في البناء والعمران، فقال: «يُذَعْذِعُهُمُ[١١] اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ[١٢]، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ

---

١. «قزع» جمع قزعة، على وزن ثمرة، بمعنى قطعة من السحاب، كما تطلق على الأشياء التي لها قطع متناثرة.

٢. «الخريف» هو أحد فصول السنة المعروفة.

٣. «ركام» من مادة (ركم) على وزن مكر، بمعنى الأشياء المتراكمة.

٤. «مستثار» بمعنى موضع الغليان والخروج، من مادة (ثور)، على وزن فور، بمعنى الهيجان.

٥. قارة بمعنى الجبل الصغير.

٦. «أكمة» بمعنى التل والهضبة.

٧. «سنن الطرق» بمعنى المسير المادي والمعنوي.

٨. «رص» من مادة (رصاص) بمعنى المحكم.

٩. «طود» بمعنى الجبل العظيم.

١٠. «حداب» جمع حدب، على وزن هدف، بمعنى الأرض المرتفعة.

١١. «يذعذع» من مادة (ذعذعة) بمعنى التفرق.

١٢. «أودية» جمع وادٍ، معروف.

قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ». ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة احتمالاً آخر لتفسير العبارة المذكورة ومرجع الضمائر، ولا نرى حاجة لذكره سيما لعدم انسجامه مع العبارات السابقة واللاحقة. نعم؛ فأتباع أهل البيت عليهم السلام ينطلقون بادىء الأمر كالسيل الذي يحطم قصور بني أمية كما حطم السيل عروش الظلمة في سبأ، وسيطيحون بدولتهم، فيتفرقون في كل مكان ويكونوا كعيون الماء في إقامتهم للعدل والقسط.

وأخيراً أقسم الإمام عليه السلام قائلاً: «وَايْمُ اللهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الأَلْيَةُ[1] عَلَى النَّارِ». والتشبيه المذكور إشارة إلى أنّ بني أمية وإن ترهلوا على عهد حكومتهم، إلّا أنّ أعداءهم سيكونون عليهم كالنار فيذيبون أجسادهم كما يذاب الشحم في النار، يذوب أولاً ثم يحترق ولا تبقى له باقية. وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة بشأن من يسلط على بني أمية ويطيح بحكومتهم الظالمة وينتصر للمظلوم منهم؛ قيل المراد بهم بنو عباس، وقيل الشيعة الذين قاموا ضد بني أمية، والظاهر أنّ كلاهما يعود إلى معني واحد، لأننا نعلم أنّ قيام بني العباس انطلق باسم العلويين وإن انحرف عن مساره وجعلوه لبني العباس خاصة فساروا على نهج بني أمية حتى قضي عليهم.

تأمل

ثورات دامية ضد بني أمية

دوّت أصداء شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه في كربلاء في أرجاء العالم الإسلامي وألبّت العديد من المسلمين على بني أمية. وقد نال أغلبهم الشهادة بسبب سطوة بني أمية، بينما انتصر البعض الآخر لمدّة قصيرة. وقد ذكرنا هذه الثورات التي

---

١. «الألية» بمعنى الشحم المعروف.

بلغ عددها خمسة عشر في الجزء الثالث من هذا الكتاب،[١] وكان آخرها قيام أبو مسلم الخراساني والذي أدّى إلى سقوط دولة بني أمية. وخلافاً لما يتصوره البعض فإنّ أبا مسلم وصحبه لم يثوروا لأجل بني عباس، بل اجتمع بادىء الأمر عدد من زعماء الشيعة عند أبي‌مسلم ـ وكان رجلاً شجاعاً ـ في خراسان وعزموا على مواجهة آخر خلفاء بني‌أمية (مروان الحمار) وإقامة حكومة آل محمد وكان شعارهم «الرضا لآل محمد» ولم تمض مدّة حتى سيطر أبو مسلم على خراسان وأغلب مناطق إيران. ورغم محاولة إبراهيم الإمام وهو من بني العباس للتقرب منه وكذلك عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور ـ وكلاهما أخ لإبراهيم الإمام ـ إلّا أنّه لم يرض بذلك. ومن هنا قام عامله على الكوفة أبو سلمة حين وصله الأخوة الثلاثة باخفائهم في موضع ليتزعم المسلمين أحد أبناء علي عليه السلام فبعث بثلاثة كتب إلى المدينة؛ إلى الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بن الحسن وعمر بن علي بن الحسين وأوصى رسوله أن يبتدىء بالصادق عليه السلام فإن وافق لا يسلم الرسالتين. وحيث كان الإمام عليه السلام يعلم بالمؤامرات الخفية حتى على أبي مسلم فلم يجب الدعوة، وهكذا عبد الله وعمر تبعاً للإمام الصادق عليه السلام. لكن قبل أن يعود رسول أبي سلمة إلى الكوفة علم جماعة من أهل خراسان بموضع السفاح وأخويه فبايعوه، فما كان من أبي مسلم إلّا أن إلتحق بهم، حتى وصلت الحكومة لبني العباس بعد قتال شديد بينهم وبين أتباع عبد الله بن علي عم المنصور، فوُلّيَ المنصور الخلافة بعد أبي العباس السفاح، فأحضر أبا مسلم إلى بغداد وقتله وفق خطة معدة سلفاً، لعله كان يعلم بأنّ أبا مسلم من أتباع آل علي عليه السلام لا بني العباس، فكان يراه خطراً يهدد حكومتهم[٢]. ذكر العلّامة المجلسي رواية بهذا الخصوص عن الإمام علي عليه السلام أنّ جيش الشام هجم يوماً في صفين على جند العراق ففرقهم عن

---

١. نفحات الولاية، ج ٣، ص ٣٥٨-٣٦٠.

٢. راجع كتاب المعارف والمصاريف، ج ١، ص ٤٨١ والموسوعة الإسلامية الكبرى، ج ٦، ص ٢٢٧.

ميمنتهم وكان مالك الأشتر (رضوان الله تعالى عليه) يدعوهم إلى الرجوع. فكان الإمامعليه السلام يصيح في وجه جيش الشام: خذهم يا أبا مسلم ويكرر ذلك ثلاثاً. فقال الأشتر: أوَليس أبو مسلم في جيش الشام؟ قال الإمامعليه السلام: لا أقصد أبا مسلم الخولاني، بل أبا مسلم رجل يظهر من مشرق الأرض يهلك الله الأمويين على يده ويطيح بدولتهم[١]. طبعاً شخصية أبي مسلم وإن كانت تعيش نوعاً من التعقيد على ضوء النظرة التاريخية، إلّا أنّ هنالك من يراه من أتباع أهل البيتعليهم السلام ويكنون له الاحترام، وعلى العكس، هنالك من يراه من أعدائهم ويقول بجواز لعنه. والمسلّم به أنّ قيامه كان في بادىء الأمر لنصرة آل محمد وكان أنصاره من الشيعة.

٨٠٠٣

---

١. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣١٠.

القسم الثالث

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ. لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاِعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الشرح والتفسير

عامل التخلف

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ـ الذي هو آخرها ـ بعد بيانه لمصير بني أمية الأسود في بيان مصير فئة من أتباع الحق التي ضعفت عن نصرته فتسلط عليها عدوها فكانت عاقبتها كعاقبة بني إسرائيل، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ». هذا الكلام إشارة إلى حكومة معاوية وتسلطه وصحبه على أصحاب الإمام عليه السلام على عهده (بصورة محدودة) ومن بعده (دون حدود). وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارة لا يختص بزمان ومكان معين، بل هو أصل كلّي للأعصار والأمصار كافة في أن تنامي الباطل معلول لضعف أتباع الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه بتشبيه تلك الفئة ببني إسرائيل أثر إبتعادهم عن الحق وتيههم

(في صحراء سيناء) فقال: «لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ[1] مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً[2] بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ». ثم أوضح في الختام سبيل النجاة وذكرهم بأنّ باب العودة إلى الحق مفتوح على الدوام فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ[3]، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ[4] عَنِ الْأَعْنَاقِ».

تأمل

بنو اسرائيل...

شبه الإمام عليه السلام بالعبارة المذكورة طائفة من المسلمين الذين حادوا عن الحق واحتاروا كبني إسرائيل الذين تاهوا في الصحراء أثر عنادهم وعدم استجابتهم لنبيهم موسى عليه السلام، بجهاد غاصبي بيت المقدس. وقد نقل بعض شرّاح نهج البلاغة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لتركبنّ سنَنَ مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جُحر ضبّ ضبّ لدخلتموه، فقيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن»[5]. وبغض النظر عن الإشكال الذي يرد على اسناد الرواية، فإنّ تطبيقها على الواقع لا يخلو من إشكال أيضاً، وعلى فرض صحة الرواية فإنّه يمكن حملها على الغالب. إشارة إلى أنّ أغلب الحوادث المريرة التي شهدتها الأقوام السابقة سيشهدها المسلمون، ويعيد التاريخ نفسه، ذلك لأنّ الأسباب المتشابهة تتطلب مسببات متشابهة.

---

١. «تهتم ومتاه» كلاهما من مادة (تيه)، تعني في الأصل الزهو والتكبر، ثم استعملت بمعنى الحيرة والضلال عن الطريق وهذا هو المراد بها في العبارة، أي احترتم كحيرة بني إسرائيل (متاه مصدر ميمي).

٢. «أضعاف» جمع ضعف، على وزن فعل، معروف.

٣. «اعتساف» من مادة (عسف) على وزن وصف، بمعنى الضلال.

٤. «فادح» بمعنى ثقيل وشاق، وهي هنا تأكيد لكلمة ثقل.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٨٦؛ منهاج البراعة، ج ١٠، ص ٨٣.

١٦٧

ومن خطبة له عليه السلام

فِي أوائِلِ خِلَافَتِهِ[1]

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة عدّة مواضع وإرشادات بحيث ربّما يُتصور عدم وجود الترابط بين أقسام الخطبة، ولعل المرحوم السيد الرضي اقتطف هذه الخطبة من خطبة أطول خطبها الإمام أوائل خلافته.

على كل حال فإنّ الخطبة تتكون من خمسة أقسام رئيسية:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة القرآن الكريم وهدايته والتأكيد على اتّباعه.

القسم الثاني: التأكيد على إتيان الفرائض والعمل بالواجبات وترك المحرمات.

القسم الثالث: أهميّة حقوق المسلمين وحفظ كرامتهم وترك أذاهم.

القسم الرابع: يوصي فيه الإمام عليه السلام بالاستعداد للموت والقيامة والتزود للآخرة.

القسم الخامس: التأكيد على التقوى وطاعة الله.

---

١. سند الخطبة:

قال المرحوم عبد الزهراء الحسيني: لم أعثر في كتاب مصادر نهج البلاغة على سند قبل السيد الرضي للخطبة سوى ما ذكره المؤرخ الطبري في حوادث سنة ٣٥ هجرية (ج ٥، ص ١٥٧). وينبغي الإلتفات إلى أنّ بعض هذه الخطبة مر سابقاً في الخطبة ٢١.

القسم الأول

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

الشرح والتفسير

معرفة سبيل الحق

أكد الإمام على ضرورة الالتزام بالقرآن والعمل بتعاليمه بصفته المصدر الرئيسي للتعاليم الإسلامية وتبيان كل خير وإحسان، فقال: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ[1] الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا[2] عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا». فهذا الكلام يدل على أنّ جميع أصول الخير والشر والواجبات والمحرمات والفضائل والرذائل والعقائد الصحيحة والمنحرفة إنّما بُيّنت في القرآن الكريم، وهو في الواقع تعبير آخر عن «تبيان كل شيء» الذي ورد في القرآن وإن فوض شرحه إلى سنة المعصومين عليهم السلام.

---

١. «النهج» بمعنى الطريق الواضح، من مادة (نهج)، على وزن خرج، الوضوح.

٢. «اصدفوا» من مادة (صدف) على وزن صبر، بمعنى الإعراض.

ثم أكد الإمام عليه السلام من بين كل الفضائل على الفرائض والواجبات، فقال: «ٱلْفَرَائِضَ ٱلْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَىٰ ٱللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ». إشارة إلى إن الخيرات التي دعى إليها القرآن على نوعين، واجبة وغير واجبة (مستحبات وفضائل) وعليكم قبل كل شيء بأداء الواجبات فإن شعرتم بقوّة فأتوا بالمستحبات؛ ذلك لأنّ ما يأخذ بيد الإنسان قبل كل شيء إلى الجنّة، أداء الفرائض والواجبات. طبعاً الفرائض تشمل العبادات والواجبات الأخرىٰ التي أوجبها الله على الإنسان فيما يتعلق بنفسه أو الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة كأنّها دليل على العبارة السابقة، فقال: «إِنَّ ٱللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ[1]». إنّها عبارة لطيفة تشير إلى مصالح ومفاسد الأحكام الشرعية التي اعتبرها الحكيم في الواجبات والمحرمات، بعبارة أخرىٰ، رغم وجوب طاعة أوامر الله في الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، إلّا أنّ هذه الطاعة ليست عمياء، ذلك لأنّ جميع الواجبات تشتمل على مصالح، بينما تنطوي المحرمات على مفاسد تعود على نفس العباد: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[2] ولما كانت رعاية حقوق المسلمين وحفظ حرمتهم لا تقل أهميّة عن الفرائض والواجبات، فقد قال عليه السلام: «وَفَضَّلَ حُرْمَةَ ٱلْمُسْلِمِ عَلَىٰ ٱلْحُرَمِ[3] كُلِّهَا، وَشَدَّ بِٱلْإِخْلَاصِ وَٱلتَّوْحِيدِ حُقُوقَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا[4]».

إنّ أدنى نظرة إجمالية على الكتب الفقهية كافة ـ من العبادات إلى الحدود والديات ـ لتشهد على صدق هذا المعنى في أنّ الإسلام أولى أهميّة عظيمة لحرمة

---

١. «مدخول» بمعنى معيب، من مادة (دخل) على وزن نخل، بمعنى الفساد من الداخل. ولهذه المفردة معانٍ أخرىٰ منها الدخول في المكان.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٣. «حرم» بفتح الراء، جمع حرمة بمعنى الاحترام، وحرم بضم الراء، جمع حرام بمعنى الممنوع، و«احرام» جمع حرم على وزن قلم، بمعنى الناحية الممنوعة.

٤. «معاقد» جمع (معقد) على وزن مجلس، بمعنى موضع اغلاق الشيء، كالحزام الذي يربط الظهر، وفي العبارة إشارة إلى رابطة الإخلاص والتوحيد لحقوق المسلمين.

المسلمين وحقوقهم، حتى وقف الإمام الكاظم عليه السلام أمام الكعبة، وقال: «مَا أَعْظَمَ حَقَّكِ يَا كَعْبَةُ وَاللهِ إِنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ لَأَعْظَمُ مِنْ حَقِّكِ»[1] وعبارة الإمام عليه السلام تشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ الإنسان الموحد والمخلص من يراعي حقوق المسلمين، وهذا ما قال به أغلب شرّاح نهج البلاغة، كما يحتمل أن يكون المراد ضرورة حرمة حقوق كل مسلم، لا إخلاصه وتوحيده (الإخلاص والتوحيد في التفسير الأول صفة للمحافظين وصفة للمحفوظين في التفسير الثاني). التفسير الثالث أن يكون احترام حقوق المسلمين في مصاف الإخلاص والتوحيد.

ثم أضاف عليه السلام كنتيجة «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ». فاستنتاج الإمام عليه السلام هذا يفيد أنّ التفسير الأول هو الأنسب للعبارة السابقة من التفاسير الأخرى، لأننا إن اعتبرنا حفظ حقوق المسلمين علامة إخلاص وتوحيد الحافظين لهذه الحقوق فإنّ نتيجة ذلك ستكون: المسلم من سلم الناس من لسانه ويده. جدير بالذكر أنّ العبارة «إِلَّا بِالْحَقِّ» والأخرى «إِلَّا بِمَا يَجِبُ» أن تكون الأولى: إشارة إلى عدم جواز أذى المسلمين ما لم يكن هنالك من مجوز من قبيل العقوبات والحدود الإسلامية والتعزيرات، والثانية: إشارة إلى الإكتفاء بالمقدار الذي أجازه الله من حيث الكمية والكيفية على فرض الجواز. ورد في بعض الروايات أنّ قنبراً ورغم مكانته عند الإمام عليه السلام غلط في حدّ رجل فأضاف ثلاثاً، فأخذ الإمام عليه السلام بالقصاص منه: «إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَ قَنْبَراً أَنْ يَضْرِبَ رَجُلاً حَدّاً فَغَلِطَ قَنْبَرٌ فَزَادَهُ ثَلَاثَةَ أَسْوَاطٍ فَأَقَادَهُ عَلِيٌّ عليه السلام مِنْ قَنْبَرٍ بِثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ»[2].

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٧.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣١٢ (الحديث الثالث من الباب الثالث من أبواب مقدمات الحدود).

القسم الثاني

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ. أَطِيعُوا اللهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح والتفسير

المسؤولية الشاملة

واصل الإمام عليه السلام مواعظه السابقة بتذكير القوم بالموت والتأكيد على الورع والتقوى أفضل زاد إلى الآخرة فقال: «بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ[1] مِنْ خَلْفِكُمْ». المراد من الأمر العام والخاص الموت، لأننا إذا نظرنا إلى عامة المجتمع البشري نرى الموت مصير الجميع، وعليه فللموت بعد عام، وإن نظرنا لأنفسنا فقط فإننا نرى الموت حاضراً آخر أعمارنا، فله على هذا الأساس بعد خاص. واستناداً إلى تفسير الإمام عليه السلام بقوله: «وَهُوَ الْمَوْتُ»[2] فلا يبقى مجال للشك في تفسيرنا، والعجيب ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغة من تفسيرهم للعبارة «بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ» بإصلاح شؤون

---

1. «تحدوا» من مادة (حدو) حدي، على وزن حَذو، بمعنى طرد الشر أو الصوت الخاص للحادي ثم أطلق على كل سوق.

2. لابدّ من الالتفات إلى أنّ الضمير «هو» مذكر يعود إلى أمر وعليه لابدّ أن تكون خاصة مجرورة لا مفتوحة كما ورد في النص.

المجتمع. العبارات القادمة أيضاً تشير إلى أنّ ما ورد في هذه العبارة يتعلق بالموت ونهاية الحياة، لا إصلاح المجتمع البشري والذي يعتبره مقولة أخرى. نعم؛ هنالك دليلان على حقانية الموت ـ على أنّه قانون عام ـ أحدهما: إننا نرى بأم أعيننا الأفراد الذين كانوا سابقاً بيننا وقد التحقوا بهذه القافلة ونحمل أجسادهم الخالية من الروح على أكتافنا ونواريهم الثرى ونعود، فهل من فارق بيننا وبينهم أنّهم يمضون ونبقى؟!

والآخر: إنّ علامات الحركة باتجاه نهاية حياتنا الواحد بعد الآخر واضحة من قبيل الشيخوخة والعجز والمشيب وكسل الاعضاء. فهل يسع عاقل بعد هذين الدليلين أن يشعر باستثناء من هذا القانون؟

ثم خاض الإمام عليه السلام في هذه النتيجة بناءً على ما ورد في السابق وطالما كان الأمر كذلك قال: «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ». أجل، إنّ سفر الآخرة سفر شاق ومتعب ولا يجتاز مطباته سوى المخفين، أولئك الذين قنعوا بالكفاف في الحياة الدنيا وغضوا الطرف عن جمع الثروة والعيش الرغيد المليء بالكماليات، على غرار المسافر الذي يحمل معه ما يكفيه من الطعام للسفر فيسير بسهولة، بينما لا يسع المثقل إلّا التخلف عن الركب والقافلة. روى المرحوم السيد الرضي، العبارة الأخيرة باختلاف طفيف في الخطبة ٢١ وقال: إنّ العبارة «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا» ما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة. وقد قدمنا من جانبنا شرحاً وافياً بهذا الشأن[١]. وحيث يتطلب سفر الآخرة زاداً ومتاعاً وخيره التقوى على لسان القرآن: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٢].

فقد واصل الإمام عليه السلام كلامه داعياً الجميع إلى التقوى فقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ[٣] وَالْبَهَائِمِ[٤]».

---

١. نفحات الولاية، ج ٢، ص ٥.

٢. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٣. «بقاع» جمع (بقعة) بمعنى مساحة من الأرض متميزة عنها، ووردت في العبارة بمعنى مطلق الأرض العامرة.

٤. «بهائم» جمع (بهيمة) بمعنى الحيوانات، ويشتمل السباع والطيور.

ومفهوم التقوى في العباد واضح يتمثل في ترك آذاهم وحفظ حقوقهم ورعاية حرماتهم، أمّا تقوى البلاد فالسعي لإعمارها واجتناب تخريبها وعدم تلويث محيطها. وأمّا المسؤولية إزاء البهائم وعدم إيذائها عبثاً وتحميلها فوق طاقتها وتوفير متطلباتها من الغذاء والماء والدواء، وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم للمسؤولية في البقاع في عدم السكن في بلدان الكفر التي يتعذر فيها القيام بالوظائف الدينية وعدم تشييد القصور الضخمة للتطاول على الآخرين وحب الظهور. إلّا أنّ الصحيح ما أوردناه من تفسير، والشاهد على ذلك، الروايات التي سنذكرها في المبحث القادم. ولما كان مفهوم التقوى ربّما يبدو معقداً للبعض فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقته بوضوح، فقال: «أَطِيعُوا اللهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ». والجدير بالذكر أنّ بداية ونهاية الخطبة تتحد في خصوص الخير والشر، حيث أشار في مستهل الخطبة إلى مصدر الخير الذي يكمن في الرجوع إلى القرآن.

تأمّل

سلامة البيئة وحماية الحيوانات في الإسلام

إنّ التطور الصناعي ورغم فوائده الجمّة للبشرية، إلّا أنّه أخذ يهدد بالصميم سلامة البيئة وتلوثها، وهذا ما يهدد بدوره العديد من الكائنات ويعرضها إلى خطر الزوال، وإن استفيد من الأسلحة الفتاكة ولا سيما أسلحة الدمار الشامل فإنّ حجم الكارثة يبدو مفجعاً، ومن هنا هبّ عالمنا المعاصر لأخذ التدابير اللازمة بغية الحفاظ على سلامة البيئة والحيلولة دون انقطاع نسل الحيوانات، على الرغم من العراقيل التي يضعها أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يفكرون سوى في التنمية لثرواتهم فحدّوا من نشاطات الفرق القائمة على أساس تطهير البيئة ولا يعلم بعمق الفاجعة التي ستشهدها الأجيال القادمة. أمّا زعماء الإسلام وحماة الدين فقد أكدوا

على هذا الموضوع قبل ألف سنة، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المذكورة شاهد على ذلك، كما وردت عدّة روايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الخصوص حيث أكدوا على هذه المسألة المهمّة، ومن تلك الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رأى ناقة نائمة وجهازها على ظهرها بينما قيدت رجلها (والحال يجب أن تستريح الدابة فلا يبقى شيء على ظهرها) فقال: «أَيْنَ صَاحِبُهَا؟ مُرُوهُ فَلْيَسْتَعِدَّ غَداً لِلْخُصُومَةِ»[1].

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لَا تَتَوَرَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجَالِسَ»[2] إشارة إلى أنكم إن رأيتم أصحابكم وأنتم على ظهر الدابة فأنزلوا لتتحدثوا معهم فإنّ تمّ حديثكم فاركبوا[3].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةُ حُقُوقٍ لَا يُحَمِّلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يَتَّخِذُ ظَهْرَهَا مَجَالِسَ يَتَحَدَّثُ عَلَيْهَا وَيَبْدَأُ بِعَلَفِهَا إِذَا نَزَلَ وَلَا يَسِمُهَا وَلَا يَضْرِبُهَا فِي وَجْهِهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ»[4]. فهذه الروايات وغيرها تفيد مدى دقة الإسلام في مجال حماية الحيوانات ورعاية حقوقها، ولا نرى دينا كالإسلام أوصى بهذه التعاليم. أمّا بشأن عدم تلويث البيئة فقد ورد النهي عن تلويث مياه الأنهار وكذلك تحت الأشجار المثمرة ومقابل أبواب الدور وموضع نزول القوافل وأطراف المساجد[5]. كما ورد في الوصايا الحربية عدم قطع الأشجار أو حرقها أو ردم عيون الماء والنهي عن تلويث مياه الأعداء[6].

ﮋﮊ

---

١. وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣٩٤.

٢. ورد في بعض المصادر اللغوية أن التورك على الدابة، وضع الرجل على الأخرى فوق سرج الدابة.

٣. اصول الكافي، ج ٦، ص ٥٣٩.

٤. المصدر السابق، ص ٥٣٧، ح ١.

٥. وسائل الشيعة، أحكام الخلوة، الباب ١٥.

٦. المصدر السابق، كتاب الجهاد، الباب ١٦ و ١٥ باب جهاد العدو.

١٦٨

ومن خطبة له عليه السلام

بَعْدَما بُويِعَ بِالْخِلافَةِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَوْ عَاقَبْتَ قَوْماً مِمَّنْ أَجْلَبَ على عُثْمانَ؟ فقال عليه السلام:[١]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإنّ قوماً من الصحابة طلبوا من الإمام عليه السلام بعد أن بويع بالخلافة أن يعاقب أولئك الذين ثاروا على عثمان وقتلوه، فأقنعهم الإمام عليه السلام بأنّ ذلك ليس في أوانه، لأنّهم متّحدون وخلفهم أُناس كثيرون، يقفون بوجه كل من يقف ضدهم ولا يتحرجون من عمل.

***

١. سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذي ذكرها غير نهج البلاغة، تاريخ الطبري في حوادث سنة ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٦).

القسم الأول

يا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَىٰ حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هٰؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَىٰ شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ -إِذَا حُرِّكَ- عَلَىٰ أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَىٰ هٰذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَهْدَأَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً؛ فَاهْدَؤُوا عَنِّي، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ.

الشرح والتفسير

أسباب تأخير عقوبة قتلة عثمان

هذه الخطبة، كما ذكر، ردّ على بعض أصحاب الإمام عليه السلام الذين طالبوه بالقصاص من قتلة عثمان، حيث تطرق إلى هذا الموضوع على ضوء تحليل دقيق، فقال: «يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ». عادة ما يتصور البعض أنّه توصل إلى قضية لو إهتم بها الحاكم لكانت لصالح المجتمع الإسلامي، والواقع أنّهم يرون شيئاً دون ملاحظة ملابساته. فهنالك حالة من الغموض في القضية يجهلونه. ومن هنا أردف الإمام عليه السلام عبارته السابقة بشرح للظروف الاجتماعية

القائمة آنذاك ليتضح لهم عدم عملية اقتراحهم، فقال: «وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ[١] عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!». كيف يمكن الوقوف بوجه فئة متحدة وغاضبة أوائل الخلافة؟ وهل هناك سوى سفك المزيد من الدماء دون جدوى؟! والشاهد على ذلك ما رواه بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام جمع الناس ووعظهم.

ثم قال: «لتقم قتلة عثمان» فقام الجميع سوى قلة قليلة[٢]. ثم أشار عليه السلام إلى نقطة أخرى، فقال: «وَهَاهُمْ هؤُلاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ[٣] مَا شَاؤُوا». يستفاد من هذه العبارات أنّ الثورة ضد عثمان كانت متجذرة وقد أسهم المحرومون فيها بصورة واضحة.

ثم قال عليه السلام «وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!». إشارة إلى أنكم لا تستطيعون القيام بعمل في ظل هذه الظروف ولا أنا. ومارس عليه السلام تحليلاً آخر للتأكيد على هذا الأمر، فقال: «إِنَّ هذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً». إشارة إلى أنّه إن وجب مؤاخذة عثمان لسوء تصرفه في بيت مال المسلمين وتسليطه فساق القوم على رقاب المسلمين وإغداق المناصب عليهم، فلابدّ أن تتمّ من خلال الطرق الشرعية وقضاة العدل، ونتيجة العمل غير المدروس إنّما هو ضرب من ضروب الأنشطة الجاهلية، وقوله: إنّ لهؤلاء القوم مادة، تأكيد لتلك الحقيقة التي ذكرها في العبارة السابقة من أنّ تلك الفئة ليست وحيدة في الساحة، بل يقف خلفها الأعراب وطائفة من الساسة المحترفين المتعطشين للمناصب، وعليه فليس من المصلحة الاصطدام بها.

---

١. «مجلبون» من مادة (جلب) على وزن كلب، بمعنى السوق والطرد وتطلق على الأفراد الذين يغيرون مواقفهم بسهولة، وجلب، على وزن غضب، واجلاب، بمعنى الجمع، ومجلبون، هنا إشارة إلى الثوار الذين جمعوا الناس ضد عثمان.

٢. منهاج البراعة، ج ١٠، ص ١٠٢. روى الحديث المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣.

٣. «يسومونكم» من مادة (سوم) على وزن قوم، بمعنى البحث عن الشيء، كما وردت بمعنى تكليف الآخرين بعمل.

كما واصل كلامه بأنّ الاشتباك مع قتلة عثمان يؤدّي إلى تفرقة صفوف المجتمع، فقال: «إِنَّ النَّاسَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ ـ إِذَا حُرِّكَ ـ عَلَىٰ أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَىٰ هٰذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَهْدَأَ[1] النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً[2]».

ثم أورد تأكيداً آخر: «فَاهْدَؤُوا عَنِّي، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ[3] قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً[4]، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً». إشارة إلى أنّ عدم التأني في القضايا الاجتماعية ربّما يعطي نتائج معكوسة، فلا ينبغي القيام بفعل دون توفر شروطه، ذلك لأنّ الاخفاق فيه يؤدّي الذلة والهوان. كما ورد شبيه ذلك في الخطبة الخامسة: «وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ»[5].

وأخيراً اختتم الخطبة بهاتين العبارتين: «وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ[6]». ربّما تكون هذه العبارة بفعل ضغوط طلبة الثأر لدم عثمان، حيث قال عليه السلام: سأصمد ولن ألجأ إلى السيف،لكن إن شعرت بغلق أبواب السلام فسأضطر إلى القوّة وأنهي التمرد. الاحتمال الآخر أنّ هذه العبارة إشارة إلى أولئك الذين تذرّعوا بدم عثمان ليقفوا بوجه الإمام عليه السلام كطلحة والزبير. فصرّح الإمام عليه السلام بأنّه سيعاملهم بالطرق السلمية وإلّا لجأ إلى القوة. طبعاً لا يبدو هذا الاحتمال منسجماً مع الخطبة، حيث لم ترد أدنى إشارة في الكلام إلى طلحة والزبير وأمثالهما، إلّا أن يكون السيد الرضي قد حذف بعض الكلمات، وهذا أيضاً يبدو مستبعداً. أمّا العبارة «فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ» فهو مثل معروف ورد في الأصل بشأن

---

١. «يهدأ» من مادة (هدوء)، معروفة.

٢. «مسمحة» من مادة (سماح وسماحة) السهولة واليسر، وتعني أحياناً السخاء والكرم أو الموافقة، والمعنى الأول هو المراد بها في العبارة.

٣. «تضعضع» من مادة (ضعضعة) بمعنى الهدم والتخريب.

٤. «منّة» بمعنى القوة.

٥. نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٨٩.

٦. «كي» على وزن حي، احراق بدن الإنسان أو الحيوان بحديدة ساخنة وما شابه ذلك.

الجروح الخطيرة حيث كانوا يسلكون عدّة طرق لعلاجها فإن لم تنفع أحرقوا الجرح بحديد ساخن، ثم أصبحت هذه الجملة كناية عن القضايا المشابهة، وعليه تستعمل هذه العبارة حين تغلق الطرق السلمية كافة[١].

تأملان

١. معوقات العدالة

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مطلب جدي، لا كما تصور البعض أنّه يهدف إلى إسكات المقابل. حقاً كان الثائرون على عثمان آنذاك أشداء، حتى لم يجرأ على مجابهتهم حين قتلهم لعثمان بعض الصحابة الموالين له. والأهم من ذلك أنّ معاوية حين تسلّم الخلافة وعبء كل طاقاته للمطالبة بدم عثمان، لم يستطع مواجهة قتلة عثمان فضلاً عن التعرف عليهم، بل لما ورد معاوية المدينة وسيطر على الأوضاع اتّجه إلى دار عثمان، فصاحت بنته عائشة: أينك يا أبي؟ ومرادها الثأر من قتلة عثمان. فرد عليها معاوية بأنّ الناس قد استسلموا لنا وأعطيناهم الأمان وقد حملناهم على الحلم وسيوفنا لم تغمد، فإن نقضنا عهدنا نقضوا عهدهم ولا ندري ينفعنا ذلك أم يضرنا (فالأولى أن نسكت ولا تضعف خلافتنا) وأنت بنت عمّ الخليفة خير لك أن تكوني من عوّام النساء، أي إن زالت خلافتي فسوف لن تكوني أكثر من امرأة عادية[٢].

٢. إشكال الثوار

لا شك في أنّ الثورة التي قامت ضد عثمان كانت متجذرة، ذلك لأنّ أنصار عثمان وبطانته لم يكونوا قلائل في المدينة. لم يتمكنوا من الوقوف بوجههم واكتفى

---

١. قال المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار إنّها وردت في أغلب النسخ: آخر الداء الكي، بمعنى أن ختام الألام الصعبة الحرق، لكن هذا المعنى مستبعد (بحارالأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣).

٢. العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٣.

المهاجرون والأنصار بالنظر إلى الأحداث. وسبب ذلك واضح، فقل من كان راضياً بحكومة عثمان واقتصر هذا على قرابته وبطانته التي عبثت ببيت المال وتسلطت على رقاب الناس. وأنّ كل محقق منصف لا يرى من مبرر لما وقع من أعمال على عهد خلافة عثمان. فقد كان من الأجدر بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يقتادوه إلى القضاء، تجنباً لغضب الأُمّة ومباشرتها لوضع حد لأعمال عثمان. وعليه فالإشكال الرئيسي الذي يرد على الثوار أنّهم تصرفوا بعيداً عن قوانين الإسلام القضائية، وقد لمسنا دور الإمام عليه السلام إبان محاصرة عثمان وامتصاصه لنقمة غضب الناس وأمره الحسن والحسين بالدفاع عن عثمان. ونخلص ممّا سبق إلى أنّ جواب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كان دقيقاً ينسجم وروح الأحكام الشرعية والقضائية في الإسلام.

٭٭٭

١٦٩

ومن خطبة له عليه السلام

عِنْدَ مَسِيرِ أَصْحَابِ الجَمَلِ إِلَى البَصْرَةِ
الأُمورُ الجَامِعَةُ لِلمُسْلِمِينَ[١]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

القسم الأول: دعوة الناس إلى طاعة الحكومة الإسلامية عقب اتباع القرآن الكريم ونبذ البدع المضلة، ويحذرهم من أنّ الله يسلبهم النعمة إن لم يطيعوه، وبالتالي يعدهم لمواجهة الناكثين.

القسم الثاني: أشار فيه إلى اتحاد أعداء الحق رغم اختلافهم وإجماعهم على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وأنّه سيصبر فإن أصرّوا على غرضهم في القضاء على النظام الإسلامي فسأقف بوجههم بكل حزم.

☙❧

١. سند الخطبة:
لم يذكر هذه الخطبة، سوى الطبري في حوادث سنة ٣٦ في تاريخه ج٣، ص٤٦٥ (ذكر الطبري، القسم الأول من الخطبة فقط).

القسم الأول

إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير

القيام أو زوال الحكومة الإسلامية

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين علم باتحاد الناكثين واقامتهم حكومة في البصرة مناوئة لحكومته العادلة عليه السلام وقد انطلقوا إلى البصرة. وهدف الإمام عليه السلام من هذه الخطبة تعبئة الناس لمواجهتهم. دعاهم باديء الأمر إلى التمسك بالقرآن، فقال: «إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ[1]». ثم حذرهم قائلاً: «وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ[2] الْمُشَبَّهَاتِ[3] هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا».

إشارة إلى أنّ رؤوس الفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يسعون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة

---

١. «هالك» من مادة (هلاك) تعني في الأصل الموت والفناء، لكنّها ترد أحياناً بمعنى الهلكة المعنوية وهي الضلال والبؤس والشقاء، والمراد بها في العبارة الهلكة المعنوية، فمعنى لا يهلك عنه إلّا الهالك أنّه لا يضل إلّا من استعد للضلال والهلكة.

٢. «مبتدعات» من مادة (بدع) على وزن بدر، ظهور الشيء دون سابقة، وتطلق في الردّ على ما خالف الكتاب والسنة، وعليه فالمبتدعات الطرق المخالفة للكتاب والسنّة.

٣. «مشبهات» البدع التي تلبس ثوب الدين وتوجب الضلال.

تحت غطاء الإسلام، كأن يغفلوا نكثهم البيعة بالمطالبة بدم عثمان. وعليه، ينبغي التحلي باليقظة وعدم الانخداع بالظواهر والتوكل على الله.

ثم دعاهم إلى الطاعة فقال: «وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ[1] وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ[2] الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ».

نعم، إنّ هذه النعمة عقوبتها الزوال إن لم تُشكر، وهكذا شأن سائر النعم: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3] وما يستفاد من العبارة المذكورة (بناءً على أن «حتى» للغاية) أنّكم إن لم تطيعوا إمام الحق، فإنّ الله يسلبكم نعمة الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم، إلّا أنّ يسلط عليكم العدو وتزول حكومته ثم تعود إليكم. وقد حيرت هذه العبارة الشرّاح، ذلك لأنّ الحكومة غير الصالحة بعد الإمام كانت بيد بني أمية ولم تعد الحكومة بعد بني أمية لأهل البيت عليهم السلام. قال البعض عادت إلى بني العباس وهم من بني هاشم وعليه فقد عادت إلى أهل البيت، إلّا أنّ هذا التفسير غير مستقيم لأنّ ظلم بني العباس لم يكن أقلّ من ظلم بني أمية. واحتمل البعض الآخر أنّ عودة الحكومة إلى أهل البيت عند ظهور ولي العصر أرواحنا فداه. نعم، ليست هنالك من مشكلة إن كانت (حتى) عاطفة بمعنى الواو، لأنّ معنى العبارة سيكون: إن لم تطيعوا إمام الحق سيسلبكم الله الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم وسيكون الأمر لغيركم (طبعاً المراد في المستقبل القريب، وإلّا ليس من شك في المستقبل البعيد لحكومة صاحب العصر والزمان عليه السلام والتي تمثل عودة الحكومة العالمية لأهل البيت عليهم السلام).

---

١. «ملومة» من مادة (لوم) على وزن قوم، معروفة.

٢. «يأرز» من مادة (أرز) على وزن فرض، بمعنى الجمع.

٣. سورة إبراهيم، الآية ٧.

القسم الثاني

إِنَّ هٰؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَىٰ سَخْطَةِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَىٰ جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَىٰ فَيَالَةِ هٰذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح والتفسير

الصبر على الفتنة

بالنظر إلى ورود الخطبة في أوائل خلافة الإمام عليه السلام وإبان السير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل فقد حثّ الإمام عليه السلام أصحابه في القسم الأول، على الطاعة، وحذر هنا، العدو من مغبة مواصلة الفتنة وإلّا سيقف بوجههم بكل ما أوتي من قوّة فقال: «إِنَّ هٰؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَؤُوا[1] عَلَىٰ سَخْطَةِ[2] إِمَارَتِي». إشارة إلى اختلافهم ففيهم المنافق والحسود والضيق الافق (كطلحة والزبير) ولا يجمعهم سوى عدائهم لي.

ثم قال: «وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَىٰ جَمَاعَتِكُمْ». فالعبارة تشير إلى تحمل الإمام عليه السلام لذلك العدو، ويرى عدم ضرورة المبادرة إلى السيف ما لم يكن هناك خطر يهدد الجماعة، وبالطبع، هذا لا يعني أنّ الإمام عليه السلام كان يسكت تجاه كل أعمالهم، ومن هنا قال عليه السلام «فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَىٰ فَيَالَةِ[3] هٰذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ». ثم

---

١. «تمالؤوا» من مادة (ملائة) تعاونوا على أمر، وعليه فمفهوم تمالؤوا أنّهم اتحدوا وتعاونوا.

٢. «سخطة وسخط» بمعنى واحد الغضب.

٣. «فيالة» ضعف الفكر.

قال: «وَإِنَّمَا طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ ٱلأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبَارِهَا». فقد أخرج رسول الله ﷺ الحكومة من صورتها الدنيوية والمادية ومنحها صبغة ربانية بجهود الأولياء والأصفياء، إلّا أنّ أصحاب الجمل يظنون أنّ الحكومة لقمة سائغة وطعمة هنيئة فيصرون على اقتناصها وتحقيق أغراضهم الدنيوية. والعبارة «حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا» بالنظر إلى أنّ أفاء من مادة فيْ بمعنى العودة فإنّها تشير إلى أنّ الحكومة على عهد النبي ﷺ كانت في بني هاشم وقد عادت إليهم الآن. وإن سعي الحساد لاستعادتها واحياء سنن الجاهلية.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى حقوق الناس على الحكومة، فقال: «وَلَكُمْ عَلَيْنَا ٱلْعَمَلُ بِكِتَابِ ٱللهِ تَعَالَىٰ وَسِيرَةِ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَٱلْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَٱلنَّعْشُ[1] لِسُنَّتِهِ». أي إن كان لي عليكم حق (وهو حق الطاعة والانقياد التام) فلكم علي حق أيضاً هو إحياء كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، ذلك لأنّ للحق طرفين، وليس هنالك من حق ذي طرف واحد. جدير ذكره أنّ الخطبة بدأت وانتهت بالتأكيد على أهميّة القرآن.

---

١. «نعش» بمعنى الرفع والحمل، ويقال لجسد الميت، النعش، لرفعه على الأيدي وحمله إلى القبر.

١٧٠

ومن خطبة له عليه السلام

فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ الحَقِّ عِنْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ[1]

كَلَّمَ بِهِ بَعْضَ العَرَبِ وَقَدْ أَرْسَلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ لَمَّا قَرُبَ عليه السلام مِنْهَا لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الجَمَلِ لِتَزُولَ الشُّبْهَةُ مِنْ نُفُوسِهِم، فَبَيَّنَ لَهُ عليه السلام مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلا أُحْدِثُ حَدَثاً حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِم فقالَ:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة، كما ورد، سابقاً، جواب واضح لرسول بعض قبائل أطراف الكوفة والبصرة حين طالبه الإمام عليه السلام بالبيعة وحاول التهرب منها.

---

١. سند الخطبة:

أوردها الحديد قبل السيد الرضي، ومنهم المرحوم الشيخ المفيد في كتابه الجمل عن جمل الواقدي (كتاب الجمل للشيخ المفيد، ص ١٥٦) ورواها الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٦ هجرية، والزمخشري في ربيع الأبرار في باب الجوابات المسكتة.

القسم الأول

فقال: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى الْكَلَإِ وَالْمَاءِ. فَقَالَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالرَّجلُ يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ.

الشرح والتفسير

لماذا لاتبايع

روى الواقدي في كتاب الجمل عن (كليب الجرمي) أنّه لما قتل عثمان ولم تمضي مدّة حتى قدم طلحة والزبير إلى البصرة (ليمهدوا السبيل أمام حكومتهما) وحين علم علي‌عليه‌السلام قدم إلى منطقة ذي قار (لمنعهما). سألني شخصان من أهل البصرة لأحملهما إلى علي، لنعلم ما هدفه؟ فلما بلغنا ذي قار وجدنا علياً‌عليه‌السلام أعقل العرب، سألني من زعيم قبيلة بني راسب؟ قلت فلان. قال من زعيم قبيلة بني قدامة؟ قلت فلان. قال: هل لك أن تحمل كتابي لهما؟ قلت: بلى. قال: ألا تبايعني؟ وهنا بايع الرجلان، بينما لم أبايع، فالتفت إليّ عدد من الرجال الذين كان عليهم سيماء الصالحين فقالوا: بايع، بايع. قال علي‌عليه‌السلام: دعوه. فقلت: أنا رائد القوم فأعود إليهم وأخبرهم فإن بايعوك أبايعك وإن لم يبايعوا، تبعتهم، فأجابني الإمام‌عليه‌السلام جواباً لم أجد بداً من البيعة. نعود الآن إلى النصّ لنرى ماذا قال له‌عليه‌السلام لقد قال: «أَرَأَيْتَ لَوْ

أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً[١] تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ[٢] وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ[٣] وَالْمَجَادِبِ[٤]، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ».

فما كان هنا من الإمام عليه السلام إلّا أنّ ابتدره: «فَقَالَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ : فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

قال السيد الرضي: «وَالرَّجلُ يُعْرَفُ بِكُلَيْبِ الجَرْمِيّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في جوابه المذكور إلى حقيقة مهمّة يحل الالتفات إليها الكثير من المشاكل. فكثيرون هم الأفراد الذين يفخرون بانصهارهم بالجماعة وتلونهم بلونها، فهم يفتقرون إلى الاستقلال الفكري بحيث لا يطيقون الانفصال عن الجماعة ـ وإن كانت ضالة ـ وهذا ما يؤدّي إلى انتقال الخرافات والمساوىء من جيل إلى آخر. فالإمام عليه السلام يفند هذا اللون من التفكير بمثال واضح حيث قال: لو كنت ضمن جماعة وبلغت موضعاً في الصحراء حيث الماء والغذاء، بينما انحرفت الجماعة إلى موضع مجدب خالٍ من الماء والغذاء، فهل تبقى معهم أم ترجع إلى عقلك؟ فتنفصل عنهم وتسلك سبيل العافية والسلامة. هل من عاقل يبقى في هذه الحالة مصرّاً على الجماعة؟! قطعاً لو كان الإنسان مستقلاً فكرياً فإنّه يسلك الطريق المستقيم أن تعرف عليه وإن سلكه لوحده. وهذا من قبيل ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة ٢٠١ حين قال «أَيُّهَا النَّاسُ لا تَسْتَوحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ». نعم، مبايعة إمام كعلي بن أبي طالب عليه السلام مجادب، جمع مجدب، المكان الذي لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه. وقبول ولايته تمثل ماء الحياة في

---

١. «رائد» من مادة (رود) على وزن ذوب، بمعنى اللقاء، وتطلق عادة على من ينطلق أمام القافلة أو الجيش ويستطلع المكان المناسب من حيث الماء والغذاء.

٢. «كلاء» النبات الطويل.

٣. «معاطش» جمع (معطش) الموضع الذي يعطش فيه الإنسان.

٤. «مجادب» جمع (مجدب) المكان الذي لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه.

ذلك المجتمع الذي شهد فساد عصر عثمان، ولم يكد هذا الرجل يسمع كلام علي عليه السلام حتى بايعه.

تأمل

عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام

يفيد الكلام المذكور مدى عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام في المستمع، والجدير بالذكر أنّ هذا الأمر حدث بالنسبة لرسول عائشة ورسول طلحة والزبير. ولما همّت عائشة ببعث رسولٍ إلى علي عليه السلام، سألت القوم أن يأتوها بأشد أعداء علي عليه السلام فأعطته عائشة كتابها وحذرته من تناول طعامه وشرابه ففيه سحر. فأتى بكتاب عائشة إلى علي عليه السلام، فلما أعطاه الكتاب قرأه ودعاه إلى بيته ليتناول الطعام حتى يكتب له الجواب، فأقسم الرجل على عدم الذهاب. فقال له الإمام علي عليه السلام: هلا تجيبني إن سألتك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: ناشدتك الله حين أرادت عائشة أن تبعث برسولها ألم تسأل القوم عن رجل شديد العداوة لعلي، فأتوا بك إليها وسألتك عن عدائي فأجبت كذا وكذا؟ قال: بلى. قال عليه السلام: ألم تحذرك من تناول الطعام فإنّ فيه سحر؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أتكون رسولي؟ قال: بلى والله. لقد قدمت إليك وأنت أبغض الخلق إليّ والآن أنت أحبّ الخلق إليّ. قال عليه السلام: إذهب بكتابي هذا إلى عائشة وقل لها: لقد عصيت الله وعصيت رسول الله صلى الله عليه وآله حيث خرجت من بيتك. وقل لطلحة والزبير: حفظتم نساؤكم وأبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله. فقدم الرجل وسلم عائشة الكتاب، وقال لها ما أوصاه الإمام عليه السلام، وقد قتل هذا الرجل في صفين مع علي عليه السلام.

قالت عائشة: ما أرسلنا من رجل إلى علي إلّا عصانا وتمرد علينا[1]. وقد حصل مثل هذا الأمر لرجل يدعى خداش رسول طلحة والزبير، وقد ورد شرح ذلك في

---

١. شرح نهج البلاغة للخوئي، ج ١٠، ص ١١٥ بتلخيص طفيف.

كتاب الكافي للمرحوم الكليني،[1] وخلاصته، أنّ هذا الرجل أتى بكتاب طلحة والزبير إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وقد حذراه سابقاً من بيان علي عليه السلام الذي يسحر العقول فلا ينبغي أن يجالسه ويتناول معه الطعام ولا يطيل النظر إلى وجهه وأن يقرأ عند رؤيته، آية السحرة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

ليأمن من سحره. فلما قدم إلى الإمام عليه السلام نظر إليه وضحك ثم قال: أجلس. قال: لا. قال عليه السلام: نأتيك الطعام ثم قل ما عندك. قال: لا حاجة بي إلى ذلك. قال عليه السلام: تعال نتحدث في مجلس. قال ليس لديَّ ما أُخفيه. قال عليه السلام: قل الصدق، ألم يأمرك الزبير بذلك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أخبرك أن تقرأ آية السحرة إن رأيتني؟ قال: بلى. فأخذ يقرأها والإمام عليه السلام يقرأ معه، ثم قال عليه السلام: كرّرها، حتى كرّرها سبعين مرّة. قال عليه السلام: قل ما عندك؟ فقال له ما أوصاه طلحة والزبير، فرد عليه السلام على تناقضاتهما وجعل (خداش) يصدقه حتى قال لنفسه: لقد جئت بكتاب يبطل بعضه بعضاً؟ إلهي أبرء إليك منهما؟ قال عليه السلام: قل لهما ما قلت لك، قال: خداش والله لا أبرح حتى تسأل الله أن يرجعني إليك. ففعل الإمام عليه السلام فرجع إلى طلحة والزبير وأوصل كتاب الإمام عليه السلام إليهما ثم عاد مسرعاً إلى الإمام عليه السلام حتى قتل بين يديه في الجمل.

١. اصول الكافي، ج ١، ص ٣٤٣.

٢. سورة الأعراف، الآيات ٥٤-٥٦.

١٧١

ومن خطبة له عليه السلام

لَمَّا عَزَمَ على لِقاءِ القَوْمِ بِصِفِّينَ[١]

نظرة إلى الخطبة

هذه الكلمات ليست خطبة وليست كلاماً عادياً، بل هي دعاء عظيم المعنى لهج به الإمام عليه السلام حين عزم على مواجهة القاسطين في صفين معاوية ورهطه في شهر صفر سنة ٣٧ هـ واختتمه بدعوة صحبه إلى الجهاد. ويتضمن كلامه قسمين:

الأول: دعاء يثني فيه على الله بما يرسخ الإيمان لدى الآخرين ويسأله تعالى التسديد إلى الحق والثبات إن انتصر على عدوه، وأن ينعم عليه بالشهادة والإبتعاد عن الفتنة إن كانت الغلبة للعدو.

أمّا القسم الثاني: فقد دعى فيه صحبه لجهاد معاوية ورهطه من خلال عبارات قصيرة، لكنها تثير الحماس والقوة.

---

١. سند الخطبة:

روى هذا الدعاء قبل السيد الرضي، كل من نصر بن مزاحم في كتاب صفين، وحسين بن سعيد الأهوازي في كتاب الدعاء والذكر، حسب نقل السيد ابن طاووس رحمه الله في منهج الدعوات، والطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٧هـ. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١١).

القسم الأول

اَللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ؛ وَرَبَّ هٰذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصَىٰ مِمَّا يُرَىٰ وَمَا لَا يُرَىٰ؛ وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! الْعَارُ وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح والتفسير

الجنّة أمامكم

كما ذكرنا سالفاً فإنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبة بدعاء روحي عميق المعاني ليعد نفسه وصحبه للقاء العدو، وحيث يحمد الله في الدعاء بصفات تمد القلوب فإنّ الإمام عليه السلام حمد الله في هذا الدعاء باسم ربّ السموات والأرض وربّ الجبال فقال عليه السلام: «اَللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ[1] الْمَكْفُوفِ[2]، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً[3]

---

١. «جو» بمعنى السماء، وردت بمعنى الهواء.

٢. «مكفوف» بمعنى المتراكم، كما جاء بمعنى المقيد، ومن مادة (كفّ)، بمعنى الجمع أو المنع.

٣. «مغيض» بمعنى موضع نفوذ الماء، كأنّ الجو كالأرض يبتلع في صدره الليل والنهار، وهذه المفردة من مادة (غيض) على وزن فيض، بمعنى استقرار الماء في عمق الأرض.

لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً[1] مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ[2] مِنْ عِبَادَتِكَ». العبارة «السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ» إشارة إلى موضع النجوم التي تشاهد في السماء بصورة سقف ـ وقد سحبت من الشرق والغرب والشمال إلى الجنوب ـ أو إشارة إلى جو الأرض، أي طبقة الهواء التي تحيط بالأرض بقطر طوله مئتي كيلومتر ويحفظها كسقف من الأشعة الكونية القاتلة والصخور السماوية التائهة[3]. إلّا أنّ التفسير الأول أنسب، وعليه فالسقف المرفوع محل نجوم العالم العلوي والتي تبدو لأهل الأرض كالسقف، ومفهوم مجرى الشمس والقمر... بهذا المعنى. «وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ» طبقة الهواء المحيطة بالأرض موضع ظهور الليل والنهار (فالليل ظل الأرض ويظهر في هذا الجو المكفوف وكذلك النهار موضع شروق الشمس).

وربّما تشير العبارة مختلفا «وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ» إلى جميع نجوم السماء السابحة في هذا الفضاء الواسع، حيث تطلع كل ليلة من أُفق المشرق تغيب في أُفق المغرب. أمّا إن كانت (النجوم السيارة) إشارة إلى السيارات الخمس المعروفة للمنظومة الشمسية فإنّ المفردة (مختلفاً) تشير إلى حركتها الخاصة في السماء، وكأنّها تتقدم قليلاً ثم تعود ثم تنطلق (وإن لم تكن كذلك في الواقع). ضمناً، فإنّ الكلمات المذكورة على غرار التعبيرات القرآنية التي تنسجم وعلم الفلك المعاصر وتنفي نظرية بطليموس، وذلك لأنّ معنى مجرى الشمس والقمر، هاتين الكرتين مستقلتان في حركتهما في السماء، وكذلك النجوم، لا أنّها مشدودة إلى أفلاك بلورية وتتحرك معها.

ثم أشار عليه السلام إلى الأرض وكائناتها الحية فقال: «وَرَبَّ هَٰذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا

---

١. «سبط» بمعنى القبيلة والطائفة، وتعني في الأصل اتساع الشيء بسهولة، ولما كانت الطوائف تتسع فقد اطلقت عليها هذه المفردة.

٢. «يسأمون» من مادة (سئامة) بمعنى التعب عن مواصلة العمل.

٣. راجع التفسير الامثل، ذيل الآية ٣٢ من سورة سبأ.

قَرَاراً لِلأَنَامِ، وَمَدْرَجاً[1] لِلْهَوَامِّ[2] وَالأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصَىٰ مِمَّا يُرَىٰ وَمَا لَا يُرَىٰ».

إنّ هذه العبارات تفيد احاطة الإمام عليه السلام العلمية بجميع الكائنات على الأرض والتي تشمل الإنسان والحيوانات الأهلية وغير الأهلية حتى الديدان التي لا ترى بالعين المجرّدة كأنواع الميكروبات والفيروسات. وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد من (ما لا يرى) الأحياء المتناثرة في الصحراء والتي لا يراها أحد، وقالوا: لو أوقدت نار في الصحراء في ليلة مظلمة لاجتمعت حولها ديدان لم يرها الإنسان، ولكن بالنظر إلى الاكتشافات الحديثة بشأن الأحياء المجهرية التي لا ترى بالعين المجرّدة لا تبدو هناك حاجة لمثل هذا التفسير، فهناك طائفة من الأحياء التي لا ترى بأي شكل من الأشكال، وهذا الكلام من كرامات الإمام عليه السلام التي أماطت اللثام عن حقيقة كانت خفية على الجميع آنذاك. وعبّر عن الإنسان بالقرار (موضع الإستقرار والإقامة) وعن الحيوانات بالمدرج (موضع السير البطئ والتدريجي) ولعل الفارق في التعبيرين، يعزى إلى الحركة في الحيوانات التي تفوق نظيرتها عند الإنسان.

ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة للذات المقدّسة في دعائه المظيم: «وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي[3] الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً». فالعبارة كون الجبال للأرض أوتاداً اقتباس من القرآن الكريم بشأن الجبال: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً[4]﴾[5]. أحياناً يتصور أنّ حجم أضخم الجبال صغير بالنسبة للكرة الأرضية، بحيث لا يصح اطلاق الوتد عليه، لكن بالنظر إلى أنّ لهذه الجبال العظيمة جذور في أعماق الأرض، وهذه الجذور متصلة مع بعضها كدرع أحاط بالأرض يحول دون الضغوط الداخلية

---

١. «مدرج» من مادة (دروج) بمعنى طي الطريق، و«مدرج» يطلق على موضع طي الطريق.

٢. «هوام» جمع (هامة) الحيوانات الصغيرة كالفأرة والحية.

٣. «رواسي» جمع (راسية) الثابت والراسخ.

٤. «أوتاد» جمع (وتد) على وزن نمد، المسمار، ومن مادة (وتد)، على وزن وقت، بمعنى تثبيت الشيء.

٥. سورة النبأ، الآية ٧.

والخارجية ـ والذي يفرزه جاذبية القمر وجزره ومده ـ فإنّ الجبال تعتبر بمثابة الأوتاد التي تحول دون تصدع الأرض. أمّا قوله: إنّ الله جعلها للخلق اعتماداً، ذلك لأنّ الجبال تحطم الرياح الشديدة العاتية وتمنع العواصف الرملية والسيول الخطيرة، أضف إلى ذلك فإنّ أغلب الأنهار والعيون تنحدر من الجبال وهي مركز أكثر المعادن المفيدة، إلى جانب بناء البيوت والقلاع المحكمة فيها، سيما المناطق التي تكون عرضة للسيول إنّما تلجأ لبناء الدور هناك خلاصاً من هذا الخطر. والسؤال ما الذي أراد أن يطلبه الإمام عليه السلام من الله في هذا الدعاء. قال عليه السلام «إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا ٱلْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَٱعْصِمْنَا مِنَ ٱلْفِتْنَةِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذا الدعاء إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الكثير ربّما يفارق العدالة حين النصر والغلبة في المعركة ويمارس الظلم بحق العدو، ومن هنا يسأل الله في حالة النصر ابعاده عن هذا العمل أولاً، وثانياً، كثيرون هم الأفراد الذين ينشدون النصر ارضاء لغرورهم والسيطرة على الآخرين. الإمام عليه السلام يدعو الله أن يسدده للحق وإقامة العدل إن كتب له النصر، وثالثاً، على فرض كون الغلبة للأعداء فإنّه يسأل الله الشهادة والاعتصام من الفتنة. الفتنة هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الامتحان، ذلك لأنّ ساحة القتال من ميادين الامتحانات الصعبة وعلى الإنسان أن يسأل الله تثبيته في القتال. فالفرد الذي يعتقد أنّه على الحق ربّما ينقم حظه إن أصابه شيء، وينطلق لسانه بالشكوى وهذا فشل في ميدان الامتحان.

ثم دعى الإمام عليه السلام أصحابه لمواجهة العدو من خلال عباراته المؤثرة في الدعاء فقال: «أَيْنَ ٱلْمَانِعُ لِلذِّمَارِ[1]، وَٱلْغَائِرُ[2] عِنْدَ نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ[3] مِنْ أَهْلِ ٱلْحِفَاظِ![4] ٱلْعَارُ

---

١. «ذمار» ما يجب على الإنسان حفظه كالأهل والعرض والوطن، ومن ذمر، على وزن رمل، بمعنى اللوم والتوبيخ، فهي تطلق بهذا المعنى على من يقصر في حفظ الأهل والشرف والوطن حيث يستحق اللوم.

٢. «غائر» بمعنى الغيور.

٣. «حقائق» جميع حقيقة، تشير هنا إلى النوازل التي تحل بالإنسان أو المجتمع والوطن.

٤. «حفاظ» من مادة (حفظ) تعني هنا، الوفاء بالعهد ورعاية الذمة.

وَرَاءَكُمْ وَٱلْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!». وأخيراً يختتم كلامه بتشجيع المدافعين وتهديد الهاربين فيقول: «ٱلْعَارُ وَرَاءَكُمْ وَٱلْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!» فإن فررتم كان ذلكم عاراً عليكم وإن ثبتم فلكم الجنّة.

تأمّل

لقد شهد تاريخ البشرية نشوب العديد من الحروب العالمية والأقليمية، ولكن غالباً ما يكون الهدف منها، الطمع وحب الاستعلاء والسيطرة والثأر، ومن هنا فإنّ النصر في المعركة إنّما يؤدّي إلى ارتكاب أفضع الجنايات، وذلك لغياب الهدف المقدّس. نعم، يستثنى من ذلك حروب الأنبياء والأولياء، حيث الهدف منها إطفاء نار الفتنة، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[1] والدفاع والوقوف بوجه المهاجم: ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾[2] ولذلك فإنّ الأصول الإنسانية لا تغيب قط في المعركة. ومن ذلك ما أوصىٰ به أمير المؤمنين عليه السلام جند الإسلام عند النصر بأنّ لا يتعقّبوا فاراً ولا يجهزوا على جريح ولا يتهيجوا النساء بأذى وإن شتمن الأعراض وسببن الأمراء[3]. وتراه عليه السلام في هذه الخطبة والدعاء الذي تقرب به إلى الله يسأله الثبات والتسديد إلى الحق عند ظهوره على العدو، وهذا هو الفارق بين من يخوض الحرب من أهل الدنيا وأولئك الذين يعملون للآخرة.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٩٣.

٢. سورة البقرة، الآية ١٩١.

٣. نهج البلاغة، الرسالة ١٤.

١٧٣

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة[١]

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه ثم أشار إلى بعض الأعمال والأقوال الطائشة لبعض الصحابة المعروفين. تتكون الخطبة من ثلاثة أقسام. أشار في القسم الأول: إلى موقف عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص يوم الشورى (الشورى المؤلفة من ستة أفراد والتي شكلها عمر لاختيار الخليفة من بعده)، حيث نسب إلى الإمام عليه السلام الحرص على الخلافة فأجابه الإمام عليه السلام بجواب رائع، وشكى إلى الله.

في القسم الثاني، قريشاً ومن اصطف معها ضده. وتطرق.

في القسم الثالث، إلى قضية طلحة والزبير وموقعة الجمل وعملها القبيح الذي ارتكباه حين أخرجا عائشة (زوج النبي) إلى المعركة ولم يحفظا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وما تبع ذلك من سفك للدماء.

---

١. سند الخطبة:

يبدو أنّ هذه الخطبة جانب من كتاب كتبه الإمام عليه السلام في أواخر أيام خلافته ذكر فيه الأحداث التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر أن تقرأ على الناس، وقد ردّ الإمام عليه السلام على عبدالرحمن بن عوف حين قال له يوم الشورى: إنّك على هذا الأمر لحريص، بذلك الجواب الذي ورد في الخطبة. رواها الطبري في كتاب المسترشد (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٤).

القسم الأول

اَلْحَمْدُلِلهِ الَّذِي لَا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً.

منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَىٰ هٰذَا الْأَمْرِ يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَاءِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشرح والتفسير

قريش والخلافة

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه وركز على علم الله وسعته ـ بما يتناسب وأبحاث الخطبة ـ فقال: «اَلْحَمْدُلِلهِ الَّذِي لَا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً».

يبدو أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة تكلفوا في تفسير العبارة «وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً» على أساس عدم وجود أكثر من أرض، فذهبوا إلى أنّها تشير إلى الأقاليم السبعة على الأرض التي نراها محيطة بالأرض بسبب كرويتها حتى وإن نظرنا إليها من خارج الكرة الأرضية، ولا يمكن رؤية جميع المناطق في الأرض في لحظة معينة وإن نظرنا إليها من مسافة بعيدة، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة لله الذي لا يغيب

عن علمه شيء. وقيل: تشير العبارة إلى طبقات الأرض، فالأرض تتألف من طبقات ولا نرى سوى طبقة واحدة منها، أمّا الله فلا يغرب عنه شيء. وقيل: المراد، المخلوقات التي تعيش في الأرضين، حيث ورد مثل هذا الكلام في تفسير الآية الشريفة ١٢ من سورة الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ وقد قال كل من الفخر الرازي والمرحوم العلّامة الطبرسي بأحد هذين التفسيرين المذكورين. الاحتمال الآخر في تفسير الآية وكلام الإمام عليه السلام أنّ المراد، العوالم الواقعة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. توضيح ذلك، أننا نصطلح على ما فوقنا بالسماء وما تحتنا بالأرض، ونعلم أنّ الكرة الأرضية وسط مجموعة من الكواكب الثابتة والسيارة، وكما أنّ هناك عدداً هائلاً من تلك المجموعة فوقنا، كذلك لو تأملنا الجانب الآخر للكرة الأرضية فإنّ فيها مجموعة من هذه العوالم التي تعد سماءاً بالنسبة لسكنتها بينما تعتبر أرضاً بالنسبة لنا، فالسماء لا تقتصر على هذا النصف الكروي الذي فوقنا، بل هنالك النصف الآخر تحتنا والملىء بالكواكب والكرات السماوية (عليك بالتأمل).

ثم أشار الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من الخطبة إلى وقائع يوم الشورى المكونة من ستة أعضاء لاختيار الخليفة الثالث فرد على مقولة عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص في حرص الإمام عليه السلام على الخلافة فقال: «وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هذَا الْأَمْرِ يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ». فالواقع أنّ عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ومن شاكلهما ينظرون من خلال أفقهم الضيق على أنّ الخلافة طعمة لذيذة لهم أو من يرونه مؤهلاً لها، فهم لا يعلمون أو لا يريدون أن يعلموا أنّ الخلافة ليست بذات قيمة لدى ابن أبي طالب سوى إحقاق الحق والانتصاف للمظلوم وزهق ودحر الظالم. والإمام عليه السلام لا يريد الخلافة لنفسه بقدر ما يريدها لبسط العدل والقسط وسلامة المجتمع الإسلامي.

ثم قال عليه السلام «وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ». إلّا أنّ حرصهم حال دون إذعانهم لهذه الحقيقة. لذلك واصل كلامه قائلاً: «فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ[1] بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَإِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ[2] كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!» قضية الشورى التي شكلها عمر حين وفاته كانت ضجة ضخمة أفصحت عن الأحقاد والضغائن التي يكنّها بعض الصحابة لأمير المؤمنين علي عليه السلام وتشير إلى حجم المؤامرة المبيتة بغية زحزحته عن مقامه وحقّه الاجتماعي حتى طالبوه بالتخلي عن حقّه وإلّا إتهم بالحرص على الخلافة. جدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد قال: يعتقد الشيعة أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام في أبي عبيدة الجراح في سقيفة بني ساعدة التي شكلت لاختيار الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله[3]. والحال لم نر أحداً من علماء الشيعة قال بذلك، والمسلم لدينا أنّ الإمام عليه السلام لم يكن حاضراً في السقيفة. وقد فرغنا من شرح هذه الأحداث في الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

ثم تضرع الإمام عليه السلام إلى الله يشكو ما ألم به من ظلم فيستلهمه العون قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ[4] عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ». فهذه العبارة تكشف بوضوح أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرى الخلافة حقّه الطبيعي، وذلك لأنّه كان أجدر بها من غيره إلى جانب نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على ولايته في الغدير والذي أكده مراراً وتكراراً. إلّا أنّ عشاق المناصب اسقطوا نص رسول الله صلى الله عليه وآله وحكم العقل، ومارسوا الأعمال التي من شأنها

١. «قرعته» من مادة (قرع) على وزن فرع، بمعنى ضرب الشيء على آخر بحيث يتولد صوت شديد. وتستعمل هذه المفردة في الأمور المعنوية، أي تستعمل بشأن الأدلة الواضحة والدامغة كالخطبة المذكورة.

٢. «هب» من مادة (هبوب) بمعنى حركة الرياح، أحياناً، وأخرى بمعنى الهيجان، وكذلك البهت أو النهوض من النوم، والمعنى الثاني هوالمراد في العبارة.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥.

٤. «استعديك» من مادة (استعداء) بمعنى الشكوى وطلب العون.

قطع صلة الرحم، والأمر الغريب أنّهم يعترفون بهذا الحق، لكنهم يزعمون أنّها من الحقوق التي ينبغي الإغماض عنها، فالظروف ليست مناسبة لاستحصاله.

والتعبير بقطع صلة الرحم إمّا لاستدلالهم بأوليتهم في أمر الخلافة لقربهم من رسول الله ﷺ وقد رد عليهم الإمام عليه السلام بأنّه أخصّ منهم وأقرب (كما مرّ علينا في عبارة الخطبة) أو (أنا) إشارة إلى أنّهم لم يأخذوا الخلافة وهي حقّي فحسب، بل لا يكفون عن ارتكاب الجنايات التي تعدّ مصداقاً بارزاً لقطع الرحم.

تأمّلان

١. العيون المعصوبة ازاء الحقائق

إنّ البعض وإن سعى المرور مرّ الكرام على القضايا المتعلقة بالخلافة، إلّا أنّ الأمر لا يبدو بهذه السهولة والبساطة. لا شك في أنّ علياً عليه السلام شكى مراراً من سلبه حقّه المسلّم في الخلافة (طبعاً ليس المراد من الحق، المقام الذي يختزن الفائدة والربح والمنفعة) بل يمثل المسؤولية الشرعية وهدفها ـ على ضوء ما ذكره الإمام عليه السلام ـ إقامة العدل وإحقاق الحق وإجراء الحدود. ولعل الكلام المذكور هو أحد النماذج البارزة على شكواه حتى قال: إنّهم اجمعوا على منازعتي ليصادروا حقّي، وسنورد المزيد بهذا الشأن في شرحنا للخطبة رقم ٢١٧.

الجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد نقل هذا الكلام وحاول تبريره وتوجيهه بما لا يمكن قبوله بأي شكل من الأشكال. فقد صرّح قائلاً: أعلم أنّه وردت أخبار متواتر عنه عليه السلام ومنها هذه الخطبة أنّه قال: «**مَا زِلْتُ مَظْلُوماً مُنْذُ قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ حَتَّى يَوْمَ النَّاسِ هَذَا**»، وقال أيضاً: «**اَللّٰهُمَّ اَخْزِ قُرَيْشاً فَإِنَّهَا مَنَعَتْنِي حَقِّي وَغَصَبَتْنِي اَمْرِي**» وسمع شخصاً يقول: «**أنَا مَظْلُومٌ**» فقال عليه السلام: «**هَلُمَّ فَلْنَصْرَخْ مَعاً فَإِنِّي مَا زِلْتُ مَظْلُوماً**» وقال في الخطبة الشقشقية: «**وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحىٰ**» وأضاف في الخطبة المذكورة: «**أَرىٰ تُرَاثِي نَهْباً**» ولما فرغ ابن أبي

الحديد من ذلك هب للدفاع عن الخلافة ليقول: أنّ أصحابنا يوجهون ذلك بأنّ مراد الإمامعليه السلام أنّه كان أفضلهم وأولاهم ـ وهذه حقيقة ـ لا أنّ مراده أنّ النبيصلى الله عليه وآله نص عليه، لأنّ ذلك يدعونا إلى تكفير وتفسيق كبار المهاجرين والأنصار (ننسبهم للكفر أو الفسق) وأضاف أنّ الزيدية والإمامية يحملون هذا الكلام على ظاهره (ويرون الخلفاء غاصبين للخلافة). ثم قال: والذي نفسي بيده أنّ مفهوم هذه العبارات وإن كان أغلب الظن ما يقوله هؤلاء، إلّا أنّ هذا الظّن باطل وليس أمامنا سوى اعتبار هذا الكلام من قبيل الآيات القرآنية المتشابهة التي تطرح بعض الأمور التي لا نقرّها لله[1]. والعجيب كيف يتأول ابن أبي الحديد وأمثاله هذه الكلمات الواضحة بهذا الشكل، والأسوأ من ذلك أنّه قاس هذا الكلام بآيات القرآن المتشابهة، فالآية القرآنية: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] يفهم كل فرد عاقل أنّ المراد منها قدرة الله، وإلّا فالله ليس بجسم لتكون له يد كيدنا. نعم، قال الإمام صراحة في العبارة السابقة أنّ هؤلاء غصبوني حقّي، وليس لهذه العبارة أكثر من تفسير وتأبى التوجيه، ليت شعري ما الضير في قولنا إنّ طائفة من المهاجرين والأنصار أخطأت بشأن الخلافة بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله؟ أفكانوا معصومين؟ الحق أنّ الأحكام المسبقة والتعصّب للمذهب يؤدّي بالإنسان أحياناً إلى أنّ يعصب عينيه عن رؤية القضايا الواضحة والتشبث بالتوجيه غير المنطقي.

٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق

تمسك غاصبوا الخلافة ـ كما ورد في الخطبة ـ بضرورة استيفاء بعض الحقوق والتنازل عن بعضها الآخر على ضوء بعض المصالح. ويرون خلافة أمير المؤمنينعليه السلام من النوع الثاني. نعم، العبارة المذكورة تنطوي على مفهوم صحيح

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٠٦ و٣٠٧.

٢. سورة الفتح، الآية ١٠.

وآخر باطل. فالإنسان ينبغي له التنازل عن جانب من حقّه الشخصي أو جميعه بغية الحيلولة دون نشوب النزاعات ومواصلة الخصومة ومراعاة للمحبة والمودة، أمّا بالنسبة للحقوق المتعلقة بالمجتمع ومصيره، فلا يحق لأحد التنازل عنه أو المساومة على حسابه. وأصحاب هذه الحقوق هم وكلاء الأُمّة. وليس للوكيل مثل هذا التنازل، والخلافة من هذا النوع من الحقوق، إلّا أنّ غاصبي الخلافة حاولوا خلط الأوراق، بمنطقهم الأجوف بغية تحقيق أهدافهم ومآربهم. والعبارة المذكورة تشير ضمنياً إلىٰ أنّ أعداء الإمام عليه السلام كانوا يعترفون بحقّه، أو بعبارة أخرىٰ فإنّ حقّه كان علىٰ درجة من الوضوح بحيث لم يسعهم إنكاره، فعمدوا إلى الذرائع والحجج الواهية.

٭٭٭

القسم الثاني

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطَائِفَةً غَدْراً. فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح والتفسير

فضيحة أصحاب الجمل

شرح الإمام عليه السلام هنا الخطأ الفادح الذي ارتكبه أصحاب الجمل ليعلم الجميع بأنّ الإمام عليه السلام إن قاتلهم وقتل طائفة منهم فهي مستحقة لذلك، فلا ينبغي التذرع بالأعذار ومواجهة هذا المنطق المتين، حيث أشار عليه السلام إلى ثلاث من جرائمهم الكبرى، فقال في الأولى: «فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ». ثم قال: «فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ[1] رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا».

---

1. «حبيس» من مادة (حبس) بمعنى المحبوس، وإشارة إلى عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله التي كانت منهية عن الاشتراك في الحرب والخروج إلى المسرح الاجتماعي، لكن طلحة والزبير دفعاها لذلك العمل.

كلّنا نعلم أنّ القرآن الكريم أوصى أزواج النبي ﷺ بأن يقرن في بيوتهن وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية فيتصفحن هذا وذاك: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[1] وكأنّ بعض الأحداث كموقعة الجمل كانت منظورة من قبل، إلّا أنّ هؤلاء المتحللين أبقوا على نسائهم في بيوتهن وأخرجوا زوج النبي ﷺ خلاف نص القرآن ليجعلوها وسيلة لتحقيق مآربهم.

ثم قال عليه السلام في جنايتهم الثانية: «فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ». ولا يقتصر الالتزام بالبيعة على الإسلام، بل كان يلتزم بها حتى قبل الإسلام، بينما نقض أصحاب الجمل هذه السنّة ونكثوا عهدهم علانية واستعدوا لمواجهة الإمام عليه السلام. وأشار إلى جريرتهم الأخرىٰ فقال عند ما دخلوا البصرة: «فَقَدِمُوا عَلَىٰ عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً[2]، وَطَائِفَةً غَدْراً». ذكر ابن أبي الحديد في شرح لجنايات أهل الجمل أنّ طلحة والزبير وأعوانهما تدرعوا وقدموا المسجد عند صلاة الصبح وكان فيه عامل علي عليه السلام عثمان بن حنيف. فتقدم للصلاة فدفعه أصحاب طلحة والزبير وقدموا الزبير. فتقدم (السبابجة) (حماة بيت المال)[3] ودفعوا الزبير خارج المسجد، فهجم عليهم أنصار الزبير وقدموه واستمر النزاع حتى طلوع الشمس. فصاح الناس: اتقوا الله يا أصحاب محمد ﷺ فالشمس تكاد تطلع، فغلبهم الزبير وصلى بالناس. ثم أمر بالقبض على ابن حنيف فضربوه حتى كاد يموت، كما قبضوا على السبابجة وهم سبعون، حملوا عثمان بن حنيف إلى عائشة، فأمرت بقتله. فقال عثمان: إن قتلتموني سيقتص منكم أخي (والي المدينة) فخافوا وتركوه. وأمرت

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

٢. «صبر» تعني في الأصل الحبس، ومن هنا يطلق الصبر على مسك النفس وحبسها عن المكاره. المعنى الآخر للصبر أن يحبس الإنسان أو الحيوان في موضع، ثم يرمى بحجر أو سهم. بالتالي يقال، قتل صبراً لمن يقتل بالزجر والتعذيب.

٣. «السبابجة» جمع (سبيجي) قال صاحب لسان العرب، من مادة (سبج) طائفة شجاعة من السند استؤجروا للقتال (الدفاع عن بيت المال)، وقيل: كلمة فارسية تعني الشبان الصغار وألوانهم سوداء.

الزبير بقتل السبابجة فذبحهم ابنه عبدالله كما تذبح الشاة. قال بعض المؤرخين كأبي مخنف كان السبابجة أربعمائة وقد نقض طلحة والزبير عهدهم مع عثمان بن حنيف ـ بعدم التعرض لأحد ـ فكان السبابجة أول طائفة قتلت صبراً في الإسلام[1]. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطَائِفَةً غَدْراً».

وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال: «فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذٰلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ».

٭٭٭

أثار هنا بعض شرّاح نهج البلاغة أسئلة وأجابوا عنها، نوردها بما يناسب البحث:

سؤال: كيف تفسر فقهياً عبارة الإمام عليه السلام في حلية قتل الجيش كله وإن أصابوا واحداً فضلاً عن قتلهم لذلك العدد الكثير؟

٭٭٭

الجواب: أجاب البعض بأنّهم أباحوا قتل المسلمين وهذا نوع من انكار ضروريات الدين وعليه فهم مرتدون. وقيل: إنّ قتلهم من باب النهي عن المنكر، ولو توقف النهي عن المنكر بذلك لكان جائزاً. الجواب الثالث: والأنسب، أنّهم كانوا مصداقاً للمفسدين في الأرض، فقد جهزوا الجيوش ونكثوا البيعة وعاثوا فساداً في بعض مناطق البلد الإسلامي، فهم مشمولون بالآية الشريفة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾[2] وعبارة الإمام عليه السلام أنّهم حضروا ولم ينكروا ولم يدفعوا بلسان ولا بيدهم في الواقع مقدمة لاثبات كونهم من

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٢٠.

٢. سورة المائدة، الآية ٣٣.

المحاربين والمفسدين.

الجواب الرابع: الذي يتبناه مذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام في أنّ الخارج عن الإمام المعصوم كافر، كما ذكر ذلك الخواجة الطوسي في تجريد العقائد[1] فقال: «ومُحَارِبُو عَلِيٍّ كَفَرَةٌ» ذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «حَرْبُكَ حَرْبِي». وقد فصلنا فجائع طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل في الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة عشرة، والجزء الثاني في تفسير الخطبة ٢٢ و٣١، والجزء الخامس في شرح الخطبة ١٣٧.

سؤال آخر:

لو استحق أولئك القتل لمجرّد قتلهم جماعة من المسلمين وقبل المعركة، لماذا لم يقتص الإمام عليه السلام من أتباع طلحة والزبير بعد أن انتصر عليهم في المعركة؟ بل حتى عائشة كانت تستحق القتل لخروجها على أمام المسلمين والفساد في الأرض، لكن الإمام عليه السلام أعادها بكل احترام إلى المدينة؟ والجواب على هذا السؤال واضح، فالأوضاع كانت مضطربة والظروف معقدة بحيث لو قام الإمام عليه السلام بمثل هذا العمل لتمكن أعداء الإمام عليه السلام من تأليب عامة المسلمين عليه وتعبئتهم ضده. ومن هنا قال عمرو بن العاص لعائشة: ليتك قتلت في الجمل. قالت: لم لا أم لك؟ فقال عمرو: لدخلت الجنّة وحرضنا الناس على علي بقتلك[2]. على كل حال، فإنّه لمن دواعي الفخر لعلي عليه السلام أنّه غضّ النظر عنهم وأراح المجتمع الإسلامي من شرّهم.

ﷰﷲ

---

١. شرح التجريد، ص ٢٤٠.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٣٢٢.

١٧٣

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ لِلْخِلَافَةِ، وَفِي هَوَانِ الدُّنيا[1]

نظرة إلى الخطبة

تبدأ هذه الخطبة ببيان صفات النبي الأكرم ﷺ بصورة مختصرة، كما يتعرّض الإمام عليه السلام في القسم الثاني إلى خصائص الجدير بخلافة رسول الله ﷺ فيؤدي حق الموضوع بعبارات قصيرة. ويتحدث في القسم الثالث عن تقوى الله ويوصي صحبه بعدم العجلة في الأعمال والتروي عند الإقدام. وأخيراً يذم الدنيا والتعلق بها والخداع بزخارفها.

ﷺ

---

١. سند الخطبة:
ذكر صاحب تحف العقول قبل السيد الرضي، الفصل الأخير من الخطبة (ألا وأنّ هذه الدنيا...) باختلاف، كما نقلها أبوجعفر الإسكافي (المتوفي عام ٢٤٠ هـ) في رسالته (نقض العثمانية) (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٧).

القسم الأول

أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ. فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذلِكَ سَبِيلٌ، وَلكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير

أجدر الأفراد بزعامة الأمّة

كما ورد سابقاً فإنّ الإمام عليه السلام قد إستهل الخطبة ببيان جانب من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أشار إلى أربع منها، فقال: «أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ» والواقع، إنّ أنشطة النبي صلى الله عليه وآله كافة يمكن إيجازها في هذه الصفات الأربع؛ ذلك لأنّ الفعالية الأولى للنبي، تلقّي الوحي وإيصاله وإبلاغه إلى الناس بكل أمانة والتخطيط لنشر مبادىء الدين إلى نهاية الدنيا ومن ثم التمهيد لطاعة الله عن طريق البشارة بالرحمة والإنذار بالعذاب والجزاء. وقد أكّدت هذه الصفات الأربع من خلال الآيات القرآنية حيث أشارت إلى بعضها من قبيل البشارة والإنذار.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرائط خليفة الأمّة وإمامها ليوجزها في أمرين: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى ركنين أساسيين، لأحدهما بُعد عملي، والآخر

علمي، فعلى المستوى العلمي ينبغي أن يكون أعلم الجميع، وفي الجانب العملي أقواهم في أمور الإدارة. فكثيرون هم الأفراد العلماء، لكنهم يفتقرون إلى حسن الإدارة، أو أنّهم يتمتعون بحسن الإدارة إلّا أنّهم يفتقرون إلىٰ العلم، ولا يمكن النهوض بزعامة الأُمّة دون توفر هذين الشرطين معاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع في قصة بني إسرائيل أثر اختيار (طالوت) كزعيم وقائد فاعترض البعض على أنّهم أولى بالزعامة منه على أساس الثروة، فرد القرآن عليهم بأنّ طالوت أولى بها لعلمه وقدرته: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[1] ومن الواضح أنّ الإمامؑ أراد أن يكشف عن أولويته من الجميع بالتصدي لأمر الخلافة. ذلك لأنّ الجميع يعلم بأنّه الأعلم في أصول الدين وفروعه وهو الأقوى والأقدر على الإدارة ومواجهة العدو.

سؤال: لماذا لم يستدل الإمامؑ بنص النبي الأكرمﷺ على خلافته؟ أليس هذا دليلاً على أنّ الخلافة لم تكن على أساس النص، بل على ضوء انتخاب الناس لأكفأ الأفراد؟

الجواب: قطعاً، لو استدل الإمامؑ بالنص، لهب أغلبهم لإنكاره، وعليه فمن الأفضل الاستناد إلى مسلماتهم وإلزامهم بمنطقهم (الأمر الذي يصطلح عليه في المنطق بالجدل) والذي قال بشأنه القرآن: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]. جدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد حين يبلغ هذا الموضع من شرحه لنهج البلاغة، وخلافاً لأولئك الذين لا يصغون لصوت الضمير يُقرّ بأنّ علياًؑ أعلم القوم، لكنه يرى أنّ هذا ليس بدليل على نفي خلافة الآخرين، ذلك لأنّه يمكن أحياناً تقديم المفضول على الأفضل[3]. طبعاً، هذا منطق الأفراد الذين لا يفقهون قوانين العقل ولا يرون قبح

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

٢. سورة النحل، الآية ١٢٥.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٢٧.

ترجيح المرجوح على الراجح، والحال، قبح هذا الأمر واضح للجميع، إلّا أنّ التعصب الأعمى يحول عادةً دون رؤية الواقع.

ثم قال عليه السلام: فإن تصدى مثل هذا الفرد، للأمر: «فَإِنْ شَغَبَ[1] شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ[2]، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ». وقال القرآن بهذا الخصوص ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...﴾[3].

ثم خاض الإمام عليه السلام في الردّ على بعض المتخرصين، حيث انبرى البعض كمعاوية وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وأمثالهم وصرّحوا بأنّ الخلافة والإمامة لمن تنتخبه عامة الأُمّة. وعليه، لا تكفي بيعة المدينة وأطرافها لعلي عليه السلام.

فقال عليه السلام: «وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا». ثم واصل كلامه قائلاً: «ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ». وأخيراً حذّرهم جميعاً بالقول: «أَلَا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ». يبدو أنّ العبارة الأُولى تشير إلى معاوية الذي تخلف عن البيعة بذريعة المطالبة بدم عثمان، والحال، أن تتمّ المطالبة بدم عثمان من قبل أولياء الدم أو إمام المسلمين، ومن بايعه الناس أي، علي بن أبي طالب عليه السلام. والثانية إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين بايعوا ثم نكثوا البيعة بما فيهم معاوية والآخرون. وأمّا ما قيل: إنّ المراد، ادّعاء الخلافة من قبل معاوية والذي ليس له حقّ، فلا ينسجم مع التواريخ، لأنّ معاوية لم يدع الخلافة على عهد أميرالمؤمنين علي عليه السلام، بل ركّز على المطالبة بدم عثمان.

ഈ

---

١. «شغب» من مادة (شغب) على وزن شرق، بمعنى إثارة الفتنة والشر والفساد.

٢. «استعتب» من مادة (عتب) وعتاب بمعنى اللوم والتوبيخ بقصد الرجوع إلى الحق، وإن استعملت في باب الإستفعال أفادت معنى الإسترضاء.

٣. سورة الحجرات، الآية ٩.

سؤال:

لم يستدل الإمام عليه السلام في حديثه المذكور في إثبات خلافته وإمامته على نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص، ولم يتطرق إلى حديث الغدير وما شابهه، بل أكّد على بيعة الأُمّة، وهذا في الواقع إمضاء لخلافة من سبقه. لذلك قال ابن أبي الحديد، هنا، صراحةً: إنّ هذا الكلام من الإمام عليه السلام دليل على صحة مذهبنا، ولا يؤيد مذهب الإمامية، فكيف تُحلّ هذه الشبهة؟

الجواب:

لابدّ من الإلتفات إلى أمور:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام استدل بمسلمات الخصم لإثبات حقّه، لأنّهم يرون كفاية قبول أهل الحل والعقد (علماء الأُمّة) لثبوت الخلافة والإمامة. وعليه فقد أجابهم بمنطقهم (منطق الجدال بالتي هي أحسن)، ولو استدل بالنص لأنكروه.

الثاني: أنّ خلافة من سبقه لم تستند إلى قبول الناس، أمّا أبو بكر فقد انتخب من قبل أهل السقيفة حيث كانوا عدّة قليلة من الناس، وأمّا عمر فقد انتخب بنص من أبي بكر، بينما لم تتمّ خلافة عثمان إلّا من قبل ثلاثة أو أربعة أفراد من الشورى.

الثالث: أضف إلى ذلك، فإنّ الوقوف على رأي الإمام عليه السلام بشأن الخلافة لا يمكن من خلال خطبة أو خطبتين، بل لابدّ من دراسة شاملة لجميع كلماته بهذا الخصوص، لنرى كثرة تركيزه في نهج البلاغة على النص في الخلافة.

ﷺ

القسم الثاني

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى ٱلْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ عِنْدَ ٱللهِ. وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْمِلُ هٰذَا ٱلْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ ٱلْحَقِّ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

الشرح والتفسير

تعليمات عسكرية

أعدّ الإمام عليه السلام صحبه هنا لمواجهة الظلمة والطواغيت حيث أوصاهم بادىء الأمر بالتقوى فقال: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى ٱلْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ عِنْدَ ٱللهِ». القرآن الكريم من جانبه أكّد هذا المعنى حيث إنّ الأفراد الذين لا يصيبهم الخسران هم فقط الذين يتواصون بالحق والصبر: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْمِلُ هٰذَا ٱلْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ ٱلْحَقِّ». ثم قال: «فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا

---

1. سورة طه، الآية ١٣٢.
2. سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً[١]».

تشير العبارة «وَلَا يَحْمِلُ هٰذَا ٱلْعَلَمَ» إلىٰ أننا نضطر لأول مرّة في الإسلام لأن نقاتل أفراداً يدّعون الإسلام، وأنّهم من أهل القبلة لبغيهم وطغيانهم، ويبدو هذا الأمر مستصعباً بالنسبة للأفراد السطحيين وضيقي الافق، وعليه، فلا يستحق حمل هذا العلم سوى من تحلّى بالبصر والعلم والصبر.

والعبارة «فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ...» إشارة إلى أنّ هذا الطريق مسؤولية كبيرة، فينبغي المضي فيه بدقّة ورعاية النظم والانضباط. أمّا العبارة الأخيرة «فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً» فتشير إلى أنّ الأوامر التي تصدر أحياناً من القيادة ـ الإمام عليه السلام ـ في القضايا الحربية وجزئيات الأعمال، بما لا ينسجم ورغبات أكثرية الناس، مثلاً، يرد الأمر بالهجوم على العدو في البصرة من شمالها، إلّا أنّ الأكثرية ترى صعوبة ذلك وتود لو أنّها هجمت من جنوبها. فالإمام عليه السلام يوصي هنا بالتريث وعدم الاستعجال طالما لا تتضارب هذه الأوامر مع الشرع والمصلحة، فربّما نمارس بعض التغييرات ونحقق رغباتكم، كذلك إن شكى بعض الناس من بعض الولاة فليس لديّ من إصرار، كعثمان، على بقائهم وما دام رأي الناس موافقاً للشريعة والمصلحة فهو مقبول لديّ. ولعل إحدى خصائص الآمر والمدير الناجح تتمثل في احترامه لأفكار الآخرين والإنفتاح عليها ما لم تتعارض مع الأصول. أمّا ما ذكره بعض شرّاح نهج البلاغة من تفسير لهذه العبارة فلا يبدو مناسباً؛ ففسّروا (غيرا) مثلاً، بالمصالح، ولكن هذه المفردة؛ والاحتمالات الأخرىٰ التي وردت في كلمات بعض الشرّاح ليست منسجمة مع ظاهر كلمات الإمام عليه السلام ومن هنا لا نرى ضرورة الخوض فيها.

---

١. «غِيَر» بمعنى الحوادث والتغييرات التي تقع في حياة الإنسان، وأريد بها في الخطبة، مطلق التغيير.

تأمّل

حوار مع عمار بن ياسر في صفين

لا شك في أنّ أهل القبلة والمسلمين إن مارسوا بعض الأعمال التي تهدد كيان الإسلام أو قاموا ضد الحكومة الإسلامية، فلابدّ من إرشادهم وإعادتهم إلى جادة الصواب من خلال الطرق السلمية؛ لكن إن واصلوا غيهم وتمادوا في أعمالهم، فليس هنالك من سبيل سوى اللجوءالقوّة، ولا يبدوهذا العمل مستساغاً من قبل الأفراد السطحيين وضيقي الأُفق، لذلك قال الإمام عليه السلام: «وَلَا يَحْمِلُ هٰذَا ٱلْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ ٱلْحَقِّ». ورد في أحداث موقعة صفين: روىٰ عن نصر بن مزاحم، قال: «حدثني يحيى بن يعلي، قال: حدثني صباح المزني، عن الحارث حصن، عن رجاء بن ياسر، عن أسماء بن حكيم الفزاري، قال: كنّا بصفّين مع عليّ، تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظللنا برداء أحمر، إذ أقبل رجل يستقري الصف حتى انتهى إلينا فقال: أيّكم عمار بن ياسر، فقال عمار: أنا عمار، قال: أبواليقظان؟ قال: نعم، قال: إنّ لي إليك حاجة أفأنطق بها سرّاً أو علانية؟ قال: اختر لنفسك، أيّهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: إنّي خرجت من أهلي مستبصراً في الحقّ الذي نحن عليه، لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنّهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتي هذه، فإنّي رأيت في منامي منادياً تقدّم، فأذّن وشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادىٰ بالصلاة ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أُقيمت الصلاة، فصلّينا صلاة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبتّ بليلة لا يعلمها إلّا الله تعالى، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر! قلت: لا، قال عليه السلام فالقه، فانظر ماذا يقول لك عمار، فاتبعه، فجئتك لذلك، فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي! فإنّها راية عمرو بن العاص، قاتلتُها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هي بخيرهنّ، ولا أبرّهن، بل هي شرّهن وأفجرهُنّ. أشهد بدراً وأحداً يوم حُنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإنّ مراكِزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومَن فيه! والله لوددت أن جميع مَن فيه ممن أقبل مع معاوية ويريد قتالنا، مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خَلقاً واحداً، فقطّعته وذبحته، والله لدماؤهم جميعاً أحلُّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنّهم حلال كذلك، أتراني بينت لك، قال: قد بينت لي، قال عليه السلام فاختر أيّ ذلك أحببت»[1]. فهذه الواقعة وأمثالها تفيد أنّ ارتداء ثوب الإسلام من قبل تلك الفرق المنحرفة إنّما كان يخدع البعض من السذج، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لتحذيرهم من الفتنة.

* * *

1. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٢٥٦ بتصرف وتلخيص، وقد نقل هذه الواقعة نصر بن مزاحم في كتاب صفين، ص ٣٢١.

القسم الثالث

أَلا وَإِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلا مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا؛ وَلا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلا وَإِنَّهُ لا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلا وَإِنَّهُ لا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

الشرح والتفسير

الدنيا ليست داركم

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبة إلى تقلّب الدنيا وعدم ثباتها وحذّر الجميع من زخرفها وزبرجها، ذلك لأنّ الإنحراف الذي طال أصحاب الجمل إنّما يُعزى إلى تهافتهم على الدنيا وحطامها، فلا ينبغي لهم السير على خطاهم، وعليهم أن يسلكوا سبيل الحق وإن انتهى بهم إلى الشهادة، فقال: «أَلا وَإِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلا مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ».

فالعبارة، إشارة لما تأكد مراراً في نهج البلاغة والقرآن أنّ الدنيا ليست خالدة وأنّها ليست بدار إقامتنا، بل هي ممرّ مؤقت نجتازه في سفرنا إلى الآخرة حيث مقرّنا ومقامنا بعد التزود من هذه الدنيا لتلك الحياة الحقيقية التي قال عنها القرآن: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم أكّد الإمام عليه السلام أكثر فقال: «أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا».

كما ردّ على أولئك الذين يصفون الدنيا دائماً بالخداع والغرور، فقال: «وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا».

صحيح أنّ أغلب مظاهر الدنيا تثير الغرور والغفلة، لكنها ترينا إلى جانب ذلك بعض المشاهد التي توقظ كل غافل من نوم غفلته. فاللحظة التي ينال فيها أحدهم السلطة ويستولي على العرش، هي ذاتها التي يسقط فيها أخيراً، وفي الوقت الذي يرث فيه شخص الآلاف المؤلفة من الثروة، هو نفس الوقت الذي يحمل فيه جثمان صاحب تلك الثروة ليوسّد التراب، وحين يولد طفل وتطالعنا مظاهر الفرح والسرور على سيماء وجوه أسرته، ترتفع إلى جانبه أصوات أسرة بالعويل لفقدهم أحد أعزتهم، فلم نركز على الصورة الأولى ونتناسى الصورة الثانية؟! حاول الإمام عليه السلام بهذه العبارات العميقة المعنى أن يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة وقد أكّدها في سائر خطب نهج البلاغة وقصار الكلمات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا». كما قال: «وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ[2] عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ».

---

١. سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

٢. «زوي» من مادة (زي) على وزن حي، بمعنى الجمع والأخذ والحمل والإبعاد، وتعني في العبارة الإبعاد والفقدان لأنّها وردت بصيغة الفعل المجهول في العبارة ومعها الحرف عن.

فقد شبه الإمام عليه السلام الأفراد الضعاف الذين لا يكادون يفقدون نعمة من نعم الدنيا حتى يعيشوا حالة من العزاء وكأنّهم فقدوا عزيزاً من أعزتهم بتلك الأمّة التي يرتفع صوتها بالبكاء لأدنى مُلمّة، وربّما دوى صوت البكاء أثر شدّة الجزع. نعم، هذا فعل العبيد الضعاف؛ ضعاف الدنيا وأسرى مظاهرها، والحال، لو فكروا بصورة صحيحة لأدركوا أنّ ما فقدوه مهما كان مهمّاً فلا قيمة له، لأنّهم يفقدونه عاجلاً أم آجلاً، وإن لم يفقدوه اليوم فسيفقدونه ويفقد كل شيء عندما يموت غداً.

أضف إلى ذلك فإنّ أغلب النعم التي تزول إنّما تعود فيما بعد بفضل الله ولطفه، وعليه فلا داعي للتأوه والشعور بالألم والحسرة. ويستفاد من العبارة الأخيرة أنّ أحد عوامل بقاء نِعم الله وديمومتها طاعة الله واتباع أوامره والإلتزام بالقرآن والعمل بأحكامه.

وأشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى نقطة مهمّة أخرى، تتمثل في ضرورة حفظ الدين حين يكون هنالك مفترق طرق وتضاد بين حفظ الدنيا بزينتها وزخرفها وحفظ الدين، فليس هنالك من ضرر يطيل الإنسان إن ذهبت دنياه، بينما لا ينفعه شيء إن ذهب دينه: «أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ». إشارة إلى أنّ الغنى الحقيقي، في حفظ الدين والإيمان الذي يشكل مفتاح حياة الإنسان الأبدية، لا النعم المادية العابرة، فهي عناصر ثانوية تغادر سريعاً كالفقاعات التي تطفو على سطح الماء. نقل المرحوم الكليني أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام كان يقدم كل عام إلى الحج ويرى الإمام عليه السلام، لكنه غاب مدّة. فسأل الإمام عليه السلام أحد أصحابه المعروفين عن ذلك الشخص، فلم يشأ أن يخبر الإمام عليه السلام بوضعه المالي الصعب. فقال عليه السلام وكيف دينه وإيمانه؟ قال: هو والله كما تحبّ. فقال عليه السلام: هو والله الغني[1].

---

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٤.

وأخيراً اختتم عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء: «أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ ٱلصَّبْرَ!» لقد قلنا مراراً إنّ الإمكانات المادية إن استعملت كوسيلة لتحقيق الأهداف المعنوية فهي ليست مذمومة، بل هي من أفضل الوسائل لتطور الانسان ، ولما كان عصر الإمام عليه السلام والأئمة من بعده قد شهد إقبال المسلمين على الدنيا أثر الفتوحات وما جلبت إلى البلاد من أموال طائلة وثروات، فقد جهد الإمام عليه السلام على ذم الدنيا وتحذير الآخرين من الخداع بها، والخطبة المذكورة نموذج لذلك.

٨٠٣

١٧٤

ومن كلام له عليه السلام

فِي مَعْنىٰ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللهِ وَقَدْ قَالَهُ حِينَ بَلَغَهُ خُرُوجُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ إِلىٰ الْبَصْرَةِ لِقِتَالِهِ[١]

نظرة إلى الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة للإستيلاء عليها وقتال الإمام عليه السلام. فأراد الإمام عليه السلام بهذه الخطبة رفع معنويات صحبه وكشف حقيقة طلحة والزبير، وتتألف الخطبة من قسمين:

الأول: الذي قال فيه الإمام عليه السلام إنّه لم يهدد من قبل شخص بالحرب لحدّ الآن، فقد لمس الجميع شجاعتي في ميدان القتال، وعليه فتهديد طلحة والزبير هراء.

والآخر: يستدل فيه الإمام بالبرهان والمنطق أنّ المطالبة بدم عثمان ـ التي يتذرع بها طلحة والزبير من أجل إشعال فتيل الحرب ـ كذبة فارغة، ذلك لأنّ يد طلحة ملطخة قبل أي أحد بدم عثمان.

١. سند الخطبة:
يرى صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الخطبة متصلة بالخطبة ٢٢ و١٣٥ (وحسب أرقامنا، الخطبة ١٣٧)، وأضاف: رواها (باختلافات) المرحوم الشيخ الطوسي في كتابه الأمالي، والخوارزمي في المناقب وشرح ابن أثير في كتابه اللغوي (النهاية) كلماتها الصعبة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٩).

القسم الأول

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَىٰ مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ. وَٱللهِ مَا ٱسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ ٱلْأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ. وَوَٱللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ٱبْنُ عَفَّانَ ظَالِماً ـ كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ـ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَٱلْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ ٱلْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح والتفسير

تناقض طلحة دليل فضيحة

أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى تهديد طلحة والزبير فقال: «قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ».

إشارة إلى أنّ الجميع يعلم بشدّة وقع سيفي في المعارك الإسلامية قد جندلت صناديد العرب حتى اقترن اسمي بالشجاعة لدى الداني والقاصي. وأنّه لمن دواعي العجب أن يجرأ طلحة والزبير على تهديدي بالحرب وقد شهدوا صولاتي في الحروب.

ثم قال عليه السلام: «وَأَنَا عَلَىٰ مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ». يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والذي نصت عليه الآية الشريفة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1] كما يمكن أن تكون إشارة إلى وعد خاص وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله في ظهوره على الناكثين، وقد أطلعه على موقعة الجمل وأخبر عائشة بها صراحة ونهاها عن الخروج، وقد ورد هذا الأمر في التواريخ[2].

ثم تطرق عليه السلام إلى نيّة طلحة والزبير من هذه الفعلة القبيحة فقال: «وَٱللهِ مَا ٱسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً[3] لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ. فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ[4] فِيهِ لِيَلْتَبِسَ ٱلْأَمْرُ وَيَقَعَ ٱلشَّكُّ. وَوَٱللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ٱبْنُ عَفَّانَ ظَالِماً ـ كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ـ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ[5] قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ[6] نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُنَهْنِهِينَ[7] عَنْهُ، وَٱلْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ ٱلْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ[8] جَانِباً، وَيَدَعَ ٱلنَّاسَ مَعَهُ».

ثم قال عليه السلام: «فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ ٱلثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ[9]».

---

١. سورة غافر، الآية ٥١.

٢. أوردنا شرحاً مفصلاً ذيل الخطبة ١٣ في الجزء الأول.

٣. «متجرد» من مادة (تجرد) بمعنى الإستعداد للقيام بعمل بجد واجتهاد، ومنه السيف المجرّد.

٤. «أجلب» من مادة (اجلاب) بمعنى، الجمع والعون.

٥. «يوازر» من مادة (موازرة) ينصر ويعين.

٦. «ينابذ» من مادة (منابذة) بمعنى، المدافعة والمقاتلة.

٧. «منهنهين» بمعنى، الزجر والمنع من العمل، من مادة (نهنهة)، على وزن قهقهة.

٨. «يركد» من مادة (ركود) السكوت والصمت.

٩. معذرين من يصطنع العذر لنفسه أو غيره.

وهكذا يكشف الامام عليه السلام النقاب عن كذب طلحة ومؤامرته بهذا الأسلوب المنطقي ويشير إلى أنّه سياسي محتال ومحترف، ذلك لأنّ وضعه إزاء عثمان ـ طبق الحصر العقلي ـ لا يتجاوز إحدى ثلاث حالات: إمّا، كان يعتبره ظالماً أو مظلوماً أو شاكاً فيه؛ وكل حالة تتطلب تعامل مناسب، لكنه وقف يوماً خلف الكواليس يؤلب الآخرين على قتل عثمان، وما أن قتل عثمان حتى هبّ للدفاع عنه والمطالبة بدمه. هذه هي طريقة الساسة المحترفين الذين يغيرون مسيرتهم بين ليلة وضحاها أحياناً. ولا تبدو سياسة معاوية ـ وإن حاول الابتعاد عن هذه الأحداث ـ مختلفة عن سياسة طلحة. فقد تخلى عن عثمان حتى قتل، ثم طالب بدمه. كان هؤلاء راضيين في الواقع بقتل عثمان، أملاً في نيل الخلافة. وقد صرح الإمام علي عليه السلام بأنّ طلحة لم يتعاون مع قتلة عثمان، والحال، يفيد التاريخ أنّه ساعدهم. طبعاً، مراد الإمام عليه السلام أنّه لم يرد الميدان علناً، لكنه كان ينسّق بعيداً عن الأنظار ـ ما يجدر ذكره أنّ ابن قتيبة ذكر في كتابه (الامامة والسياسة) أنّ عائشة خطبت الناس في البصرة ودعتهم للطلب بدم عثمان، فأبرز رجل من أشراف البصرة كتابا كتبه إليه طلحة يحثّه فيه على قتل عثمان. فقال لطلحة: أتعرف هذا الكتاب؟ قال طلحة: بلى. قال: فما الذي حدث؟ بالأمس تريد قتل عثمان، واليوم تدعوا إلى المطالبة بدمه؟ وقد قلت: إنّ علياً عليه السلام دعاك ليوليك الناس الخلافة لكبر سنك، فأبيت وبايعته حيث قلت: هو أقرب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسوابقه في الإسلام مقدمة، فلمَ نقضت بيعتك؟ أجاب طلحة: لقد قال ذلك بعد أن بايعهِ الناس ووليَ الخلافة، وكنت أعلم أنّه لا يفعل، وإن فعل لم يرض بخلافة المهاجرين والأنصار، فخفت إن لم أبايع أُقتل فبايعت مكرهاً؟ فقال له الرجل: وكيف تغيّر موقفك من عثمان؟ قال طلحة: إنّ قومنا عابوا علينا عدم نصرته، واليوم نطالب بدمه[1] ويتضح من هذا، أنّ الناس آنذاك كانوا يدركون عدم صدق طلحة في مزاعمه. ومن عجائب التاريخ الإسلامي ما رواه المدائني في كتاب

---

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٨٨ ذكرنا مطالب أخرى في الجزء الخامس من هذا الكتاب، ذيل الخطبة ١٣٧.

مقتل عثمان أنّ طلحة منع دفن عثمان ثلاثة أيّام، حتى استعان ببعض الصحابة بعليﷺ لدفنه. وقد أمر طلحة بعض الأفراد بإطلاق الحجر على الجنازة، حتى دفنوه في المدينة في موضع يدفن فيه اليهود، يدعى (حش كوكب)، ثم رماه البعض بالحجر. فبعث عليﷺ مَن منعهم عن هذا العمل[1].

ﮧﮧﮧ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٦، كما ذكر هذه القصة دون ذكر اسم طلحة، الطبري في الجزء الثالث من تاريخه في حوادث سنة ٣٥ ص ٤٣٨ ثم كتب: أمر معاوية أن يهدم جدار حش كوكب ويوصل بالبقيع.

١٧٥

ومن خطبة له عليه السلام

فِي المَوْعِظَةِ وَبَيانِ قُرْباهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ [١]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: ذكر الإمام عليه السلام في القسم الأول: مواعظ قيمة لجميع مخاطبيه - الذين يمثلون في الواقع، الناس على مر العصور - بعبارات مؤثرة توقظ الغافل من غفلته.

وأشار في القسم الثاني إلى علمه بالأحداث القادمة وأنّ ذلك ممّا علّمه إيّاه رسول الله ﷺ حيث صرح بأنّه يستطيع أن يخبر كل أحد منهم بتفاصيل حياته، لكنه يتحفظ ذلك خشية الغلو والكفر.

أمّا القسم الثالث - الذي يمثل آخر الخطبة - فقد أشار فيه إلى سبقه الجميع في الأوامر والنواهي، فلا يأمر بشيء حتى يأتمر هو به ولا ينهى عنه حتى ينتهي هو عنه.

---

١. سند الخطبة:

من المصادر التي نقلت بعض هذه الخطبة، غرر الحكم للآمدي (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٢٢) ويفهم من كتاب تمام نهج البلاغة أنّ هذه الخطبة وردت في مصادر أخرى، وفيها إضافات: ومنها إخبار علي عليه السلام عن الحجر الأسود ونقله من مكة إلى بلاد أخرى من قبل الأعداء ثم يعاد إلى موضعه الاصلي (كتاب تمام نهج البلاغة، ص ٢٨٧).

القسم الأول

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعىً وَبِيٍّ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ. وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير

الغفلة التامة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بخطاب جميع الناس قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ».

ثم أضاف عليه السلام: «مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ[1] بِهَا سَائِمٌ[2] إِلَى مَرْعىً وَبِيٍّ[3]، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ[4]».

رغم أنّ جميع المسلمين يتحدثون عن الله، إلّا أنّ عمل البعض يشير إلى أنّه

---

١. «أراح» من مادة (إراحة) بمعنى إعادة الحيوانات عند المساء إلى الإصطبل، وتطلق أحياناً على حركة الحيوانات في كل زمان، وهذا هو المراد بها في العبارة.

٢. «سائم» تعني في الأصل الشخص الذي يتابع الشيء، ثم استعملت بمعنى الراعي الذي يحمل الحيوانات إلى المرعى، والحيوانات التي ترعى، وتعني في العبارة، الراعي (وعليه لها معنى المتعدي واللازم).

٣. «وبي» من مادة (وباء) بمعنى، الشخص المصاب بالوباء أو أي مرض معدٍ، ومرعى وبي، في العبارة المذكورة بمعنى المرعى الذي يجلب الوباء أو الملوث بالمرض.

٤. «دوي» من مادة (داء) بمعنى، المرض، ودوي، يقال للماء والغذاء الذي يجلب المرض.

تولى عن الله والتصق بالدنيا وهوى النفس، فقد شبّه الإمام عليه السلام مثل هؤلاء بالحيوانات التي حملها الراعي الجاهل أو المغرض إلى مرعى ليس فيه ماء ولا كلاء سوى المرض والموت. هذا الراعي، هو الشيطان وهذه الحيوانات، هم الناس الذين لا يصغون لنداء العقل وقد استغرقوا في هوى أنفسهم، وهذا المرعى المميت هو وادي اللذات والشهوات الذي يفرز الذنوب والمعاصي وبالتالي يقتل روح الإنسان ومعنويته.

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى[1] لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا».

فقد شبّه الإمام عليه السلام بهذين التشبيهين أصحاب الدنيا، بالحيوانات التي لا همّ لها سوى شبعها وأنّ من يقدّم لها العلف يحسن إليها، ولا تعلم أنّ علفها وسقيها مقدمة لذبحها، وهذا حالهم حين ينغمسون في لذات الدنيا وشهواتها.

وأخيراً أشار إلى جانب من علمه بأسرار الغيب وحوادث المستقبل ليقفوا على جديته ومعرفته بما يصلحهم: «وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ[2] وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً فدخل عليه علي عليه السلام فقال: «إِنَّ فِيكَ شَبَهاً مِنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَلَوْ لَا أَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفُ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلاً لَا تَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذلِكَ الْبَرَكَةَ»[3].

---

١. «مدى» جمع (مدية) على وزن لقمة، بمعنى السكّين.

٢. «مولج» بمعنى الدخول إلى الشيء، من مادة (ولوج)، على وزن، ورود.

٣. اصول الكافي، ج ٨، ص ٥٧.

القسم الثاني

أَلا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى ٱلْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَى ٱلْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذٰلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَٱللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

الشرح والتفسير

علّمني رسول الله ﷺ كل شيء

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام أشار في السابق إلى علمه بأسرار الغيب وإخبار كل شخص عن تفاصيل حياته، إلّا أنّه يخشى منهم الغلو والكفر، ليشير هنا إلى أمرين؛ الأول: إني أطلع على هذه الأسرار بعض الخواص من المؤمنين ممن يستحمّلون الأسرار ويحفظونها، والآخر، ما أقوله إنّما سمعته من رسول الله ﷺ فقال: «أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ[1] إِلَى ٱلْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذٰلِكَ مِنْهُ». هذه الخاصة، مثل، كميل بن زياد، ورشيد الهجري، والأصبغ بن نباتة، وميثم التمار، وحبيب بن مظاهر، الذي يسع كل واحد منهم حفظ بعض الأسرار، وقد حفلت حياتهم بالتعرّض لبعض الأسرار في المواقع الحساسة؛ فإذا كان التلامذة يحملون مثل هذه الأسرار ولهم مثل هذه

---

١. «مفضية» في الأصل، من مادة (فضاء)، بمعنى السعة، وعليه فالإفضاء، بمعنى، التوسعة، وحين يتصل شخص بآخر بصورة تامة يكون في الحقيقة قد وسع الوجود بمعونة الآخر، وتعني هذه المفردة الاختلاء بالشخص لبيان الأسرار وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

المقامات، فما ظنك بالأسرار المودعة لدى الأستاذ، والمقام الذي هو عليه؟!!

ثم خاض في الأمر الثاني فقال: «وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذٰلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هٰذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ[1] فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ».

ترى هل كان تعليم النبي ﷺ لهذه الأسرار بصورة بيان جزئي وشرح لكل واقعة، أم أنّه علّم علياً عليه السلام أصول وكليات، وأن كل باب يفتح ألف باب، أم كانت الموارد مختلفة فتارة من خلال الأصول الكلية وأخرىٰ من خلال التفاصيل؟ يبدو الإحتمال الثالث، هو الأقرب. نعم، هذه الأمور ليست واضحة لدينا، والله ورسوله أعلم، إلّا أننا نعلم أنّه أخبر عن حوادث جمة ووقعت كما أخبر، وقد بينت في خطب متعددة من نهج البلاغة، ولو جمعت لكانت كتاباً رائعاً. وبالطبع فإنّ أي من ذلك ليس من علم الغيب الذاتي ـ الذي يختص بالله تعالى ـ بل كما قال عليه السلام في الخطبة ١٢٨ «إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ»[2] ولما كان الإمام عليه السلام قد أفرد جانباً مهمّاً من الخطبة في دعوة الناس إلى ترك الانغماس في الدنيا عاد في ختام الخطبة ليشير إلى هذه النقطة المهمّة في سبقه للعمل بما يأمر فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا». فالشرائط اللازمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم تتضمن ضرورة عمل الآمر والناهي.

كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ»[3]. ولكنّ الآمر والناهي إذا كان عاملاً قبل الآخرين بما

---

١. «أفرغه» من مادة (إفراغ) تعني في الأصل، سكب شيء سيال من الظرف بحيث يخلو مما فيه، ثم استعملت بمعنى إلقاء المطالب المختلفة على الآخر.

٢. للوقوف على المزيد بشأن علم الغيب وعلم الأنبياء والأئمة عليهم السلام راجع إلى هذا الكتاب ج ٥، ص ٣٦٦.

٣. ميزان الحكمة، ج ١، ح ١٢٧٧٦ هناك قضية، وهي أنّ الإنسان إن دعى الآخرين إلى المعروف ونهاهم عن

يأمر به وينهى عنه فسيكون لكلامه أبلغ الأثر في نفوسهم، لأنّ تأثير الكلام إنّما ينبع من القلب، فإن خرج من القلب استقر لا محالة في القلب. ومن هنا كان هذا هو الأسلوب الذي اعتمده رسول الله ﷺ والائمة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم وأنصارهم، فإن نشبت الحرب، كانوا في خطوطها الأمامية وإن حل وقت العبادة تغيّرت ألوانهم، حتى حذر القرآن الكريم رسول الله ﷺ من إجهاد نفسه في العبادة: ﴿طٰهٰ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾[1]. وقال أميرالمؤمنين علي عليه السلام بشأن سبق رسول الله ﷺ في القتال: «كُنَّا إذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»[2]. ونعلم جميعاً أنّ علياً عليه السلام إن حثّ الناس في هذه الخطبة وسائر الخطب على الزهد في الدنيا وعدم التعلق بزخارفها، فقد كان أزهد العباد، وحياته خير شاهد على زهده الفريد. والحق لو انطلق زعماء البلدان الإسلامية من هذه المفاهيم في أن يلتزموا هم وبطانتهم بالعمل بالقوانين قبل غيرهم، لكان لكلماتهم أعظم التأثير في نفوس الآخرين.

المنكر ولم يلتزم هو بذلك فإنّه يشعر بالخجل من نفسه، وهذا الخجل يسوقه بالتالي إلى المعروف والإبتعاد عن المنكر.

١. سورة طه، الآيتان ١ و ٢.

٢. نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٢٢٦.

١٧٦

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَفِيهَا يَعِظُ وَيُبَيِّنُ فَضْلَ القُرْآنِ وَيَنْهى عَنِ البِدْعَةِ[١]

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة طويلة تتحدث عن مسائل مهمّة وتتضمن وصايا حية وبناءة لحياتنا المعاصرة وتتألف من ثمانية أقسام: القسم الأول، الذي يتضمن مواعظ قيّمة يؤكد فيها الإمام عليه السلام أنّ جهنم حُفّت بالشهوات، والجنّة بمقاومة هذه الشهوات. وشرح في القسم الثاني، أهميّة القرآن مع ذكر بعض التفاصيل الظريفة التي تضاعف من شوق القلوب إلى آيات القرآن. وتطرّق عليه السلام في القسم الثالث، إلى العمل بالأحكام والاستقامة.

ثم عاود النصح والوعظ في القسم الرابع، مؤكّداً على مراقبة اللسان الذي يمثل

---

١. سند الخطبة:

صرّح ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، وابن ميثم بأنّ هذه الخطبة أولى خطبة بعد البيعة وقتل عثمان. وهذا يدل على أنّ هذين الشارحين وجداها في مصدر آخر، غير نهج البلاغة، لأنّ المرحوم السيد الرضي لم يشر إلى ما قالاه. كما روى الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) بعضها باختلافات متعددة، وقد بين البعض الآخر من هذه الخطبة في أربعة كتب ألفت قبل نهج البلاغة (كتاب الكافي، والمحاسن، للبرقي، والأمالي للصدوق، وتفسير العياشي). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٠).

أولى مراحل إصلاح الذات والمجتمع. وأكّد في القسم الخامس، على حفظ أصالة التعاليم الإسلامية، ونبذ البدع. كما تعرض في القسم السادس، إلى أهمّيّة القرآن وخصائصه. وأوضح في القسم السابع، أقسام ظلم النفس والآخرين. أمّا القسم الثامن (والأخير في الخطبة) فهو بيان مختصر عميق المعنى بشأن إصلاح الذات.

ﮦﮧ

القسم الأول

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هٰذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هٰذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً.

الشرح والتفسير

حفت الجنّة بالمكاره والنار بالشهوات

إستهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ» يمكن اعتبار هذه العبارات الثلاث تبياناً لحقيقة واحدة بجمل مختلفة، ويحتمل أن تكون كل عبارة مُبيّنة لمطلب معيّن. فقد أوصى عليه السلام بادىء الأمر بالإنتفاع ببيان الله والمراد به الأوامر والنواهي، ومن ثم الإتعاظ بمواعظ الله، أي الترغيب والترهيب والبشارة والإنذار التي تشكل دوافع الطاعة وترك المعصية، والمرحلة الأخيرة مرحلة الخير التي تتضمن بركات الطاعة وهجر المعصية، فالمراحل الثلاث هي السبيل إلى القرب الإلهي. جدير ذكره أنّ لفظ الجلالة تكرر في العبارات الثلاث، وذلك لبيان أهميّة المواعظ والنصائح والشعور بمراقبة الله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال الدليل والبرهان، فقال: «فَإِنَّ ٱللّٰهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَٱتَّخَذَ عَلَيْكُمُ ٱلْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ[١] مِنَ ٱلْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هٰذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هٰذِهِ».

فالإمام عليه السلام لا يرى من مبرر للتواني في قبول المواعظ والإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ذلك لأنّ الله أتمّ الحجة على الجميع ووضع بما لا يقبل الشك، سبيل قبح العقاب بلا بيان. وخاض عليه السلام في الرد على إشكالات مقدرة فقال: «فَإِنَّ رَسُولَ ٱللّٰهِ ـ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ ٱلْجَنَّةَ حُفَّتْ[٢] بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ ٱلنَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»».

وواصل عليه السلام كلامه في بيان حديث الرسول صلى الله عليه وآله، فقال: وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ ٱللّٰهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ ٱللّٰهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي «فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ ٱللّٰهُ ٱمْرَأً نَزَعَ[٣] عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ[٤] هَوَىٰ نَفْسِهِ، فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلنَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً».

فهذه حقيقة، وهي أنّ الإنسان لابدّ له من اجتياز الطرق الصعبة الوعرة في مسيرته العبادية وكسب الفضائل ودفع الرذائل، وعليه مراقبة الأخطار التي تكمن في طريقه وتعيقه عن الوصول إلى هدفه، أمّا في مسيرة المعصية فكأن هذه النفس الجامحة تسلك سبيلاً سهلاً لا ينطوي على أيّة صعوبات. وهذا هو سر ثواب الطاعة وعقوبة المعصية.

نقرأ في حديث لطيفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنّ الله حين خلق الجنّة أمر جبريل

---

١. «محاب» جمع (محب) من مادة الأمر المحبوب.

٢. «حفت» من مادة (حف) على وزن كف، بمعنى الاحاطة بالشيء.

٣. «نزع» من مادة (نزع) على وزن نبض، تتعدى هذه المادة بحرف (إلى) أحياناً فيقال: نزع عنه أي أقلع عن هذا العمل، وقد وردت في العبارة بالمعنى الثاني، واستعملت بالمعنى الأول في العبارات اللاحقة (تنزع إلى المعصية). وتتعدى أحياناً دون حرف الجر كقولهم نزع الشيء أي إبطاله وهدمه.

٤. «قمع» من مادة (قمع) على وزن منع، بمعنى القهر والغلبة.

بالنظر إليها، فأقسم بعزّة الله وجلاله أنّ كل من سمع عنها يود دخولها، ثم حفّها الله بالمكاره وأمره بالنظر إليها، فنظر إليها وقال أخشى أن لا يرغب فيها أحد، وحين خلق النار أمر جبريل بالنظر إليها، فلما نظر إليها أقسم بعزّة الله وجلاله أنّ كل من سمع عنها سوف لن يدخلها، ثمّ حفّها بالشهوات، وأمره بالنظر إليها، فأقسم بعزّة الله وجلاله أنّه يخشى أن يدخلها الجميع»[١].

تأمّل

عشق الطاعة

ما ورد في هذه الخطبة حكم غالب، لا دائم، بعبارة أخرى أنّ أكثر الطاعات مصحوبة بالمشاكل وأغلب المعاصي محفوفة باللذة. والجدير بالذكر أنّ هذا الحكم الغالب يختص بعامّة الناس، وإلّا فإنّ أولياء الله ودعاة الحق إنّما يبلغون درجة تجعلهم يتلذّذون بكل طاعة ويذوبون فيها ويتنفّرون من كل معصية، حيث ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا»[٢] وقد اعتمد الإمام عليه السلام تلك العبادة لأنّ مخاطبيه عامة الناس لا الخواص والأولياء. وصدر الخطبة يشهد على هذا الأمر. القرآن الكريم من جانبه يقول بشأن الصوم والصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٣] سؤال: قيل في تفسير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنّ المعروف ما عُرِف؛ لأنّ روح الإنسان متعرّفة على المحاسن، والمنكر ما لم يُعرَف، وروح الإنسان لا تعرف المساوىء. أليس العبارة المذكورة في الخطبة، تتعارض مع هذا التفسير المشهور؟

يتضح من التأمل أن ليس هنالك من تعارض، لأنّ معرفة المعروف ومجهولية

---

١. سنن أبي داود، ج ٢، ص ٤٢٢، ح ٤٧٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢.

٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٣.

٣. سورة البقرة، الآية ٤٥.

المنكر لا تتنافى من حيث الإدراك الكلّي مع جاذبة المعصية ودافعة الطاعة، مثلاً نلتذّ جميعاً بالعلم ونتنفّر من الجهل، إلّا أنّ تحصيل العلم ينطوي على عدّة مصاعب، بحيث يزهد فيه بعض الأفراد، وينزعون إلى الجهل، حيث الكسل والخمول.

ﮩﮪ

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا - عِبَادَاللهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلاَّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيداً لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ.

الشرح والتفسير

نقد الذات

أعطى الإمام عليه السلام هنا دعاة الحق والسالكين إلى الله درساً معنوياً مهمّاً فقال: «وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلاَّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ[1] عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِياً[2] عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيداً لَهَا».

فإننا نعلم أن أحد حجب تكامل الإنسان، هو حبّ الذات الذي يبدي له عيوبه محاسن وضعفه قوة، وعليه فإن أراد الإنسان سلوك طريق السمو والتكامل، لابدّ أن يتّهم نفسه ويعرضها للنقد ليطرح عنها حجب حب الذات ويريها الواقع كما هو. وقد بين الإمام عليه السلام هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة، قال في الأولى بوجوب إساءة الظن بالنفس ومن ثم انتقادها وأخيراً إيصالها إلى الكمال المطلوب. وقد أشار في خطبة المتقين التي تضمنت مائة وعشرة دروس أخلاقية إلى هذه القضية المهمّة: «فَهُمْ

---

1. «ظنون» صيغة مبالغة من مادة (ظن) ترد في مثل هذه الحالات بمعنى سوء الظن، وعليه، تعني هنا، من ينظر إلى نفسه بالنقد ويتّهمها، كما وردت مادة ظن بمعنى الشيء القليل، وعليه فالظنون تطلق على الفرد الضعيف، والمعنى الأول هو المراد.

2. «زاري» بمعنى عائب، من مادة (زري)، على وزن جري.

لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ».

ثم رغّب مخاطبيه ـ الإنسانية جمعاء ـ في ترك التعلق بالدنيا وقد عرض لهم نماذج السلف الصالح فقال: «فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوَّضُوا[1] مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا[2] طَيَّ الْمَنَازِلِ».

وصايا ضرورية

١. ورد الحثّ في الإسلام والتأكيد على حسن الظن، فما معنى تأكيد الإمامعليه السلام هنا على إساءة الظن؟ سبب ذلك واضح في أنّ حسن الظن يتعلق بالآخرين، أمّا بالنسبة للذات التي تعيش طبيعياً حسن الظن المفرط إلى درجة رؤية الضعف قوّة، والرذيلة فضيلة، ورد الحثّ على إساءة الظن لإيجاد حالة من التوازن. فلابدّ للإنسان من نقد ذاته وتقييم أعماله وسلوكه دون تهاون لينفتح على الكمال. فهو كذاك الذي يجتاز طريقاً خطراً، فإن اطمأن للطريق، هوى وإن احتاط وحذر، نجى. جدير بالذكر أنّ نقد الذات لا يتنافى والثقة بالنفس، فالثقة بالنفس من قبيل وجود قوّة عظيمة لدى الإنسان وهو عالم بها، وهذا لا يمنع من الحذر في مواضع الخطر وعدم نسيان الإحتياط حين الإستعانة بتلك القوّة.

٢. أورد الإمامعليه السلام لمخاطبيه نموذجين (كالسابقين من قبلكم) و(الماضين أمامكم) لانطواء حياة كل فئة منهما على الدروس والعبر.

٣. اختتم الإمامعليه السلام الخطبة بأمرهم بالنظر إلى الدنيا كمَن قوض عماد الخيمة وجمعها وسلك سبيله يطوي المنازل دون الإقامة في الدنيا والإستقرار فيها، ويبدو أنّ جميع مشاكل أهل الدنيا تنبعث من هنا، في أنّهم نسوا الموت تماماً وظنوا بخلودهم في الدنيا، وكأنّهم لا يرون الزلازل والسيول التي تضرب بعض المناطق

---

١. «قوضوا» من مادة (تقويض) بمعنى الهدم، والمراد هنا نزع أعمدة الخيمة وإطنابها لرفعها وجمعها.

٢. «طووها» من مادة (طي) بمعنى الاجتياز.

فتحيلها خلال ثوانٍ، خراباً كأنّها لم تسكن من قبل، وتأتي على مزارع وحقول لتحطم كل محاصيلها التي استغرقت مئات السنين[1].

ﮧ

---

١. تعيش البلاد الإسلامية حالة من العزاء بسبب الزلزال الذي ضرب مدينة (بم) ونواحيها وخلف آلاف الضحايا، حيث أحالت هذه الزلزلة خلال ١٢ ثانية (نعم، فقط ١٢ ثانية) هذه المدينة النضرة إلى كثبان من التراب كأنّها مدينة مهجورة منذ آلاف السنين. نعم، نعلم أن لا اعتبار لهذه الدنيا، لكننا لم نر مثل هذا، حدث ذلك في ٢ ذي القعدة عام ١٤٢٤ هـ.

القسم الثالث

وَاعْلَمُوا أَنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هٰذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَىٰ لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللّٰهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَىٰ اللّٰهِ تَعَالَىٰ بِمِثْلِهِ.

الشرح والتفسير

القرآن دواء لكل داء

بيّن الإمام عليه السلام هنا أهميّة القرآن الكريم بصفته الكتاب السماوي الشافي في خمسة أوصاف فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هٰذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى». فقد أشار بالعبارة الأولى والثانية والثالثة إلى هذه الحقيقة و هي أنّ الناصح الأمين والهادي من لا يكذب أو يغش أو يغدر أو يضل حتى لا يكون سبباً لانحراف الآخرين، فلعل هناك من يعرف السبيل إلّا أنّه لا يصدق الآخرين أو يخدعهم، كما يمكن أن يكون صادقاً لكنه لا يعرف الطريق، والحال، ليس القرآن كذلك، فالوحي إنّما يستند إلى علم الله المطلق

الذي لا يتسلل إليه الكذب والغش والخيانة، فهو كتاب الله الغني عن الجميع والمشفق بهم.

ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجتين مهمتين لهداية القرآن؛ الأُولى، أنّ من يجالس القرآن فهو دائماً في إزدياد ونقصان؛ زيادة في الهدى، ونقصان، من العمى والضلال، والأخرى أنّ القرآن مصدر عظيم، والفرد أو المجتمع الذي يلتزم بأحكامه ويعمل بتعاليمه، لا يصيبه فقر معنوي، ولا مادي، وعلى العكس من فارقه شهد الفقرين. طبعاً قد لا يكون الفرد في زمرة أتباع القرآن الكريم إلّا أنّ أعماله تنسجم مع تعاليمه، كأن لا يكذب ولا يغش ولا يهضم الآخرين حقوقهم فذلك له نصيبه من النجاح والتوفيق، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في وصيته «اَللهَ اَللهَ فِي الْقُرآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ»[1] وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة في كلمة (بعد) في العبارة (بعد القرآن) هل معناها، بعد نزول القرآن، أم بعد العمل به؟ ويبدو المعنى الثاني هو الصواب، لأنّ العمل بالقرآن يزيل الفقر المعنوي والمادّي، لا النزول دون العمل. ويستفاد ضمنيا من هذه العبارة أنّ ما يشهده العالم الإسلامي من ضعف وفقر في الجانب المعنوي والمادي إنّما يُعزى لابتعاده عن القرآن، على غرار من جلس عند عين ماء صافية ويشكو العطش.

ثم خلص إلى نتيجة أخرى فقال عليه السلام: «فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ[2]، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ[3] وَالضَّلَالُ». فالإمام عليه السلام يعتبر القرآن وسيلة لحلّ المشاكل والشفاء من جميع الأمراض الأخلاقية والإجتماعية والمعنوية، ويوجز هذه الأمراض في أربعة: الكفر والنفاق والجهل والضلال؛ ذلك لأنّ القرآن يقذف نور الايمان والإخلاص في القلب

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

٢. «لأوى» من مادة (لأي) على وزن سعي، بمعنى الشدة والمحنة.

٣. «غي» بمعنى العمل الطائش أو الجهل النابع من الاعتقاد الفاسد، حسب الراغب في المفردات.

ويهتك حجاب الجهل ويهدي الإنسان من الضلالة. قطعاً، ليس هنالك من مرض يهدد المجتمع القرآني المعروف بالإيمان والإخلاص.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أخرى: «فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ». ويستفاد من هذا التعبير أنّ القرآن أهمّ وسيلة للنجاة ونيل العناية الإلهية، والعبارة «وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ» إشارة إلى عدم جعل القرآن وسيلة لإلفات انتباه الآخرين بهدف تحقيق بعض الأطماع الدنيوية. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ فُلَانٌ قَارِىءٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَطْلُبَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرَ فِي ذٰلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فِي صَلَاتِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ»[1].

تأمّل

القرآن والشفاء

صحيح أنّ عدّة روايات تحدّثت عن تأثير القرآن في شفاء أمراض البدن أيضاً، ولا يستبعد من كلام الله حتى إحياء الموتى به فضلاً عن شفاء الأمراض، إلّا أنّ ما ركز عليه الإمام عليه السلام في الخطبة، شفاء القرآن للأمراض المعنوية والخلقية التي أوجزها في أربعة: الكفر والنفاق والجهل والضلال، كما أكّد عليه السلام على ضرورة الإستغاثة بالقرآن وتعزيز العلاقة به وحبّه. ويتضح أنّ المراد من التوسل والحب، ما ليس ببعيد عن العمل. وبالطبع فإنّ الاستشفاء بالقرآن من الأمراض الخلقية والإجتماعية والعقائدية يتم من خلال الوقوف على مضامين الآيات والإلتزام بها على صعيد العمل، على غرار مافعله النبي صلى الله عليه وآله حين نهض بذلك المجتمع المريض ليجعله من أقوى وأفضل المجتمعات.

ﮧﮨ

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٠٧ (باب من حفظ القرآن... ذيل الحديث).

القسم الرابع

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح والتفسير

القرآن شفيع القيامة

واصل الإمام عليه السلام حديثه هنا عن بركات القرآن وآثاره، مع هذا الفارق في أنّ الكلام في السابق عن البركات المعنوية والماديّة للقرآن في هذه الدنيا، وهنا عن بركاته في الآخرة، وقد أكّد على شفاعته، فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ[1] بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ». لا شك في أنّ شفاعة القرآن بلسان الحال أو القال لمن عمل به، وشكواه ممن هجره ولم يحط به علماً.

ثم وضح عليه السلام أكثر فقال: «فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ[2] مُبْتَلىً

---

١. «محل» من مادة (محل) على وزن نحل، بمعنى الشكوى الممزوجة بالسعاية والعيب لكنّها وردت هنا بمعنى الشكوى.

٢. «حارث» تطلق على الفلاح، من مادة (حرث)، على وزن غرس، بمعنى الزراعة.

فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ»، وتشير هذه العبارة إلى الحديث المعروف «الدُّنيا مَزْرَعَةُ الآخرَةِ» فالإمام عليه السلام يوصي بزرع بذور الآيات القرآنية في هذه المزرعة، فلا بذور مثمرة سوى هذه، وكل ما سواها ضرر وخسران، فمن طابقت أعماله تعاليم القرآن كانت بذوره آياته، ومن خالف سلوكه القرآن، فلا يحصد سوى الخيبة والخسران.

ثم اختتم عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي كون القرآن بمعيار والميزان لكل الأشياء، فقال: «وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا[1] فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»، حيث أشار عليه السلام بهذه العبارات القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمّة، الأول: ضرورة أخذ العقائد الصحيحة من القرآن، والثاني: كسب الفضائل الخلقية عن طريق القرآن، والثالث: جعل القرآن، الفرقان بين الحق والباطل، فما وافق القرآن صحيح وحق وما خالفه خاطئ وباطل. وهذه العبارة، تأكيد آخر على بطلان التفسير بالرأي وتحميل الأفكار على المفاهيم القرآنية.

جاء في الرواية «مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ»[2].

وورد في رواية أخرى أنّ الله تعالى قال: «مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي»[3].

جدير بالذكر أنّ الاستدلال بالقرآن لمعرفة الله يتمّ تارة عن طريق أدلة التوحيد ـ الواضحة في القرآن بأسره ـ وتارة أخرى عن طريق ذات القرآن، حيث هذا الكتاب العظيم هو دليل النبوة من جانب، وذاته المقدّسة من جانب آخر. ويصدق هذا الكلام على جميع المعجزات، بخصوص القرآن.

أمّا الفارق بين الآراء والأهواء التي وردت في العبارة، أنّ الآراء إشارة إلى العقائد المخالفة للقرآن، والأهواء، الرغبات النفسانية المضادة له.

---

١. «استغشوا» من مادة (غش) على وزن مس، بمعنى، الخداع والأعمال غير الصالحة، وأريد به في العبارة، الظن بالغش في العمل.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٩.

٣. بحارالأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٧.

القسم الخامس

الْعَمَلَ ٱلْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالْإِسْتِقَامَةَ ٱلإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَٱلْوَرَعَ ٱلْوَرَعَ! «إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَىٰ نِهَايَتِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَىٰ غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَـى ٱللهِ بِمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

الشرح والتفسير

الدفاع المشروط

أشار الإمام عليه السلام بعد الفراغ من بيان أهميّة القرآن، إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الهدف النهائي من نزول القرآن، العمل به، لا الاقتصار على تلاوته: «**الْعَمَلَ ٱلْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالْإِسْتِقَامَةَ[1] ٱلإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَٱلْوَرَعَ ٱلْوَرَعَ!**». حقاً أنّ هذه المراحل الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام هي في الحقيقة عصارة السمو والتكامل والسير إلى الله. فالإنسان ينبغي أن يتجه باديء الأمر إلى العمل ومن ثم لا يتهاون في إتمامه، ويراقب نفسه خلال ذلك حذراً من الانحراف عن جادة الصواب ويتحلى بالصبر إزاء أهواء النفس ووساوس الشيطان، حتى يصل المرحلة الأسمى، الورع عند الشبهة حتى يصل الهدف.

---

1. «الاستقامة» ملازمة الطريق المستقيم والثبات على المسار الصحيح، وفسّره بعض أرباب اللغة، بالإعتدال، وكلاهما بمعنى واحد، كما وردت بمعنى الثبات والرسوخ، والاحتمالان واردان بشأن العبارة ولا مانع من الجمع بينهما.

ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ العبارة الثانية والرابعة عطفت بالحرف ثم والثالثة والخامسة، بالواو، لأنّ بلوغ الهدف يكون بعد العمل، ولما كانت الإستقامة هي كيفية العمل فقد عطفت بالواو، وحيث الصبر إزاء المعصية وما ورد قبله، في الطاعة فقد عطفت بالحرف ثم، وعطف الصبر والورع بالواو لأنّهما متلازمان[1]. طبعاً هنالك تفاسير أخرىٰ واردة بشأن العبارة.

ثم أشار عليه السلام إلى هدف المراحل المذكورة وعلامة بلوغ الهدف، فقال: «إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَىٰ نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَىٰ غَايَتِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضية مهمّة هي هدفية حياة الإنسان إلى جانب هدفية التعاليم الدينية، فالله لم يخلقنا عبثاً، والشريعة تنشد هدفاً هاماً هو سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وقد أوصى الإمام عليه السلام بالسعي لنيل هذا الهدف وحذّر من الغفلة والتوقف في الطريق، فعلاماته واضحة. وربّما كان المراد من العلم وجوده عليه السلام والأنبياء والأولياء في كل عصر ومصر، الذين أضاءوا الطريق للجميع، أو المراد، القرآن المجيد، بعبارة أخرىٰ، الكتاب والسُنّة، أو جميع ذلك.

وخلص في الختام إلى هذه النتيجة «وَٱخْرُجُوا[2] إِلَى ٱللهِ بِمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ[3] يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْكُمْ».

المقصود بالشاهد أنّه عليه السلام يشهد في القيامة على الأعمال الصالحة للناس وأداء الحقوق واستقامتهم في سبيل الوصول إلى الهدف وصبرهم وورعهم وتقواهم، والمراد من الحجيج، أنّي سأدافع عنكم وأجيب الملائكة في محكمة العدل الإلهي.

---

١. شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي، ج ١، ص ٢٠٤.

٢. «اخرجوا» من مادة (خروج) ولما كان أداء الحق يخرج الإنسان من المسؤولية فقد وردت بهذا المعنى، وإذا تعدت هذه المفردة بالحرف (من) عنت أداء الحق.

٣. «حجيج» من مادة (حج) وردت بمعنى الغلبة، ويطلق الحجيج على من يغلب الخصم بالدليل والبرهان.

فهذه العبارات اقتباس من القرآن الكريم وقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[١] وقال بشأن النبي الأكرمﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[٢].

ﮪﮫ

١. سورة الاسراء، الآية ٧١.

٢. سورة النحل، الآية ٨٩.

القسم السادس

أَلا وَإِنَّ الْقَدَرَ السّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضاءَ الْماضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ؛ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وَقَدْ قُلْتُمْ: ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلى كِتابِهِ، وَعَلى مِنْهاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصّالِحَةِ مِنْ عِبادَتِهِ ثُمَّ لا تَمْرُقُوا مِنْها، وَلا تَبْتَدِعُوا فِيها، وَلا تُخالِفُوا عَنْها، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَاللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى الأحداث السابقة، فقال: «أَلا وَإِنَّ الْقَدَرَ السّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضاءَ الْماضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ[1]». وردت عدّة احتمالات من قبل بعض شرّاح نهج البلاغة بشأن المراد من القضاء والقدر في العبادة، ولكن بالنظر إلى العبارات القادمة فلا يستبعد أن تكون إشارة إلى الأمور المرتبطة بزعامته عليه السلام ـ التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ومواجهته للناكثين ـ والمفروغ منه أنّ القضاء والقدر ـ كما شرحناه في محله ـ لا يعني إجبار العباد وسلب اختيارهم، بل إنّ آثار الأفعال الإختيارية للإنسان نوع من القضاء والقدر؛ مثلاً، إنّ الله قدّر نجاح من يسعى ويجد ويجتهد، وفشل من يتوانى ويكسل، فهذه الأمور وإن جرت باختيار الإنسان إلّا أنّ الله مسبب الأسباب جعل لذلك آثاراً تعتبر من القضاء والقدر، طبعاً، هناك القضاء والقدر

1. «تورّد» من مادة (ورود) بمعنى، الدخول، وتستعمل حين يكون الدخول تدريجياً.

الالزامي الخارج عن حدود الأفعال الانسانية[١].

ثمّ بيّن عليه السلام وظيفة الناس بالنسبة للمستقبل، فقال: «وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾».

ثم خلص إلى نتيجة واضحة، فقال: «وَقَدْ قُلْتُمْ: ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ».

إشارة إلى أنّ القول بلا عمل لا يؤدّي إلى الهدف ولا يوجب دخول الجنّة والفوز بالسعادة الأبدية، فما دمتم أظهرتم الايمان فعليكم بالعمل لتشملون بوعد الله.

ثم بيّن عليه السلام الأخطار التي تكمن في طريق المؤمنين، فقال: «ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ[٢] مُنْقَطَعٌ[٣] بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فقد أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى ثلاث فرق من المنحرفين وحذّر من السير على نهجهم، الفئة الأولى: التي تمرق من الدين وترى نفسها على الدين بينما هي بعيدة عنه كل البعد، كخوارج النهروان الذين نعتتهم الروايات والتواريخ بالمارقين، فقد بلغوا درجة من التعبد والتمسك بقشور الدين بحيث يحسبهم الجاهل من المتدينين الحقيقيين، والحال، ليس لهم حظ من الدين سوى ظاهره ولا يعلمون عن حقيقة الدين شيئاً.

الفئة الثانية: أهل البدع الذين يُحمّلون الدين ما ليس منه، والواقع أنّهم يقدمون أهواءهم وأفكارهم على أحكام الدين ولم يكونوا قلائل على عهد الخلفاء. الفئة الثالثة: التي تخالف الأحكام الشرعية عامدة وتترك ما لا ينسجم مع مصالحها

---

١. للوقوف على المزيد، راجع شرح آيات القضاء والقدر في التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٩ من سورة القمر، وكتاب دوافع ظهور الدين.

٢. «مروق» تعني في الأصل، مرور السهم من الهدف، ويطلق المارقين على الخوارج الذين أفرطوا في الدين حتى خرجوا منه.

٣. «منقطع بهم»: بمعنى الفرد الذي انتهى متاعه أو أوقف مركبه وسط الطريق ولم يصل الهدف.

ومنافعها، وأفضل نموذج على ذلك، معاوية حين ظهر ودخل الكوفة خطب الناس، فقال: «والله لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا وتحجوا وتزكوا فأنتم تفعلون ذلك، ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم» (وقيل على رواية، لأتسلّط على رقابكم)[1]. نعم، من جانَبَ هذه الطرق المنحرفة ولم يصغِ لوساوس الشيطان وهوى النفس فهو الذي قال: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

تأمل

الإستقامة في مسار الولاية

ورد في بعض الروايات في تفسير العبارة «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» (المقتبسة من الآية ٣٠ من سورة فصلت) أنّها إشارة إلى الولاية. فقد أجاب الإمام علي بن موسى الرضاﷺ مَن سأله عن الإستقامة في الآية المذكورة، فقال: «هِيَ وَاللهِ مَا أَنْتُم عَلَيهِ»[3]. طبعاً الإستقامة والثبات على الصراط لهما مفهوم واسع، واحد مصاديقه البارزة، ولاية أهل البيتﷺ.

سؤال: متى هذه البشارة التي تزفها الملائكة للمؤمنين، عند الموت أم في الحياة الدنيا أم القيامة؟ هل يلمس المؤمنون هذه البشارة، أم لا؟

الجواب: ممّا لا شك فيه أنّ نجدة الملائكة ـ طبق صريح الآيات القرآنية ـ للمؤمنين في الظروف الحساسة مبذولة في هذه الحياة الدنيا، ونموذج ذلك ما حصل

---

١. نقل ذلك الكلام الكثير من مصادر المحدثين والمؤرخين ومنها: مصنف ابن أبي شيبة، ج ٧، ص ٢٥١؛ وتاريخ دمشق، ج ٥٢، ص ٣٨٠؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٨، ص ١٤؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٥١٠ وورد إلى جانب ذلك، قوله: كل شرط أعطيته فهو تحت قدمي (إشارة إلى عدم التزامه بالشروط في صلحه مع الإمام الحسنﷺ).

٢. سورة فصلت، الآية ٣٠.

٣. مجمع البيان ذيل الآية ١٢٤.

في موقعة بدر والأحزاب[١]؛ طبعاً لم يرهم المؤمنون إلّا أنّهم شاهدوا إمداداتهم الغيبية على صعيد نصرتهم في ميدان القتال. وما يستفاد من الروايات أنّ بشارة الملائكة المذكورة في الآية السابقة، والتي أشارت إليها الآية ٣١ من سورة فصلت، تتعلق بلحظة الموت أو الحشر وقد فسّرت العبارة «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...» بصيغة «ونحن كنّا أولياءكم في الحياةالدنيا»، أي، كنّا أولياءكم في الحياة الدنيا وسنتولاكم لحظة الإحتضار والقيامة. روىٰ صاحب مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أَلَّا تَخَافُوا مَا تَقْدِمُونَ عَلَيْهِ وَلَا تَحْزَنُوا مَا خَلَّفْتُمْ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا»[٢].

۞۞

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٢٤؛ سورة الأحزاب، الآية ٩.

٢. مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة.

القسم السابع

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ ٱلْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَٱجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَٱللهِ مَا أَرَىٰ عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَىٰ تَنْفَعُهُ حَتَّىٰ يَخْزُنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ ٱلْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ. وَإِنَّ ٱلْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَىٰ ٱللهَ تَعَالَىٰ وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح والتفسير

فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان

بيّن الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بعض المسائل المهمّة المرتبطة بتهذيب الأخلاق وتطهير الروح من الرذائل الخلقية، وأشار إلى الأمور المهمّة التي تشكل مفتاح الإصلاح الأخلاقي، فقال: «ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ ٱلْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا[1]». بالنظر إلى أنّ تهزيع، من مادة هزع، على وزن نظم، بمعنى التكبير، وكأنّ الإمام عليه السلام يرى أنّ الفضائل الأخلاقية كالبناء الشامخ والجوهر الثمين الذي يمثل أي انحراف فيه كسره وتغيير شكله، ولا يقتصر هذا البناء على الفرد، بل حتى المجتمعات البشرية إن

---

1. «تصريف» بمعنى، التغيير.

فقدت الفضائل الاخلاقية تنحدر نحو الفساد والانحراف والزوال:

إنّما الأمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيتْ   فَإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقُهُم ذَهَبُوا

ثم ركّز الإمام عليه السلام على واحدة من أهم المسائل الأخلاقية التي لا يتسنى تهذيب النفس إلّا من خلالها والتي تتمثل بإصلاح اللسان، قائلاً: «وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً» حيث تقابل هذه العبارة تلك العبارة «ذواللسانين» بحق المنافق، الذي يقول شيئاً في حضور الإنسان وآخر في غيابه. ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[1] ومن الطبيعي أن تغيب كل معاني المحبّة والمواساة التي تشكل الركن الأساس للحياة الإجتماعية في المجتمع الذي يمتاز أفراده بالنفاق والإبتعاد عن الصدق، وليس هنالك سوى سوء الظن الذي يسود المجتمع.

ثم قال في الوصية الثانية: «وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ[2] بِصَاحِبِهِ». فتشبيه اللسان بالفرس الجموح تشبيه رائع ولطيف، ذلك لأنّ اللسان أسهل عضو لدى الإنسان يحركه دون عناء، إلّا أنّ أهواء النفس ووساوس الشيطان قد تغلب الإنسان بحيث لا يستطيع السيطرة عليها، فيصبح كالفرس الجموح الذي يغلب فارسه فيوشك أن يطرحه في المهلكة. ولعل أفضل وسيلة لحفظه من الخطر أن يقلّل الإنسان من كلامه، وهذا هو المراد من حفظ اللسان، وليس بعدم الكلام قط، ذلك لأنّ اللسان أهم وسيلة في التربية والتعليم ونقل العلوم والمعارف والتجارب وذكر الله تعالى.

ثم أكد عليه السلام ذلك، فقال: «وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَىً تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ». فهذا التأكيد المقرون بالقسم إشارة إلى المرحلة الأُولى التي قال بها أرباب السير والسلوك إلى الله والتي تتمثل بإصلاح اللسان، وما لم يجتز الإنسان هذه العقبة فلن

---

١. سورة البقرة، الآية ١٤.

٢. «جموح» من مادة (جمح) الفرس، الذي يغلب صاحبه.

يقف على حقيقة التقوى والقرب من الله.

ثم تطرّق الإمام عليه السلام إلى أهميّة حفظ اللسان في أنّ إحدى فوارق المؤمن عن المنافق إنّما تكمن في هذا الموضوع فقال:

«وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ ٱلْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ. وَإِنَّ ٱلْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ».

طبعاً، لسان كل شخص في فيه، والقلب ـ سواء العضو الواقع في وسط الصدر أو المراد به العقل ـ مفصول عن اللسان، ولا فرق في هذا بين المؤمن والمنافق، لكن هناك كناية لطيفة في العبارة، أنّ المؤمن يفكّر ثم يتكلّم، أمّا المنافق فيتكلّم ثم يفكّر، الأمر الذي فسره الإمام عليه السلام في العبارات القادمة.

جدير ذكره أنّ هذا المعنى ورد بصورة أخرى في قصار كلمات الإمام عليه السلام ومنها: «لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»[1]. وقال: «قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ» وكل هذه العبارات تشير إلى حقيقة واحدة هي أنّ المؤمن والعاقل يفكّر وينطق والمنافق والأحمق ينطقان ولا يفكّران.

سؤال: يمتاز المنافقون عادة بالذكاء والخطط الجهنمية في مشاريعهم الهدّامة فكيف يوصفون بأنّهم لا يدرون ماذا لهم وماذا عليهم؟!

الجواب: تمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الواردة بشأن المنافقين وهو أنّ المنافق وإن كانت له بادىء الأمر بعض الخطط الشيطانية والذكية حتى يرى نفسه عاقلاً والمؤمن سفيهاً، إلّا أنّ المنافق في خاتمة المطاف هو السفيه الحقيقي، قال القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وعليه تتضح فطنة المؤمن

---

١. نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٤٠.

٢. سورة البقرة، الآية ١٣.

وبلادة المنافق من خلال التأمل الدقيق، والمنافق شاء أم أبى فهو مفضوح في الدنيا والآخرة.

ثم استدل عليه السلام بحديث عميق المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ : «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**».

فالعلاقة القائمة بين إصلاح اللسان والقلب والإيمان في هذا الحديث هي علاقة جدلية واضحة. وقد دلّت التجربة على أنّ سوء اللسان وتلوثه بالذنوب والكلمات العبثية الفارغة، يسود القلب ويخلي الروح من المعنوية، ومن الطبيعي أنّ القلب إذا اسودّ لن يجد بصيص نور الإيمان. قال القرآن الكريم في تعبير دقيق وبعيد: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾[1] وعليه فالعلاقة بين إصلاح اللسان وإصلاح القلب وإصلاح الإيمان علاقة لازم وملزوم، وإن تكلّف بعض الشرّاح في تفسير العبارة. طبعاً، لا يمكن إنكار صدق عكس هذا المعنى، أي أنّ قوة الإيمان تؤدي إلى نورانية القلب والذي يؤدّي إلى إصلاح اللسان، وبعبارة أخرى، تؤثر هذه الأمور الثلاثة في بعضها البعض الآخر تأثيراً متبادلاً، إلّا أنّ الأبرز، ما ورد في حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ثلاثة مواضيع مهمّة أخرى، فقال: «**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ**» قطعاً، أنّ مثل هذا الفرد على درجة رفيعة من الورع والتقوى التي تجعله مشمولاً بعناية الله ورحمته. وأيّ تقوى أعظم من كفّ الأذى عن الناس واحترام أموالهم وأعراضهم وأنفسهم. ويبدو هذا الموضوع على قدر من الأهميّة بحيث كانت رعايته دليلاً على كون الفرد مسلماً وهجره دليلاً على بعده عن الإسلام، ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ**

---

١. سورة الاحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١.

الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[١] وأبعد من ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام الذي أوسعه ليشمل الناس، فقال: «اَلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنِ ائْتَمَنَهُ النَّاسَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»[٢].

تأملات

١. اللسان اعجب اعضاء البدن

لهذه القطعة البسيطة من اللحم والتي نسمّيها (اللسان) مسؤوليات خطيرة على مستوى الظاهر والباطن. ولو تأملنا نطق الآخرين لرأينا أنّ اللسان يتحرك بسرعة مذهلة في الفم فيرتب الحروف سريعاً لينطلق ببعض الكلمات، ولا يكل أبداً. ولو أخطأ قليلاً في الحركة لصدرت منه الكلمات المهملة والمضحكة أحياناً، كما يقوم بدور فريد حين تناول الطعام حيث يدفع الغذاء بسرعة فائقة إلى الاسنان وينسحب قليلاً بغية طحنه. ووظيفته الأخرىٰ تتمثل في جمع الطعام الممضوغ ودفعه إلى البلعوم، ولولا اللسان لتعذر علينا ابتلاع الماء والغذاء؛ هذا من حيث الظاهر. وأمّا من حيث القضايا المعنوية والأخلاقية، فدور اللسان واضح وجليّ؛ فهو أبسط وسيلة عبادية وأهم وسيلة للمعصية؛ فأفضل العبادات (الصلاة، تلاوة القرآن، التربية والتعليم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و...) إنّما تتمّ باللسان، كما قيل بأنّ ثلاثين كبيرة (من قبيل الغيبة، التهمة، أذى المؤمن، الحكم بالباطل، إيجاد الفساد، والإختلاف و...) ترتكب بواسطة اللسان، فاللسان أفضل وسائل الطاعة كما أنّه أخطر وسائل الذنب، ذلك لأنّه مستعد في كافة الأزمنة والأمكنة والظروف ودون أدنى تكاليف لارتكاب الذنب،، والأدهى من ذلك أنّ ذنوب اللسان أثر كثرتها وسعتها لم تعد قبيحة لدى عوامّ الناس، ومن هنا كانت الخطوة الأُولىٰ لإصلاح

١. ميزان الحكمة، ح ٨٧٧٨

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥١، ح ٣.

الذات تكمن في إصلاح اللسان. هنالك طريقان مهمّان للنجاة من معاصي اللسان أشار إليهما الإمام عليه السلام؛ الأول: قلّة الكلام واجتناب الفضول للخلاص من آفات اللسان. الثاني: أن يفكر كلما أراد الكلام، كما قال الإمام عليه السلام أن يكون لسانه وراء قلبه، لا أن يكون قلبه وراء لسانه كالمنافق والأحمق. ويبدو الكلام بهذا الشأن كثير، نختصره ونختتمه بالحديث النبوي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يُعَذِّبُ اللهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَا يُعَذِّبُ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ عَذَّبْتَنِي بِعَذَابٍ، لَمْ تُعَذِّبْ بِهِ شَيْئاً فَيُقَالُ لَهُ: خَرَجَتْ مِنْكَ كَلِمَةٌ فَبَلَغَتْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَسُفِكَ بِهَا الدَّمُ الْحَرَامُ وَانْتُهِبَ بِهَا الْمَالُ الْحَرَامُ وَانْتُهِكَ بِهَا الْفَرْجُ الْحَرَامُ، وَعِزَّتِي (وَجَلَالِي) لَأُعَذِّبَنَّكَ بِعَذَابٍ لَا أُعَذِّبُ بِهِ شَيْئاً مِنْ جَوَارِحِكَ»[1].

٢. رصيد الإنسان

إنّ رصيد الإنسان ثلاثة أشياء: النفس والمال والعرض، ولعل العرض يتقدم على الجميع حيث يستعد الإنسان للتضحية بنفسه من أجله، ثم النفس والأموال. وقد أولى الإسلام هذه الأمور الثلاثة أهميّة فائقة، وكما ورد في الخطبة فإنّ النجاة يوم القيامة لمن سلمت يده من دماء الناس وأموالهم ولم يتعرض لأعراضهم. ويرى الإسلام حرمة الأموال كحرمة الأنفس، وأنّ حرمة إنسان كحرمة البشرية جمعاء، وأنّ انتهاك حرمة مؤمن بغيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً. ورد في الحديث النبويّ في حجة الوداع في منى، (التي يقصدها الناس من مختلف مناطق العالم) أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس بعد أداء مناسك الحج فقال: أيّ يوم أفضل أيّام السنة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: وأيّ أرض؟ قالوا هذه الأرض. فقال صلى الله عليه وآله: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣، ح ٣.

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ لَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هٰـذَا إِلَـىٰ يَـوْمِ تَـلْقَوْنَهُ فَيَسْئَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ»، ثم قال: هل بلّغت؟ قالوا: بلى. قال ﷺ: «اللّهم فاشهد»[1].

ﮰﮯ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٥٠.

القسم الثامن

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عاماً أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عاماً أَوَّلَ؛ وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلٰكِنَّ الْحَلاَلَ مَا أَحَلَّ اللهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ.

الشرح والتفسير

أخطار البدع

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى آفة دينية واجتماعية أخرى ليكمل ما ذكره من آفات، وتلك الآفة هي البدعة وتغيير أحكام الله على ضوء الرغبات والأهواء النفسية، فقال: «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عاماً أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عاماً أَوَّلَ».

لا يُخضع الأحكام الشرعية لهوى نفسه ويُغيرها بأفكاره الناقصة، فلو فتح باب البدع في الأحكام لغيّر الظلمة والطواغيت كل ما لا ينسجم مع مصالحهم ومنافعهم، فلا تمضي مدّة حتى تندرس أصول الدين وفروعه ويمحق محتواه. والعبارة تشير

إلى البدع التي وردت إلى الدين عقب وفاة النبي الأكرمﷺ، ولم يكتف القوم بالقياس عند عدم وقوفهم على نصوص الكتاب والسُنّة، بل هبّوا لمخالفة صريح القرآن وسُنّة النبي الأكرمﷺ. فالخليفة الثالث خالف طريقة رسول اللهﷺ في توزيع أموال بيت مال المسلمين وتسويته بينهم في العطاء، فقدم الأعيان والأشراف ولا سيما خاصته وبطانته من قرابته. ثم انبرى الخليفة الثاني ليقول صراحة: متعتان كانتا حلالاً على عهد رسول اللهﷺ وأنا أُحرمهما وأُعاقب عليهما، متعة النساء (الزواج المؤقت) ومتعة الحج (الحج بصورة حج التمتع) ناهيك عن سائر البدع التي ظهرت على عهد الخلفاء والتي أحصتها بعض الكتب[1]. والإمامعليه السلام بدرايته الواسعة شعر أنّه إن لم يقف بوجه هذه البدع لمحق الدين وغيبت أحكامه، ولذلك عدَّ الابتعاد عن البدعة من الإيمان.

ثم قالعليه السلام: «وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلٰكِنَّ ٱلْحَلَالَ مَا أَحَلَّ ٱللهُ، وَٱلْحَرَامَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ». ومن ثم أشار إلى نقطة بمثابة الدليل على ما ذكر، فقال: «فَقَدْ جَرَّبْتُمُ ٱلْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا[2]، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ ٱلْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَىٰ ٱلْأَمْرِ ٱلْوَاضِحِ». بمعنى أنّكم شاهدتم حجم المصائب والإرباكات التي جرّتها البدع السابقة على الإسلام والمسلمين. فالبدع في زمان عثمان أدّت إلى تلك الثورة الهوجاء التي سفكت دمه وأحدثت التمييز بين العرب والموالي، إلى تلك الفرقة بين المسلمين أيضاً وكان عاقبتها سفك دمه أيضاً[3]. وناهيك عمّا سبق، فإنّ الله ذمّ اليهود في القرآن الكريم على بدعهم وتحريفاتهم وكشف عن مصيرهم، وأنتم قد جرّبتم البدع وقد وعظتم بمن كان

---

١. راجع النص والاجتهاد للمحقق المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين.

٢. ضرستموها، من مادة (ضرس) على وزن درس، بمعنى، العض أو البعض أو العض الشديد بالأسنان، ثم وردت بمعنى الدراسة الدقيقة للشيء، وهذا هو المراد بها في العبارة.

٣. ذكرنا قصة أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة الذي شكى مظالم المغيرة إلى عمر فلم يُصغِ له فشعر بالبغض والكراهية له حتى قتله. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة الشقشقية.

قبلكم، فقد دعوتم إلى مطلب واضح قامت عليه الأدلة الحية والتجريبية والنقلية.

ثم خلص إلى هذه النتيجة: «فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَىٰ عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا أَعْمَىٰ. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ ٱللهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْعِظَةِ، وَأَتَاهُ ٱلتَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ[١]، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ».

فالتجارب الحسية والبلاء الإلهي أهم وسيلة لإيقاظ الإنسان، فمن لم يتيقظ بهذا الاسلوب يستبعد أن ينتفع بالمواعظ والنصائح، وليس له من عاقبة سوى رؤيته للحسن سيئاً والسيء حسناً، كما أورد ذلك القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢].

فقد حسب معاوية وطلحة والزبير أنفسهم من المدافعين عن دم المظلوم (دم عثمان) هذا في صدر الإسلام، واليوم يرى أصحاب البدع الوهابيون أنهم مصلحو هذه الأمة، وعادة ما يزعم المبتدعون طيلة التاريخ أنهم مصلحون.

ويختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارة، لتمييز صفوف المبتدعين من صفوف المتبعين للدين، فيقول: «وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ» وعليه فلابدّ لكل شخص من معرفة صنفه. فإن كان متشرّعاً فهو تابع للكتاب والسُنّة والدليل العقلي اليقيني، وإن كان في صف المبتدعين فليس لديه دليل من كتاب ولا سُنّة ولا نور ولا ضياء من عقل ولا يتبع سوى أهوائه ويغيّر أحكام الله بما ينسجم وتلك الأهواء. وبناءً على ما سبق فإنّ برهان السُنّة إشارة إلى الأدلّة النقلية، وضياء الحجة الأدلة العقلية، وهكذا يُعرّف الإمام عليه السلام أهل البدع بأنّهم الأفراد الذين يتبعون أهواءهم وخيالاتهم الباطلة.

---

١. «أمامه» تعني في الأصل جهة الأمام والعبارة (أتاه التقصير من أمامه)، أي، أتاه التقصير علانية.

٢. سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

تأمّل

البدعة

ركّز الإمام عليه السلام في المقطع المذكور من الخطبة على وقوفه بوجه البدع. والبدعة في اللغة تعني إيجاد الشيء دون تجربة أو مثال وهي ممدوحة حيناً ومذمومة حيناً آخر. فالقرآن يصف الله بالقول: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١]، كما يصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[٢] والمراد هو المفهوم المذكور. إلّا أنّ لهذه المفردة مفهوماً خاصاً في لسان الروايات وكلمات الفقهاء وهو تغيير الأحكام الشرعية وتبديلها بأحكام طبق الرغبات النفسية والمنافع الشخصية. ومن هنا ورد الذم الشديد للبدعة في الروايات، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَهْلُ الْبِدَعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»[٣].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْعَامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا»[٤] والروايات كثيرة بهذا الشأن والتي ذمّت بشدّة، البدعة والمبتدع. والسبب واضح، فكما ذكرنا سابقاً أنّ باب البدع لو فتح لما بقي من أحكام الدين وأصوله وفروعه شيءٌ ولمحق الدين. وعلى هذا الأساس قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ»[٥].

ويتضح من هنا خطأ أولئك الذين خلطوا المعنى الواسع للبدعة بمعناها الخاص ليزعموا أنّ كل القضايا متجددة، فمن يسعه الوقوف بوجه التجدد؟ وأمّا أولئك فإنهم يرون تغيير الآراء الإجتهادية وكشف المسائل المستحدثة من الكتاب والسُنّة ضرباً من البدعة، فإمّا أنّهم يخدعون أنفسهم أو أنّهم يريدون خداع الآخرين. فكشف

---

١. سورة البقرة، الآية ١١٧.

٢. سورة الأحقاف، الآية ٩.

٣. ميزان الحكمة، ح ١٦٢٩.

٤. المصدر السابق، ح ١٦٣٢.

٥. المصدر السابق، ح ١٦٣٥.

المسائل المستحدثة من الكتاب والسُنّة تبعية للشرعة لا بدعة بالمعنى الخاص للكلمة؛ أي، تحريم حلال الله وتحليل حرمته استناداً لأهواء النفس والمنافع الشخصية. جدير بالذكر أنّ المبتدعين وخشية اعتراض المؤمنين يلجأون إلى التغيير بالرأي، فيحرفون آيات القرآن الكريم أو روايات المعصومين عليهم السلام ليوردوا البدع. وبالطبع فإنّ هؤلاء أعظم خطراً من الذين يمارسون البدعة علانيةً. على كل حال، فقد قال الإمام عليه السلام في هذه الخطبة: إنّ المؤمن مَن يلتزم بحلال الله وحرامه ولا يغيرهما، ويعمل بالأحكام الشرعية في كل الأوقات ولا يحيد عن الكتاب والسُنّة.

ﮪﮫ

القسم التاسع

وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

الشرح والتفسير

القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم

تطرق الإمام عليه السلام هنا ثانية إلى القرآن وعظمته ليتم ما ذكره سابقاً فأشار إلى بعض الأمور الجديدة فقال: «وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ». ذلك لأنّ الكتب السماوية التي أنزلها الله لهداية الخلق تشتمل على أعظم المواعظ. ويمتاز القرآن من بين هذه الكتب بكونه الشمس المشرقة ومواعظه فريدة وإرشاداته قيّمة. فتارة يتحدث مباشرة للعباد، وأخرى كسؤال يجيب عنه الوجدان، وأحياناً يطرق التاريخ الماضي المليء بالدروس والعبر، وأحياناً أخرى يتحدث من خلال المثال البليغ ويلبس الحقائق العقلية ثوب الحسّ، ويورد كل ذلك بعبارات تفيض رقة وعذوبة وبلاغة، ومن هنا فليس هنالك من مواعظ كمواعظ القرآن.

ثم ذكر عليه السلام أدلة ذلك، فقال: «فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ[1]»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ

---

1. «متين» من مادة (متن) يعني في الأصل العضلتان القويتان على طرفي العمود الفقري، ثم أطلق على كل موضوع محكم.

ٱلْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ[١] ٱلْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ». فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات الخمس ما يمكن قوله في القرآن: الأول: أنّه حبل الله المتين وكأنّه سحب من السماء إلى الأرض ليتمسك به العباد، فيحلّقون به إلى عنان السماء ويبلغون مقام القرب. وهذه هي العروة الوثقى التي أشار الله إليها في كتابه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا﴾. يعني لا شك فيه أنّ الطريق إلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو القرآن.

الثاني: أنّه السبب الأمين، أي، الواسطة بين الخلق والخالق والذي لا يعرف الزلل والخيانة وكل ما فيه حق خالص. والثالث: أنّ القرآن ربيع القلوب، فكما تدبّ الحياة في الربيع في الأشجار الميتة وتتفتح غصونها وأوراقها، كذلك من ينفتح على القرآن يشعر بحيوية روحه وحياته بالإيمان والفضائل والأخلاق. الرابع: أنّ القرآن ينابيع العلوم، ليس فقط العلوم التي تتعلق بمعرفة الله وتربي في الإنسان روح الفضيلة والورع والتقوى فحسب، بل القرآن دافع للخوض في العلوم التي تعني بخلق الإنسان والسماء والأرض وسائر الأحياء والكائنات، وله إشاراته العميقة المعنى في كل هذه العلوم. وأشار في الخامس إلى هذه الحقيقة وهي، أنّ جلاء القلوب مما يعلق بها من أدران الذنب والغفلة لا يتيسر إلّا بنور القرآن الذي يزيل عنها الصدأ من خلال تلاوته وتدبّر آياته. أمّا قصّر الجلاء على القرآن فذلك لأنّ سائر الوسائل إنّما تستند في الواقع إلى القرآن، فالقرآن مصدر كل شيء. ومن الطبيعي أن يكون الكتاب الذي يشتمل على هذه الخصائص أفضل واعظ.

وأعرب الإمام عليه السلام عن أسفه لوضع المسلمين تجاه القرآن، فقال: «مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ٱلْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ ٱلنَّاسُونَ أَوِ ٱلْمُتَنَاسُونَ» هذه العبارة إجابة عن سؤال مقدّر في أنّ الآثار العظيمة التي أشير إليها بشأن القرآن إن انحسرت في المجتمع الإسلامي فسبب ذلك لا يُعزىٰ إلى القرآن، بل لغفلة الجهال والمنافقين أو تغافلهم

---

١. «ينابيع» جمع ينبوع، على وزن مقبول، العين.

عن هذا الفيض الإلهي. ولعل هذه العبارة تشبه تلك التي ذكرها الإمام عليه السلام في الخطبة ١٨٢ حين أعرب عن أسفه على شهادة صحبه الأوفياء، فبكى، وقال: «أَوِّهْ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ».

فقد صنّف الإمام عليه السلام الناس إلى ثلاث فئات، فئة يقظة تنتفع دائماً بآيات الله، وأخرىٰ غارقة في ماديات الدنيا نَسِيَت القرآن، وثالثة، عمدت إلى تناسي تعاليم القرآن، فهي تمرّ عليه بكل بساطة رغم معرفتها بأهدافه. طبعاً إن رأينا المجتمع الإسلامي يشكو المرض من عدّة جوانب، فذلك ليس لتقصير الطبيب ولا عدم فائدة الوصفة الطبية، بل السبب الحقيقي يكمن في عدم الإلتزام بهذه الوصفة الإلهية الشافية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وكأنّه ردّ على إشكال مَن يقول: إن كانت هناك فئة نَسِيَت طريق الحق أو تناست، فذلك لأنّ طريق الحق ليس معروفاً وقد امتزج بطرق الباطل، بحيث لا يبدو تشخيصه سهلاً، فقال: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ[1] قَاصِدٌ[2]». يتّضح من العبارة أنّ للخير والشرّ معانيَ واسعة، كما تشير العبارة إلى الحسن والقبح العقليين في أنّ الإنسان يدرك بعقله وفكره الخير والشر، وإن عمل به فقد طوى مسافة واسعة من الطريق القويم والجادة المستقيمة. وللوقوف على عظمة القرآن وأهميّة مضمونه، فقد أوردنا مباحث كثيرة في الأجزاء السابقة (الجزء الأول، ذيل الخطبة ١٨، والجزء الرابع، ذيل الخطبة ١١٠) وسنتطرق بإذن‌الله إلى مبحث مفصل بهذا الشأن في شرح الخطبة ١٩٨.

---

١. «جواد» تعني في الأصل، الفرس السريع، ومن مادة (جود)، معروف ثم اطلقت على الإنسان المجد والمستقيم.

٢. «قاصد» من مادة (قصد) بمعنى الإعتدال، وعليه فالقاصد، مَن يسير على الدرب دون إفراط وتفريط.

القسم العاشر

أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاَثَةٌ: فَظُلْمٌ لاَيُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لاَ يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لاَ يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى وَلاَضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلاَ مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح والتفسير

إصلاح النفس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل ختامها إلى ثلاثة مواضيع مهمّة: أحدها، أقسام الظلم الثلاثة، والآخر، موضوع وحدة المسلمين وأهميّتها، والثالث، التهذيب وإصلاح النفس بدلاً من تقصّي عيوب الآخرين، والأبحاث التي ذُكرت في هذه الخطبة بشأن المسائل الأخلاقية والنصائح الواردة بهذا الخصوص تكتمل بهذه المواضيع الثلاثة. فقد قال عليه السلام في الموضوع الأول: «أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ

ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لا يُطْلَبُ».

ثم خاض عليه السلام في شرح كل قسم، فقال: «فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾». طبعاً، بالتوجه إلى صدر الآية وذيلها: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] يتبيّن لنا أنّ الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله، إن مات الإنسان ولم يتب منه، هو الشرك. أمّا سائر الذنوب، كبيرةً كانت أم صغيرةً إن مات الإنسان ولم يتب منها، فربّما يُشمل بالعفو الإلهي، وإن لم يكن ذلك قطعياً وشموله بالعفو خاضع لبعض الشرائط، لأنّ العبارة (من يشاء) لا تعني العفو عن المذنبين دون حساب وكتاب، ذلك لأنّ الله حكيم وإرادته ومشيئته حكيمة، ولا يشمل بالعفو سوى من امتلك مقوماته، بالضبط على غرار العفو عن السجناء والذي ينظر إلى حالة السجين، فإن رأى فيه الإستعداد شمل بالعفو، والمراد من الشرك هنا هو الشرك الجليّ من قبيل عبادة الأوثان وما شابه ذلك، وأمّا الشرك الخفيّ (كالرياء) فهو من قبيل الكبائر الداخلة في ذيل الآية المذكورة.

ثم خاض عليه السلام في بيان القسم الثاني والثالث، فقال: «وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ[2]. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى[3] وَلاَ ضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذلِكَ مَعَهُ». فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الأُولى إلى الصغائر التي ذكر القرآن شرط عفوها بترك الكبائر: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[4]، أو إشارة إلى الكبائر التي لها بعد حق الله ويستطيع الإنسان غسلها بماء التوبة والندم وتداركها بالأعمال الصالحة. أمّا العبارة الثانية التي تبيّن النوع الثالث

---

١. سورة النساء، الآية ٤٨.

٢. «هنات» جمع (هن) على وزن من، بمعنى الأمر المهم والحادثة الشديدة، كما ورد في لسان العرب، مادة (هن)، وتطلق أحياناً على الموضوعات الصغيرة قليلة الأهميّة، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

٣. «مدى» جمع (مدية) على وزن بنية، السكين.

٤. سورة النساء، الآية ٣١.

للظلم، فهي إشارة إلى حق الناس الذي توعد الإسلام عليه أشد العقوبات، والله لا يغفره ما لم يتنازل صاحب الحق، وعليه، فالتعبير بالقصاص في العبارة إشارة إلى العقاب، لا القصاص الإصطلاحي المعروف، ولذلك قال: ليس ذلك القصاص جرحاً بالسكين والخنجر ولا ضرباً السياط، بل عقاب يهون كل ذلك معه: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[1].

ورد في الرواية، عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ أَوحىٰ إِلىٰ نَبِيٍّ مِنْ أَنبِيـائِهِ فِي مملَكَةِ جَبّارٍ مِنَ الجَبّـابرينَ أَنْ ائتِ هذا الجَبّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنّني لَـمْ أَستَعمِلك عَـلىٰ الدِّمـاءِ اتّخاذِ أموالِ، بَل استَعمَلتُك لِتَكُفَّ عَنّي أصواتَ المَظلُومِينَ، فإنّي لَـمْ أدعْ ظلامَتَهُم وَإِنْ كانُوا كُفّاراً»[2].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «مـا مِن أَحدٍ يَظلِمُ بِمَظلَمَةٍ إِلّا أَخَذَهُ اللهُ بِهـا فِي نَفسِهِ وَمـالِهِ وَمّا الظُّلمَ الّذي بَينَهُ وَبَينَ الله فإذا تـابَ غَفَرَ اللهُ لَهُ»[3].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى موضوع وحدة صفوف المسلمين، فقال: «فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ».

العبارة «فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ...» إشارة إلى أنّ كل طائفة كانت تتخذ لها صيغة تميز برنامجها من الآخرين، سواء في المسائل العقائدية أو العملية، وهذا التلوّن يؤدّي إلى فرقة الصفوف وضياع الطاقات وأحياناً نشوب الحروب الأهلية التي تهدد مصير المجتمع ومنافعه. وكلما كان أفراد المجتمع ـ كما ورد في عبارات الإمام عليه السلام المذكورة ـ يتحولون بالمرونة في القضايا البسيطة، والصبر في الأمور التي لا تنسجم مع رغباتهم، فإنّ الوحدة ستسود هذا المجتمع جانب الهدوء والأمن

---

١. سورة الهمزة، الآيتان ٦ و ٧.
٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤.
٣. المصدر السابق، ح ١٥.

والإستقرار. وبالطبع، فإنّ اختلاف الصفوف والفرق طيلة التاريخ ـ كما ذكر الإمام عليه السلام ـ لم يجلب من خير قط.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بدعوة الجميع إلى إصلاح الذات وترك البحث عن عيوب الآخرين، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ». ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!» إشارة إلى أنّ كل انسان ـ سوى أولياء الله والمعصومين عليهم السلام ـ ينطوي على عيب، فإن إنهمك بعيوب الآخرين غفل عن إصلاح نفسه ولا يسعه بلوغ القرب الإلهي والتهذيب الخلقي والسير إلى الله، أمّا إن اختلى بنفسه وانشغل بعيبه وشعر بالندم لما فرط منه وغسل أدران المعصية بمياه طاعة الله ولاسيّما بقطرة دمع صادقة، أنذاك سيتمكن من إصلاح تلك نفسه والعروج بها إلى ساحة القدس.

تأمّل

العيش بصورة جماعية أم الإنزواء

حثّ الإمام عليه السلام في ختام الخطبة على الإنزواء والإعتزال، الإعتزال الذي يعدّ مقدمة لتهذيب النفس والإبتعاد عن المفاسد الإجتماعية، وذهب أغلب علماء الأخلاق إلى أنّ الإعتزال يعدّ أحد الشرائط اللازمة لتهذيب الأخلاق. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لرأينا مرحلة العزلة التي شهدها الأنبياء العظام والصالحون في حياتهم. فقد قال إبراهيم الخليل عليه السلام حين واجه المجتمع الضال والمتعصب ـ الذي كان يصر على عبادة الأوثان ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾[1].

وقد اعتزل موسى عليه السلام قومه أربعين يوماً لأخذ الألواح واتّجه إلى الطور، حيث

1. سورة مريم، الآية ٤٨.

وردت تفاصيل هذا الموضوع في الآية ١٤٢ من سورة الأعراف.

وكما ورد اعتزال مريمعليها السلام حيث أشارت إليه الآية ١٦ من سورة مريم، وكذلك ما ورد في شأن أصحاب الكهف عندما عجزوا من مقارعة الوثنيين فاعتزلوهم إلى الكهف وأشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[1].

وإننا لنعلم جميعاً باعتزال النبيصلى الله عليه وآله القوم حين كان يختلي في الغار لأيام بل أشهر قبل البعثة ويجدّ ويجتهد في العبادة.

نعم، وردت عدّة روايات بهذا الشأن ومنها، أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «الْعُزْلَةُ عِبَادَةٌ»[2].

وقال أميرالمؤمنين عليعليه السلام: «اَلْعُزْلَةُ أَفْضَلُ شِيَمِ الأَكْيَاسِ»[3].

وقالعليه السلام أيضاً: «فِي اعْتِزَالِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا جِمَاعُ الصَّلَاحِ»[4]. والحال هنالك بعض الروايات أكدت على الجماعة، فقد روي عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ»[5].

وورد مثل هذا المضمون عن أميرالمؤمنين عليعليه السلام قال: «وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ»[6].

فالأحاديث في الموضوعين كثيرة، ويتصور أحياناً تعارضها مع بعضها، والحال، صرحت ذات الروايات بكيفية الجمع بينها. فالذي يفهم من النصوص القرآنية

---

١. سورة الكهف، الآية ١٦.

٢. ميزان الحكمة، ح ١٢٨٨٤.

٣. غرر الحكم، ح ١٤١٤ و ٦٥٠٥.

٤. المصدر السابق.

٥. كنز العمال، ج ١، ص ٢٠٦، ح ١٠٢٨.

٦. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

والروائية أنّ العزلة تتمّ على ضوء بعض الشرائط الإجتماعية الخاصة، والواقع أنّها استثناء إزاء حكم كلّي بالاجتماع، وقد ورد الحثّ على العزلة في الأمور التالية:

١. الإبتعاد عن طلاب الدنيا والتي صرّحت به الأحاديث المذكورة.

٢. الإبتعاد عن المجتمع الفاسد والمنحرف، كما ورد ذلك في قصّة إبراهيم وأصحاب الكهف، وقد سئل الصادق عليه السلام عن سبب اعتزاله، فقال: «فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَغَيَّرَ الإِخْوَانُ فَرَأَيْتُ الإِنْفِرَادَ أَسْكَنُ لِلْفُؤَادِ»[1].

٣. حين تكون العزلة بهدف التفكير والتهذيب وإصلاح النفس، كالذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة وتفرغه للعبادة في غار حراء. ولا شك أنّ الإنسان إذا أفرد بعض الوقت من يومه وليلته للتفكير في نفسه ومجتمعه كان لذلك آثاره الطيبة والنافعة.

٤. الإبتعاد عن الأشرار ـ الذين يشكلون جزءاً من المجتمع ـ فقد. ورد الحثّ على الإعتزال عن هؤلاء، وقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «مَنِ اعْتَزَلَ النَّاسَ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ»[2]. وإلّا ليس هنالك من يسعه التنكر للجماعة التي حظيت باهتمام واسع من أحكام الشريعة السمحاء. والإبتعاد التام عن المجتمع يعني الإبتعاد عن التجارب والعلوم والمعارف وطاقات أفراد المجتمع، أضف إلى ذلك فإنّ العزلة على ضوء ما أثبتته التجربة قد تدفع بالإنسان إلى العجب والفخر وإساءة الظن بالآخرين، إلى جانب بعض الإدّعاءات الباطلة والفاسدة.

---

١. بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٦٠، ح ١١٦.

٢. غرر الحكم، ح ٨١٥١.

١٧٧

ومن كلام له عليه السلام

في معنى الحكمين[١]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في سند الخطبة فقد خاطب الإمامﷺ الخوارج الذين ضغطوا بادىء الأمر على الإمامﷺ في قبول التحكيم فاضطر إلى الموافقة رغم ممانعته للحيلولة دون الإنقسام في صفوف أتباعه ووقوع الحرب الأهلية، ولكن ما إن ظهرت نتيجة التحكيم السلبية أثر خيانة ممثله في تحكيم أبي موسى الأشعري وخداعه من قبل عمرو بن العاص ممثل معاوية حتى اعترضوا على الإمامﷺ في قبوله التحكيم. فرد عليهم الإمامﷺ بذلك الردّ الحاسم في أنّكم أنتم الذين أثرتم هذه الفتنة وقد حذّرتكم فلم ترعووا، والآن حيث ترون سوء اختياركم تعترضون! أضف إلى ذلك أنّ التحكيم كان مشروطاً لا مطلقاً، وشرطه عدم الإنحراف عن القرآن ولكنّهم انحرفوا، وعليه فينبغي الاعتراض عليهم لا عليّ.

---

١. سند الخطبة:

روى هذه الخطبة مع اضافات كثيرة، المؤرخ المعروف، الطبري، في تاريخه في حوادث سنة ٣٧ هجرية عن أبي مخنف، وقد خاطب بها أصحاب النهروان. وقد ذكر الإمام عليﷺ في بداية الخطبة أموراً بشأن الحكمين وأخطائهما، ثم بيّن (باختلاف) ما رواه المرحوم السيد الرضي (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٢٨) ولا يبعد أن تكون هذه الخطبة جزءاً من الخطبة ١٢٨.

القسم الأول

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالاعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا، وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

الشرح والتفسير

بطلان الحكم بانحراف الحكمين

فصّلنا الكلام بشأن الحكمين في الخطب السابقة ولا سيما الخطبة ١٢٥ و١٢٧ وخلاصته، أنّه لما أوشك جيش الشام على الهزيمة، لجأ عمروبن العاص إلى خدعة، فأمر برفع المصاحف على أسنّة الرماح وقولوا: بيننا وبينكم القرآن، فما حكم به القرآن رضينا به. أمير المؤمنين عليه السلام حذّرهم من أنّها خدعة وأنّ هؤلاء القوم لا يتبعون القرآن فامضوا في القتال، إلّا أنّ بعض الجهال والمغرضين رفضوا وضغطوا على الإمام عليه السلام في قبول الاحتكام إلى القرآن، لم يستجب لهم الإمام عليه السلام، فأصروا عليه بعد أن اختلفوا، فلم ير الإمام عليه السلام بدّاً من القبول. ثم أصّر هؤلاء القوم على اختيار أبي موسى الأشعري، الإمام عليه السلام الذي كان يعلم بحماقة هذا الرجل وضعف إيمانه، أشار إليهم بابن عباس الرجل العاقل العالم المعروف والذي لا ينخدع بألاعيب عمرو بن العاص، لكنّهم رفضوا وأصروا على اختيار ابي موسى، وهنا

اضطر الإمام عليه السلام ودفعاً للفرقة والانقسام، إلى القبول بعدّة شروط، منها، عدم خروج الحكمين عن الحق والعدل. استغرقت المحادثات بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، شهوراً عديدة حتى قال ابن العاص: ليخلع كلٌّ منّا صاحبه حتى يختار الناس خليفة. فأعلن أبو موسى هذا الجاهل والأحمق ـ عن خلعه للإمام علي عليه السلام من الخلافة، ثم انبرى ابن العاص ليعلن نصبه لمعاوية. فشبّ النزاع بين القوم، وقدم أولئك الذين أصرّوا على وقف القتال وقبول التحكيم واختيار الأشعري على الإمام عليه السلام واعترضوا عليه، لم قبلت التحكيم؟ قال الإمام علي عليه السلام: «فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ[1] عَلَىٰ أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا[2] عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ». فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّ قبول التحكيم وإن حصل بفعل الضغط إلّا أنّه كان مشروطاً لا مطلقاً دون قيود وشروط بحيث يفعلون ما يشاؤون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورغباتهم وينبغي أن يقبله الآخرون. فالشرط كان تبعية القرآن وعدم الإنحراف عن تعاليمه، إلّا أنّ الشيء الوحيد الذي غُيّب في العملية، إنّما كان القرآن، فانطلق الأشعري الأحمق ليتصرف خلاف منطق الحق والعدل القرآني.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَتَاهَا[3] عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالإِعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا». ثمّ أكد الإمام عليه السلام على شروط التحكيم، فقال: «وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فهل في القرآن الكريم آية تصرح بضرورة خلع شخص كعلي عليه السلام الذي بنى صرح الإسلام بجهاده وتربى في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، وكان مظهر الحق

---

١. «ملأ» تعني لغوياً، ما يملأ العين ويثير إعجاب الناظر، ومن هنا تطلق على الجماعة الكثيرة المتفقة في الرأي والعقيدة والتي يملأ تجمعها العين، ومادة هذه الكلمة وكلمة مملوء واحدة.

٢. «يجعجع» من مادة (جعجعة) تطلق في الأصل على بروك البعير، ثم استعملت بمعنى الخضوع والإستسلام.

٣. «تاه» من مادة (تيه) بمعنى الحيرة والضلال.

والعدل من الخلافة، أم هل هناك من آية تصرّح باستخلاف سليل الجاهلية والكفر والظلم والجور الذي لا يخفى مكره وخداعه على أحد، وقد استقطب حوله كل المنافقين والشياطين؟

ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة: «وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ». وهكذا يردّ بحسم على المعترضين: أولاً، إنّ قبول التحكيم كان من قبلكم، ثانياً، إنّ هؤلاء لم يطلق لهم العنان في التحكيم، بل كانوا مأمورين باتّباع القرآن والإنصياع لأحكامه لا الإنصياع لأهوائهم. وماداموا لم يلتزموا بالشروط فلا اعتبار لحكمهم. الغريب في الأمر أنّ الحكمين نفسيهما لم يتفقا في الحكم وسعى كل منهما لخداع الآخر وليضعه أمام حقيقة لا نقاش فيها، بينما يشترط في التحكيم اتفاق الحكمين على الشروط المطروحة في التحكيم؟

تأمّل

تولّي الحكمين عن القرآن

صرّح الإمام في هذه الخطبة بتجاهل الحكمين للقرآن ومخالفة الحق وهما يبصرانه وقدّموا أهواءهما على الحقيقة وكان ذلك واضحاً. ولو أنّهما فكّرا قليلاً في مختلف الآيات القرآنية الواردة بحق علي عليه السلام أو تلك التي تبيّن أصلاً كلياً، والذي يمثل الإمام علي عليه السلام نموذجه البارز طبق روايات رسول الله صلى الله عليه وآله لما ترددا لحظة في ترجيحه على شخصٍ كمعاوية بن أبي سفيان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد صرّح القرآن قائلاً: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] وهل كان غير الإمام علي عليه السلام من تصدق بخاتمه حين ركوعه ونزلت هذه الآية بحقّه؟ وقد روى هذا، عشرة من كبار الصحابة مثل ابن عباس

---

١. سورة المائدة، الآية ٥٥.

وعمّار بن ياسر وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبوذر الغفاري وأنس بن مالك وعبد الله بن سلام ومسلمة بن كهيل وعبدالله بن غالب وعقبة بن حكيم وعبدالله بن أبي، وذكر شرحه في التفاسير العامة.

وهل يساوى شخص بمن نام في فراش النبي ﷺ ليلة المبيت[١] وفداه بنفسه فنزلت بحقه الآية الشريفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢] وهل يتقدم عليه شخص وهو الذي عدّه القرآن الكريم خير البرية بعد رسول الله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[٣].لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيّ خَيرُ البَرِيَّةِ»[٤].

وهل ينبغي الإستغراق لشهور، لكي تعلم الأمّة الإسلامية أيّها أفضل عليٌّ أم معاوية؟ حقّاً إنّها مقارنة عجيبة وجفاء كبير لأميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام في أن يُقرَن بمعاوية ويعلم فضله، أين هذا من ذاك وأين الثرى من الثريّا؟!

---

١. راجع من ذكر سبب نزول الآية في علي عليه السلام ومنهم، الطبري وابن هشام والحلبي واليعقوبي وأحمد بن حنبل وابن الجوزي وابن الصبّاغ المالكي (الغدير، ج ٢، ص ٤٨-٤٩).

٢. سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

٣. سورة البينة، الآية ٧.

٤. راجع شواهد التنزيل والصواعق المحرقة والدر المنثور ونور الأبصار وتفسير الطبري وكتاب آيات الولاية لسماحة المؤلف.

١٧٨

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي الشَّهَادَةِ وَالتَّقْوىٰ

وَقِيلَ إِنَّهُ خَطَبَهَا بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ خِلافَتِهِ[1]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام علي عليه السلام بادىء الخطبة إلى صفات الله، ومنها، علمه المطلق سبحانه بجميع الأشياء حتى أصغرها حجماً ـ كعدد قطرات المطر وذرّات التراب ـ ليعلم الناس أنّ أعمالهم محفوظة عند الله ولا يخفي عليه شيء من أسرارهم.

ثم شهد في القسم الثاني، لله تعالى بالوحدانية ولرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوّة، وقرن كل بصفاته ليكشف عن عمق تلك الشهادة.

أمّا القسم الثالث، فقد تحدّث فيه عن خداع الدنيا ووعودها الكاذبة التي تمني بها من تعلّق بزخرفها.

وأخيراً حذّر الجميع من أنّ الذنوب سبب زوال النعم، وأنّ أيّاً من الأمم لم تعش

---

١. سند الخطبة:

روى الشيخ صدوق، إلى جانب كتابه الخصال، جانباً من هذه الخطبة، وشرح ابن أثير في كتابه (النهاية) مفرداتها الصعبة، كما روى بعضها الزمخشري، في (ربيع الأبرار) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٣٥).

البؤس والشقاء إلّا لارتكابها الذنوب والمعاصي، ومن هنا فقد دعى الجميع لإعادة النظر في أعمالهم وتصرفاتهم فيهبّوا لإصلاحها بغية السعادة والفلاح.

80C3

القسم الأول

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ ٱلْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ ٱلذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ ٱلْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ ٱلْأَحْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللّٰهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ٱلْمُجْتَبَىٰ مِنْ خَلَائِقِهِ، وَٱلْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَٱلْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَٱلْمُصْطَفَىٰ لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَٱلْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَىٰ، وَٱلْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَىٰ.

الشرح والتفسير

عظمة الله وكرامة نبيّه ﷺ

كما أشرنا سابقاً استهل الإمام عليه السلام خطبته خمس صفات من صفات الله الجمالية والجلالية بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال: «لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ[1] مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ». هذه الصفات تنبع من ذاته القدسية المطلقة. فالفرد المحدود العلم والقدرة إن خاض في شيء واستعان بعلمه وقدرته، فمن الطبيعي إلّا يسعه التعامل مع عمل آخر. أمّا الذات المقدّسة فهي تدبر عالم الوجود برمته في لحظة واحدة، يسمع سبحانه استغاثة العباد ويعلم بحاجاتهم، وحيث كانت ذاته غنية

---

1. «يحوي» من مادة (حواية) على وزن شفاعة، بمعنى الإحاطة بالشيء.

عن الحدود وجامعة للكمالات كافة فليس من سبيل لتغيير تلك الذات. كما أنّ المكان من لوازم محدود الوجود. فتلك الذات المطلقة عن الحدود حاضرة في كل مكان، وفي نفس الوقت هي ليست بحاجة إلى مكان. أضف إلى ذلك فإنّ صفات الله خارجة عن نطاق وصفنا. فنحن محدودون، والذات وصفاتها ليست محدودة، وليست لنا من قدرة للحديث عن كمالات الله وإن طال بنا الحديث فإننا نعود من حيث ابتدأنا، شئنا أم أبينا. نعم، له وحده وصف ذاته وكمالاته كما ورد في الحديث: «لا أَبْلُغُ مَدْحَكَ وَالثَّناءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَما اثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»[1].

ثم خاض في الصفة الخامسة وهي علمه المطلق حيث ركّز على سبعة مواضيع خفية تماماً عن الآخرين، فقال: «وَلَا يَعْزُبُ[2] عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي[3] الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ[4] النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا[5]، وَلَا مَقِيلُ[6] الذَّرِّ[7] فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ[8] الْأَحْدَاقِ».

فالعبارة «عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ» تشير إلى قطرات المطر وقطرات ماء البحار والأنهار والآبار والينابيع التي لا يعلمها إلّا الله، كما يعلم عدد نجوم السماء التي يقول العلماء اليوم أنّ مجرتنا فقط تحتوي على ٢٠٠ مليار نجمة، لكن ما عدد النجوم في سائر المجرات التي لا تعد ولا تحصى؟ لا يعلم ذلك إلّا الله. والأدهى من ذلك، ذرات الغبار التي ترتفع في كل آن في أمواج الرياح في كرتنا الأرضية وتنتقل من موضع إلى آخر ولا يعلم بها إلّا الله. ذهب البعض إلى أنّ المراد من دبيب النمل، الأصوات

---

١. أصول الكافي، ج ٣، ص ٣٢٤، ح ١٢، مناجاة النبي عند سجوده منتصف الليل.

٢. «يعزب» من مادة (عزوب) على وزن غروب، بمعنى الإبتعاد والإختفاء، ومن هنا يقال، الأعزب.

٣. «سوافي» جمع سافية، بمعنى، الريح الشديدة.

٤. «دبيب» المشي البطيء.

٥. «صفا» جمع صفاة، على وزن وفا، بمعنى، الحجر الأملس الضخم.

٦. «مقيل» من مادة (قيلولة) النوم قبل الزوال، ومقيل اسم مكان بمعنى، موقع الراحة والنوم منتصف النهار.

٧. «ذر» جمع ذرة، وهي صغار النمل.

٨. «طرف» بمعنى جفن العين، وترد بمعنى النظر وتحريك الأجفان.

التي تصدر عن وقع أقدام النمل على الحجر، والذي يصعب إدراكها بأيّة وسيلة متطورة، إلّا أنّ الله عالم بكل ذلك، كما يعلم بمخادعها، والمراد، جميع النمل في نقاط العالم كافة.

وتشير العبارة «يَعْلَمُ مَسَاقِطَ ٱلْأَوْرَاقِ» إلى موضع سقوطها في أنحاء الكرة الأرضية كافة حيث يسقط في كل لحظة ما لا يعدّ ولا يحصى من الأوراق في البساتين والحدائق وأعالي الجبال وأعماق الوديان ولا يعلم ذلك إلّا الله، كما يعلم عدد أطباق أجفان عيون الناس والحيوانات وكل ذي عينين. أجل، لا يخفى عليه شيء من الكليات ولا الجزئيات في عالم الوجود بأسره، وكفى الإنسان تربية وأدباً، إيمانه بهذا الإله، كفاه أن يعلم أنّ العالم حاضر بأسره لدى الله وهو عليم بظاهرنا وباطننا، ومن هنا ورد في القرآن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. ثم شهد لله بالوحدانية ، فليس سوى الله تعالى أهلٌ للعبودية: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰـهَ إِلَّا ٱللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ[2] بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ». وهكذا ينفي الإمام عليه السلام كلّ أنواع الشرك والشك والكفر بالآيات التكوينية والتشريعية، بعبارة أخرى ينفي كل شبيه وشريك لله ثم يخوض في الشك في ذاته المقدّسة وأفعاله التشريعية والتكوينية ويقول: ليس من سبيل للشك في دينه ولا في خالقيته وربوبيته في عالم التكوين، ثم قال: «شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ[3] دِخْلَتُهُ[4] وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ».

إشارة إلى أنّ هذه الشهادة لذات الحق وصفاته شهادة من اتصف بهذه الصفات الأربع: صدق نيّته وطهارة قلبه من الشرك والرياء وبعد يقينه عن الريبة والشك

---

١. سورة لقمان، الآية ٢٧.

٢. «معدول» من مادة (عدل) على وزن علم، بمعنى التشبيه والمثيل.

٣. «صفت» من مادة (صفا) بمعنى طهرت.

٤. «دخلة» بمعنى، باطن الشيء.

وتكشف أعماله عن عمق إيمانه بالله، وهي ليست كشهادة المنافق أو الطامع بالمال والجاه، ولا ذلك الذي خلط إيمانه بالشك، ولا ذلك الذي يتحدث عن الإيمان ولا يبادر العمل الصالح.

ثم أردف شهادته لله بالوحدانية بالشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة ونعته بست صفات، فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ٱلْمُجْتَبَىٰ مِنْ خَلَائِقِهِ، وَٱلْمُعْتَامُ[١] لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَٱلْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ[٢] كَرَامَاتِهِ وَٱلْمُصْطَفَىٰ لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَٱلْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ ٱلْهُدَىٰ، وَٱلْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ[٣] ٱلْعَمَىٰ».

الصفة الأولى، التي ورد الحديث فيها عن صفته التي سببت اختياره للرسالة. والصفة الثانية، وظيفته في شرح حقائق الدين والعقائد الصحيحة. وتطرق في الصفة الثالثة. إلى مكارم خلقه، والصفة الرابعة. في وظيفته المهمّة في بيان الأحكام، والصفة الخامسة، هدايته ﷺ عن طريق قوله وفعله وإمضائه العملي. وتحدث في الصفة السادسة، عن جهوده في محاربة الجهل والذي عبّر عنه بالعمى. وتشير هذه الصفات إلى أني لم أشهد اعتباطاً بنبوته وأنقاد لإمامته.

تأملان

١. مشكلة الصفات

كما ورد في كلمات الإمام عليه السلام العميقة المعنى فإنّ الذات القدسية تتجاوز الحدود والزمان والمكان ولها إحاطة علمية تامة بكل شيء في عالم الوجود. نعم، فالعالم بأسره حاضر عند الله وله حضور في كل مكان دون أن يضمه مكان. وإنّ صفاته الجمالية والجلالية وإن منحتنا معرفة عميقة، إلّا أنّه لابدّ من الإعتراف بأنّه خارج

---

١. «معتام» من مادة (عيم) على وزن غيب، تعني في الأصل الشغف باللبن، والمعتام هنا، الشخص الشديد الحب لإتيان الوظيفة المكلف بها.

٢. «عقائل» جمع عقيلة، بمعنى اقتطاف كل شيء»، ومن هنا يقال للجوهرة الثمينة عقيلة البحر.

٣. «غربيب» تعني الشيء الأسود المعتم، وتعني هنا، ظلمة الجهل.

عن وصفنا. أحياناً تبدو تعبيراتنا بشأن الذات لغز ونوع من التناقض، إلّا أنّ حلّ هذا اللغز يمكن في الإلتفات إلى نقطة وهي أنّ وجوده مطلق ولا متناهٍ من جميع الجهات، فليس له من بداية ولا نهاية ولا حد محدود. وإن تصور هذا الموجود للانسان المحدود من جميع الجهات يبدو مستصعباً، ولكن على كل حال لا تحل قضية الصفات الإلهية دون الإلتفات إلى ذلك الأمر. فإن قلنا إنّه عالم بكل شيء حتى بذرات الغبار التي تتعلق بالهواء، فذلك لأنّه حاضر في كل مكان، وقولنا إنّه حاضر في كل مكان بمعنى أنّ وجوده غني عن الحدود ومحيط بكل شيء. وإن قلنا ليس له مكن زمان أو مكان، ذلك لأنّ الزمان يأتي من الحركة والمكان بواسطة محدودية الإنسان، وليس للوجود المطلق من حركة نحو النقص أو الكمال، وحيث هو غني عن كل شيء فلا حاجة به إلى مكان. وخلاصة الكلام إذا أردنا معرفة الله فإنّ علينا أن ننفي جميع صفات المخلوقات التي تنبع من الحاجة والمحدودية عن تلك الذات المقدّسة.

٢. أهداف بعثة النبي الأكرمﷺ

تضمنت آيات القرآن الكريم والروايات وخاصة نهج البلاغة، الكثير من الكلمات بشأن هدف بعث الأنبياء ولا سيما نبي الإسلامﷺ، ومن ذلك، العبارات العميقة التي أوردها الإمامؑ في هذه الخطبة. فقد بين الإمامؑ أنّ أحد أهداف رسالة النبيﷺ شرح الحقائق والتي يمكن أن يراد منها كل حقيقة أو حقائق مرتبطة بالمبدأ والمعاد وأصول العقائد، إلى جانب بيان القيم الخلقية كما روي عن رسول اللهﷺ أنّه قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[١].

والهدف الآخر، بيان الرسالات السماوية في الأحكام الدينية وكشف علامات الهداية وأخيراً طرح حجب الجهل والعمى عن قلوب الناس وأبصارها. فهو معلم عظيم ومربٍّ ربّاني ومرشد خبير.

---

١. كنز العمال، ج ٣، ص ١٦، ح ٥٢١٧٥.

القسم الثاني

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ ٱلْمُؤَمِّلَ لَهَا وَ ٱلْـمُخْلِدَ إِلَـيْهَا، وَلاَ تَـنْفَسُ بِـمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَـغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَٱيْمُ اللهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ ﴿اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾. وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَـى رَبِّـهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لَأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَـلَيْكُمْ أَمْـرُكُـمْ إِنَّكُـمْ لَسُعَدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ ٱلْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشرح والتفسير

صدق النيّة مع الله

خاطب الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الناس كافة وذكرهم بأربع نقاط مهمّة، لها بالغ الأثر في حياة الناس، فقال في النقطة الأُولى: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ ٱلْمُؤَمِّلَ لَهَا وَٱلْمُخْلِدَ[1] إِلَيْهَا، وَلاَ تَنْفَسُ[2] بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَـغْلِبُ مَـنْ غَـلَبَ عَلَيْهَا». لما كان حبّ الدنيا كما ورد في الحديث رأس كل خطيئة فقد شرع الإمام عليه السلام بحبّ الدنيا. الجدير بالذكر أنّه لم يرد ذم لمن حصل على الدنيا بل على

---

١. «مخلد» من مادة (خلد وخلود) الشخص الذي يسكن مكاناً بصورة دائمية وتشير في العبارة إلى من التصق بالدنيا.

٢. «تنفس» من مادة (نفاسة) بمعنى الثمين، ووردت هنا، بمعنى الأهميّة.

أولئك الذين يتهافتون على الدنيا ويتعلقون بزخارفها. وقد تغر زخارف الدنيا أولئك المتكالبين عليها حتى يظنون بأنّ كل شيء خالد فيها، إلّا أنّهم يرون فجاة زوال كل شيء بفعل حادثة أليمة. على سبيل المثال، فإنّ زلزلة لا تستغرق بضع ثوان تضرب المدينة فتقضي على ما فيها ومن فيها، نعم ربّما يفيق لمدّة وسرعان ما يعود إلى سبات الغفلة.

ثم أشار إلى النقطة الثانية فقال كقاعدة كلية: «وَايْمُ اللهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ[1] نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا[2]، لِأَنَّ ﴿اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾». والواقع أنّ هذه العبارة اقتباس من الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3] والآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]. طبعاً، نعم الله تقسّم على العباد حسب استعدادهم وأهليتهم، ومن هنا يستحقها الصالحون الطاهرون لا الآثمون الملوثون.

سؤال : ورد في بعض الروايات أنّ الله يبتلي أولياءه بأنواع البلاء كما جاء في الخبر «البلاء للولاء»[5] لرفع مقام أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات أنّ البلاء قد يكون امتحاناً للمؤمن وأخرى تحذيراً وإيقاظاً للعباد. أفلا يتنافى هذا وما ورد في عبارة الإمام؟

الجواب: ما ورد في كلام الإمام عليه السلام قانون كلّي ونعلم أنّ لكل قاعدة شواذ، فموارد الامتحان والإيقاظ وأمثال ذلك استثناءات من تلك القاعدة الكلية والقانون

---

١. «غض» النظر والجديد.
٢. «اجترحوا» من مادة (جرح) وما يصيب البدن من ضرر ويبقى أثره، واجتراح، بمعنى، الإتيان بالذنب، وكأنّ الإنسان يجرح نفسه، ثم توسع هذا المعنى ليطلق على كل اكتساب وارتكاب.
٣. سورة الرعد، الآية ١١.
٤. سورة الاعراف، الآية ٩٦.
٥. وردت في كلمات العلماء وهي مقتبسة من الأحاديث الإسلامية، مثل قول الإمام الصادق عليه السلام «إنّ أشدّ النّاس بلاءً الأنبياء ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الأمثل فالأمثل». (أصول الكافي، ج٢، ص٢٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن).

العام، وبعبارة أخرى، عبارة الإمام عليه السلام تحمل على الغالب وهذا شبيه ما ورد في القرآن: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[1] قطعاً، ليس هناك من منافاة بين هذه الآية، والآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ...﴾[2] التي تتحدث عن مختلف الإمتحانات الإلهية بواسطة البلاء، وكذلك الآية: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] ولعل الإنسان إذا تأمل قليلاً لأمكنه التعرف على الموارد التي يكون البلاء فيها جانب العقاب والجزاء أو الامتحان والتحميص والتحذير. فإن بدرت منه معصية أو قارف المجتمع أنواع الفساد وأصابته بعض الحوادث المريرة فإنّ ذلك عقاباً؛ أمّا الحوادث المريرة التي تطيل الصالحين فهي تمحيص يهدف إلى رفع مقامهم.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فقال: «وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ[4] مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ[5]، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ». عادة ما يعمد هذا الطبيب الرباني الماهر إلى وصف العلاج بعد ذكر المرض، ويعلم الناس سبيل دفع المكروه والبلاء، ويرى أنّ الدعاء إن كان صادقاً وخارجاً من أعماق القلب بمعنى تحدث حالة من التغيير لدى الإنسان فإنّه يدفع البلاء كما ورد ذلك في العديد من الروايات، ومنها ما روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال: «اَلدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْبَلاءَ النَّازِلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ»[6].

ثم أشار إلى النقطة الرابعة التي بينها سابقاً على نحو العموم فقال: «وَإِنِّي

١. سورة الشورى، الآية ٣٠.
٢. سورة البقرة، الآية ١٥٥.
٣. سورة الروم، الآية ٤١.
٤. «وله» بمعنى الحيرة، من شدّة الحزن حتى يفقد الإنسان أحياناً عقله ووعيه، ومن هنا اطلقت على العشق الذي يسلب عن الإنسان سكونه ووعيته.
٥. شارد الشخص الذي يفر من الطريق أو ينحرف.
٦. اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩، باب الدعاء يرد البلاء، ح ٥.

لَأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ[1]. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ!». أمّا مراد الإمام عليه السلام من هذه الإشارة المطلقة إلى بعض انحرافاتهم، فقد قيل إنّه أشار قضية عثمان وحكومته التي فوّضت إليه من جانب شورى عمر الظالمة بعد أن سلبتها من أولى الناس بها (عليّ) ـ والذي أثبتت الحوادث اللاحقة هذه الحقيقة ـ وقد سلمتم لتلك الحكومة، وورود الخطبة بعد مقتل عثمان في أوائل خلافة الإمام عليه السلام شاهد على هذا المعنى. لكن الاحتمال الأكبر أنه إشارة إلى جميع الخلفاء والأحداث المريرة التي رافقت الخلافة. ومراده من العبارة «وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ»، أي لو أردت أن أكشف النقاب عن هذه الأحداث الأليمة لاستطعت، لكنني أغض النظر عنها وأسأل الله أن لا يؤاخذكم ويعفو عن تقصيركم[2].

ﮪﮫ

---

١. «فترة» تعني في الأصل، التوقف والضعف والعجز، ومن هنا هي تطلق على الفاصلة بين برنامجين لإيقاف الأعمال، وحيث تمتزج بالغفلة استعملت لهذا المعنى.

٢. ذهب كأغلب شرّاح نهج البلاغة ومترجميه، إلى ترجمة هذه العبارة بمعنى: «إذا أردت أن أقول شيئاً قلت، عفا الله عمّا سلف»، ولكن هذا المعنى بعيد، لأنّه ما ورد في كلام الشيخ المفيد في كتاب «الجمل» وفي كتاب «مناقب» حسب ما نقله كتاب «تمام نهج البلاغة» بوجود (لكن) قبل العبارة «عفا الله عمّا سلف»، فعليه أنّ جملة «عفا الله عمّا سلف» دعاء لأولئك، وهذا ما تقتضيه العلاقة بين هذه الجملة والجمل التي سبقتها؛ واختار عدّة من الشرّاح هذا المعنى، راجع الكتب، معارج نهج البلاغة، تأليف البيهقي، بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج ٢٩، ص ٥٩٩، وشرح حدائق الحقائق، البيهقي، ج ٢، ص ٩٤، وشرح المرحوم الخوئي، ج ١٦، ص ٣٥٩.

١٧٩

ومن كلام له عليه السلام

وَقَدْ سَأَلَهُ ذِعْلِبٌ اليَمَانِيُّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ يا أميرَالمُؤمِنينَ؟ فَقَالَ عليه السلام: أفَأَعْبُدُ مَا لَا أرىٰ؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ:[1]

نظرة إلى الخطبة

يدور محور الكلام حول صفات الله ويؤكد هذا المعنى: إن تعذرت رؤية الله بالعين فإنّه يمكن مشاهدته من خلال قبسات صفاته بالبصيرة.

---

١. سند الخطبة:

وردت العبارة المذكورة (باختلاف فيها) في عدّة كتب معتبرة من كتب علماء الشيعة بطرق متعددة قبل تأليف نهج البلاغة، ومنها المرحوم الكليني في الجزء الأول من أصول الكافي حيث نقلها في بابين، والمرحوم الصدوق في كتاب التوحيد والمرحوم الشيخ المفيد في الإرشاد. ومن علماء العامة ابن الجوزي الحنفي في كتابه (التذكرة) عن ابن عباس (مصادر نهج البلاغة ج ٢، ص ٤٣٧).

القسم الأول

فقال: لَا تُدْرِكُهُ ٱلْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ ٱلْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ ٱلْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ ٱلْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ. مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ. لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ. تَعْنُو ٱلْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ ٱلْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

الشرح والتفسير

هل رأيت الله؟

يستفاد من مختلف الروايات في سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال مراراً: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»، فقد أعرب عن استعداده للإجابة عن كل سؤال يتعلق بدين الناس ودنياهم، وقد كرّر هذه العبارة حتى حين التقى الناس وهو على فراش الموت بعد ضربة ابن ملجم. وحين وُلّي عليه السلام الخلافة خطب فقال: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي» وأكّد بهذا المعنى بأنّه أعلم بآيات القرآن فيم نزلت وأين نزلت وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ومحكمها. فقام ذعلب اليماني وكان رجلاً شجاعاً وبليغاً فسأله السؤال المذكور وأجابه الأمير عليه السلام[1] فقال: «أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَىٰ؟» بمعنى أنّ العبادة فرع من المعرفة وللمعرفة درجات أرفعها درجة الشهود، وقد التفت الإمام في كلامه عليه السلام إلى مرحلته العبادية الرفيعة التي ترافق مشاهدة الذات المقدّسة، ذعلب غرق في التفكير في أنّ مراد الإمام عليه السلام هنا أيّة رؤية؟ هل الرؤية الحسية التي

---

1. توحيد الصدوق، ص ٣٠٥ الباب ٤٣، ح ١ و ٢.

يقول بها أم المجسمة؟ أم الرؤية الروحية والمعنوية التي تفوق الرؤية العقلية؟ لذلك أردف سؤاله بسؤال آخر فقال: «وَكَيفَ تَراهُ؟!»

هل هذا سؤال واستفهام لكشف الحقيقة أم نوع من الإنكار والجدال؟ الجواب عن هذا السؤال يتوقف على تقييمنا لذعلب، فإن كان من أصحاب الإمام عليه السلام فلا شك في أنّ سؤاله كان لمعرفة الحقيقة، وإن كان أنساناً طائشاً، كما يستفاد من بعض روايات المارة ـ فإنّ سؤاله يستند إلى الانكار والجدال. على كل حال أجابه الإمام عليه السلام بما يميط اللثام عن بعض الحقائق وقد أثر جوابه بالجميع بما فيهم ذعلب، حيث نفهم على قدر مطالعتنا أنّه أُصيب بالذهول عندما فرغ الإمام من الكلام.

فقد قال عليه السلام: «لَا تُدْرِكُهُ ٱلْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ ٱلْعِيَانِ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ ٱلْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ ٱلْإِيمَانِ». المراد من حقائق الايمان، الأصول العقائدية والمعارف الحقة. ولتوضيح هذا الكلام ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ المشاهدة على ثلاثة أنواع:

١. المشاهدة الحسية التي تتم بالعين، وأحياناً تزود هذه العين ببعض الأجهزة كالمجهر والتلسكوب.

٢. المشاهدة العقلية التي يبلغها عن طريق الإستدلال به فيرى الحقائق ببصيرة كالشمس من قبيل ـ ما ذكره المرحوم مغنية في شرح نهج البلاغة ـ مشاهدة نيوتن لقانون الجاذبية الذي يستحيل رؤيته بالعين أثر مشاهدته لسقوط التفاحة من الشجرة على سطح الأرض.

٣. الشهود الباطني وهو نوع من الإدراك الباطني لكن ليس الاستدلالي. فالإنسان يرى ببصيرته الواقع الموجود ويؤمن به دون الحاجة إلى الاستدلال ويبدو فهم هذا الإدراك والرؤية صعباً ما لم يبلغه الإنسان، ولهذا الموضوع نماذج كثيرة في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، فقد ورد في آية بشأن إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]. وبشأن يعقوب حين انطلق إخوة يوسف

١. سورة الأنعام، الآية ٧٥.

بقميصه، فقال: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ»[١] والنبي الأكرمﷺ حين حفر الخندق قبيل شروع معركة الأحزاب لما ضرب الحجر ثلاث مرات وزف البشارة لصحبه بفتح قصور كسرى وقيصر وقصور صنعاء في اليمن[٢]. وقد أخبر علي مراراً في نهج البلاغة عن المستقبل، وكان يقول في بعض المواقع، كأنّي أرى جماعة ستفعل كذا وكذا، بل نال بعض المؤمنين المخلصين هذا الكشف والشهود. ومعروفة هي قصّة ذلك الفتى الذي قال للنبي الأكرمﷺ: «كَأَنِّي أَنظُرُ إِلىٰ أَهْلَ الجَنَّةِ، يَتَنَعَّمُونَ فِيى الجَنَّةِ... كَأَنِّي أَنظُرُ إِلىٰ أَهْلَ النَّارِ وَهُم فِيهَا مُعَذَّبُونَ». فقال رسول اللهﷺ لأصحابه: «هٰذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالإِيمانِ»[٣]. وسائر الموارد التي تستحق كتاباً مستقلاً في الكشف والشهود، والتي تدل جميعاً على وجود شهود آخر يفوق الشهود الحسي والعقلي[٤].

ثم بيّن الإمامﷺ احدى عشرة صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، وقد قرن تسعة منها بعبارات تنفي عنه صفات المخلوقات لتوضيح هذا المطلب في كيفية إدراك القلوب لله بحقائق الايمان فقال في الصفة الأولىٰ والثانية: «قَرِيبٌ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ[٥]، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ». ذكرنا مراراً أنّ مشكلتنا في فهم صفات الله هي الإنطلاق من صفات المخلوقات والممكنات التي تعيقنا عن إدراك صفات الله ما لم نبتعد عنها، مثلاً في هذين الوصفين حين نقول: الله قريب، يتراءى لنا شيء مثل قرب جسمين من بعضهما يقعان في مكانين حسيين، وعندما نقول: الله بعيد يتداعى لنا جسمان بعيدان عن بعضهما وانفصالهما، والحال، بعدهما وقربهما ليس كذلك، فهو قريب من كل شيء، بمعنى إحاطته التامة بجميع الموجودات، وبعيد بمعنى تنزه

---

١. سورة يوسف، الآية ٩٤.

٢. الكامل لابن أثير، ج ٢، ص ١٧٩.

٣. اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٣ (باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٢).

٤. للوقوف على المزيد وفهم معنى الشهود وأسبابه وموانعه (راجع نفحات القرآن، ج ١، ص ١٩٣).

٥. «ملابس» اسم فاعل من مادة (ملابسة) بمعنى الإختلاط والإلتصاق بشيء.

كبريائه عن أدناس المكان وصفات المخلوقات الناقصة.

وقال في الصفة الثالثة والرابعة: «مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ[١]، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ[٢]». وإن طرح موضوع الكلام والإرادة يتبادر إلى أذهاننا إنّ الشخص يجيد لغة معينة ويفكر في مطلب ثم يصوغه في إطار كلمات وعبارات، ثم يستعين بلسانه وشفتيه ليوصل صوته المنطلق من حنجرته إلى الآخرين، وهكذا الأمر بالنسبة للإرادة في أن يفكر المريد مسبقاً ويتأمل صلاح الشيء من فساده ثم يعزم على القيام بالعمل وأمر الجوارح والأعضاء بالتنفيذ. قطعاً إنّ أياً من هذه الأمور لا تصدق على الله، فهو ليس بجسم وليس له أعضاء وجوارح وليس بحاجة إلى التفكير. فكلامه ليس سوى خلق الموجات الصوتية في الفضاء كتلك الأمواج التي سمعها النبي موسى عليه السلام من الشجرة. وإرادته ليست سوى علمه بالمصالح والمفاسد. وهذه الحقيقة صادقة تماماً على الصفات السبع الأخرى. ومن هنا اعتبر الإمام عليه السلام أنّ أفضل طريق لمعرفة الله، نفي صفات المخلوقات عنه، فقال: «وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ»[٣].

وقال في الصفة الخامسة: «صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ» نعم، إنّ أمره إذا أراد شيئاً إنّما يقول له كن فيكون، وله أن يخلق عالماً واسعاً ومترامياً كعالمنا فيقول له كن فيكون ولا يحتاج إلى وسائل وأدوات وأجزاء كالإنسان.

وقال في الصفة السادسة والسابعة: «لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ»، لشرّاح نهج البلاغة وعلماء الكلام أحاديث مسهبة في باب صفات الله ومنها صفة اللطيف، فذكروا لها عدّة معانٍ، فتارة فسّروه بالخفي، وأخرى بخالق الأشياء الظريفة وأخيراً ذو اللطف والحب، ولله كل هذه الصفات. إلّا أنّ المعنى الأول أنسب، أي أنّ الذات المقدّسة ظريفة الخفاء، لكن لا بمعنى الخفاء عن العباد،

---

١. «روية» من مادة (تروية) تعني، أحياناً، الشبع من الماء، كما وردت بمعنى التفكير.

٢. «همة» من مادة (همّ) بمعنى العزم على الإتيان بشيء، كما تعني، الهم الذي يشغل فكر الإنسان، والنوع الأول هو المراد.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١.

ذلك لأنّ آثاره ملأت أركان العالم وتجلّت فيه جميع الموجودات، والعبارة «لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ» إشارة إلى عظمته، لكن ليست كعظمة الطواغيت والجبابرة الممزوجة بالظلم والجور والجفاء، كما قال القرآن الكريم في أواخر سورة الحشر: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾.

وقال في الصفة الثامنة والتاسعة: «بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ». فإن قلنا: فلان بصير، تبادر إلى الذهن بسرعة العين التي يبصر بها، وحين يقال: فلان رحيم تتداعى شفقة قلبه ورقته، والحال، هذه الصفات الممكنات والموجودات الجسمانية والله أسمىٰ من ذلك. فبصره سبحانه بمضي علمه بالموجودات كافة التي ترى بالعين ورحيميته بمضي لطفه وعطائه لعباده، وإن مثل هذه الصفات مركبة من النقص والكمال، ولله كمالها وتزاهته من نقصها.

وقال في الصفتين الأخيرتين: «تَعْنُو[1] الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ[2] الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ». إشارة إلى أنّه رغم لطفه ورحمته، إلّا أنّ ذلك لا يعني جرأة العباد على الذات من خلال التشبث بتلك الصفات، بل لابدّ من خشية عقابه إلى جانب الأمل بلطفه ورحمته. ومن هنا قال القرآن بشأن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[3]. ونعلم جميعاً بأنّ تعادل الخوف والرجاء من شأنه الأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال.

***

١. «تعنو» من مادة (عنو) على وزن غلو، بمعنى، تذل وتخضع.

٢. «تجب» من مادة (وجوب) تعني أحياناً، الثبوت، وأخرىٰ السقوط والوقوع ولازمته الثبوت والاستقرار، وإن وردت بشأن القلب عنت الاضطراب.

٣. سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

١٨٠

ومن خطبة له عليه السلام

فِي ذَمِّ الْعَاصِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ[1]

نظرة إلى الخطبة وسبب الورود

يستفاد من كتاب (الغارات) للثقفي، أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أتاه رسولا محمد بن أبي بكر لنجدته قبل قتاله مع عمرو بن العاص في مصر، فدعى الإمام عليه السلام الناس إلى المسجد وأخبرهم بالأمر، إلّا أنّه لم يستعد للجهاد سوى نفر قليل. ثم بعث، ليلاً، إلى أشراف الكوفة ودعاهم إلى دار الإمارة، وكان حزيناً، لأنّه كان يعلم بعمق الخسارة في ظهور ابن العاص وأعوان معاوية على مصر. فعرض بالذم في هذه الخطبة لصحبه العاصين وناشدهم دفع فتنة عمرو بن العاص عن مصر. ويتضح ممّا قيل أنّ مضمون الخطبة ذم لترك الجهاد وحثّ على جهاد العدو إلى جانب العواقب الوخيمة للوهن والضعف.

---

١. سند الخطبة:

روى هذه الخطبة قبل السيد الرضي، إبراهيم بن هلال الثقفي، في (الغارات) عن حبيب بن عبدالله. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٩ و ٤٤٠).

القسم الأول

أَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ مَا قَضَىٰ مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَىٰ ابْتِلَائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَىٰ مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَىٰ حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي ـ وَلَيَأْتِيَنِّي ـ لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

الشرح والتفسير

الجهاد أو الموت والعار

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة كسائر أغلب الخطب بحمد الله والثناء عليه، وقال: «أَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ مَا قَضَىٰ مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَىٰ ابْتِلَائِي بِكُمْ». لشرّاح نهج البلاغة عدّة تفاسير في المراد بالقضاء والقدر في هذه العبارات هل له معنى واحد ويشير بأجمعه إلى المقدرات الإلهية، أم له معنيان؟ قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وقال الآخر: القضاء يتعلق بخلق عالم الأمر والمعقول يعني عالم ماوراء الطبيعة، والقدر إشارة إلى عالم الخلق أي عالم الطبيعة. وأحد التفاسير الواضحة للقضاء والقدر ـ والذي تؤيده الآيات والروايات ـ أنّ القضاء سواء في عالم التكوين أو عالم التشريع يشير إلى أمر الله بأصل وجود الشيء، ويشير القدر بحجمه وأجزائه وشرائطه، مثلاً شخص يأمر ببناء مسجد أو مستشفى، فهذا مصداق للقضاء، ثم يبيّن متطلباته، وهذا هو القدر. فأمر الله بالصلاة والصوم في عالم

التشريع، القضاء،وأمره بالنسبة لأجزائه وشروطه، قدر.

النقطة الأخرىٰ في كلام الإمام عليه السلام حمده الله على ابتلائه بأصحابه العاصين. ذلك لأنّ أولياء الله المسلمون لأمره ويرون كل ما ينالهم منه حسناً جميلاً.

ثم خاطب عليه السلام الحاضرين في المجلس من زعماء قبائل الكوفة فقال : «أَيَّتُهَا ٱلْفِرْقَةُ ٱلَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ[1]، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ[2] وَإِنِ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ[3] إِلَىٰ مُشَاقَّةٍ[4] نَكَصْتُمْ[5]». فقد أشار إلى أربع نقاط لضعف الناس تجاهه: المعصية وعدم الإهتمام بالدعوة وتضييع الفرصة والضعف في ميدان القتال، ولا شك أنّ كل واحدة تكفي لأن تكون سبباً للهزيمة فضلاً عن اجتماعها. ثم وبخهم بنوع من الحب، فقال: «لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَٱلْجِهَادِ عَلَىٰ حَقِّكُمْ؟ ٱلْمَوْتَ أَوِ ٱلذُّلَّ لَكُمْ؟»[6].

إشارة إلى أنّ الوضع الذي أنتم عليه ـ إزاء العدو الماكر كمعاوية وجيشه والذي يتسم بالضعف وعدم الإكتراث ـ ليس له من نتيجة سوى الموت أو الذل، وإن بقيتم أحياء فالذلّة لهؤلاء، العزّ في الجهاد ونتيجته النصر أو الشهادة، كما قال الإمام عليه السلام: «ٱلْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَٱلْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»[7].

ثم قال: «فَوَٱللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي ـ وَلَيَأْتِيَنِّي ـ لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ

---

١. «خضتم» من مادة (خوض) على وزن حوض، قال الراغب في المفردات، الورود شيئاً فشيئاً في الماء، والمشي فيه، ثم وردت بالمعنى الكنائي للشروع بالأعمال السيئة أو الأقوال القبيحة.

٢. «خرتم» من مادة (خوار) الصراخ وحيث ينشيء الصراخ من الضعف فهي تعني الضعف أو العجز.

٣. «أجئتم» من مادة (أجاء) وجذرها مجيء، جلب الشخص أو الشيء، وعليه إن اجئتم بمعنى أن جلبوكم.

٤. «مشاقة» بمعنى الصعوبة أو الخصومة والعداة من مادة (شق) على وزن حق.

٥. «نكصتم» من مادة (نكص) على وزن عكس، الرجوع إلى الوراء القهقرى.

٦. اعتبر أغلب شرّاح نهج البلاغة العبارة «الموت أو الذل» لكم نوعان من اللعن والدعاء عليهم، أي متم أوذللتم، وهي ليست كذلك فقد أراد الإمام عليه السلام أن يبيّن وهنهم وضعفهم في الجهاد، أي أنّ نتيجة عملكم إمّا الموت أو الذلة، لاسيّما أنّ العبارة التي وردت قبلها «لا أبا لغيركم» والعبارة اللاحقة «لله أنتم» تفيد أنّه لم يكن في مقام الدعاء عليهم، وقد أذعن الشرّاح بأنّه تلطف من الإمام عليه السلام بتوجيه الدعاء لغيرهم.

٧. نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

قَالٍ[1]، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ». فقد لفت الإمام عليه السلام انتباههم إلى قضية مهمّة وهي أنّ وجودي سند عظيم لكم فعُوا ذلك. واعلموا إن مِتُّ فسوف لن أخسر شيئاً سوى جيش لا إرادة له، بينما ستخسرون أنتم كل شيء، وستفقدون قائداً شجاعاً وآمراً لا يقهر.

---

١. «قال» بمعنى العدو، ومن مادة (قلا)، على وزن نداء بمعنى، شدة البغض والعداء.

القسم الثاني

لِلهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح والتفسير

واصل الإمام﵇ عرضه بالذم لأولئك الضعاف من أصحابه في الامتثال لأوامره: «لِلهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةٌ[1] تَشْحَذُكُمْ[2]!».

إشارة إلى أنّ الوقوف بوجه العدو والدفاع عن الأهداف المقدّسة يتطلب أحد العنصرين: أحدهما الإيمان بالله ويوم الجزاء ووعده للمجاهدين والشهداء أو الدفاع القومي الوطني، وللأسف ليس فيكم أيّ من هذين العنصرين، فدينكم وإيمانكم ضعيفان وليس فيكم من دافع أو هاجس لحب الوطن، ولذلك توانيتم حتى شنّت

---

1. «حمية» بمعنى الغيرة والشخصية والتعصب، كما وردت بمعنى التكبر وأصلها من مادة (حماية)، لأنّ مثل هذه الصفات سبب لحماية الشخص أو الشيء.
2. «تشحذ» من مادة (شحذ) على وزن قبض، بمعنى حدّ، وتستعمل في المسائل المعنوية كالذكاء والفطنة.

عليكم الغارات وداهمكم العدو.

ثم قارن الإمام عليه السلام بينهم وبين أصحاب معاوية فقال: «أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ[1] الطَّغَامَ[2] فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ[3] الْإِسْلَامِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟». فهنا سؤالان جديران بالاهتمام، الأول أنّ معاوية معروف في البذل والعطاء السياسي الهادف، فكيف يقول الإمام عليه السلام إنّ معاوية لا يقدم للأفراد معونة ولا عطاء؟ أجاب بعض شرّاح نهج البلاغة عن هذا السؤال بأنّه كانت لمعاوية مساومات سياسية مع زعماء القبائل وقادة الجيش فكان يغدق عليهم الأموال الطائلة دون الالتفات إلى الناس، أمّا الإمام علي عليه السلام فكان يقسّم أموال بيت المال بالتسوية على الناس بمنتهى العدل والقسط ويقدم التكاليف الحربية لجميع المقاتلين.

والثاني: لم عبّأ معاوية الناس بتلك الطريقة من توزيع الأموال، بينما لم يستعبّأ الناس لأمير المؤمنين عليه السلام رغم تعميمه العطاء والمعونة على أساس العدل؟ ولا تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبة، فإضافة إلى ضعف أهل الكوفة وغدرهم كان هناك وفاء أهل الشام وانصياع الأفراد لزعماء قبائلهم الذين كان يرشيهم معاوية بالأموال، ولكن زعماء القبائل كانوا يشعرون بعدم الرضا من تسوية الإمام عليه السلام بينهم بالعطاء، فلم يكونوا يعبئون أفراد قبيلتهم.

ثم ذم الإمام عليه السلام فرقتهم واختلافهم فقال: «إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ».

ويبدو تفسير هذه العبارة واضحاً رغم اختلاف الشراح في تفسيرها فالامام عليه السلام

---

١. «الجفاة» جمع جافي، الشخص الغليظ والسيء الخلق، من مادة (جفاء).

٢. «الطغام» جمع طغامة، بمعنى، ضعاف الفكر وأراذل الناس.

٣. «تريكة» من مادة (ترك) والمراد به، الشخص أو الشيء المتبقي، والمراد هنا المتبقون من شخصيات صدر الإسلام.

يريد أن يقول إنّكم دائماً تحثون الخطى باتّجاه التشتت والفرقة وليس هناك ما يوحّد كلمتكم، لا العناصر التي ترضيني ولا النواهي عن الأمور التي تغضبني، والفرقة هي أهم عوامل فشلكم، فأنتم لا تمتثلون لأوامري ولا تنتهون بنهيي، كما يحتمل أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنكم تجتمعوا على ما يخالف رغبتكم أو يطابقها، كمن يقول للمريض انك لا تتناول الدواء المر ولا الحلو، أي إن لم تقبل الأول فاقبل الثاني، كحد أدنى. ثم تشتعل النار في قلب الإمام عليه السلام بعد ذلك الذم والتوبيخ فيقول: «وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ ٱلْمَوْتُ!». حقّاً إنّها لفاجعة أن تبلغ الحالة درجة يتمنى معها هذا الجبل الشامخ الذي يفيض صبراً وتحمّلاً الموت. نعم أحياناً يصيب الإنسان من صحبه الغدرة الفجرة ما لا يصيبه من أعدائه وهنا يتمنى الإنسان الموت، الموت الذي يفرق بينه وبين مثل هؤلاء الأفراد الناكرين للجميل المنحرفين عن الحق.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أياديه الثقافية والتربوية لأمّة الإسلامية سيما بالنسبة لصحبه فأشار إلى أربعة مواضيع مهمّة فقال: «قَدْ دَارَسْتُكُمُ[1] ٱلْكِتَابَ». طبعاً القرآن كان بأيدي المسلمين يتلونه أثناء الليل والنهار ولم تكن هنالك من حاجة لتدريس الإمام عليه السلام، فالمراد فهم مضمون القرآن الكريم وسبر أغواره والوصول إلى مفاهيمه حيث يعتبر الإمام عليه السلام المفسّر الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. فكان يفسّر للناس آيات القرآن ويستشهد بها في أغلب خطبه، ثم تطرق إلى خدمته الثانية للأمة فقال: «وَفَاتَحْتُكُمُ ٱلْحِجَاجَ[2]». أي علمتكم الأدلة العقلية كحجة شرعية بعد الأدلة النقلية.

وقال في الخدمة الثالثة: «وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ» فقد كشفت لكم الغطاء عن مكنون كثير من الحقائق الخافية عليكم وكنتم تجهلونها، كما يمكن أن يكون لهذه العبارة مفهومٌ آخر هو انكاركم لبعض المسائل واتخاذكم مواقف أخرى منها بفعل

---

١. «دارستكم» من مادة (مدارسة) بمعنى، التدريس والتعليم والتفهيم.

٢. «حجاج» جمع حجة، بمعنى الدليل والبرهان، ولها أحياناً معنى مصدري وتستعمل بصيغة المفرد.

جهلكم، فعرفتكم حقيقتها لتقلعوا عن انكاركم، وأخيراً «وَسَوَّغْتُكُمْ[١] مَا مَجَجْتُمْ[٢]». فهنالك الكثير من المفاهيم التي لم تبلغوا عمقها وحقيقتها، ومن هنا كنتم تمجون هذه المفاهيم وتبتعدون عنها، إلّا أنّي كشفت لكم عن أسرارها لتصبح لديكم كالماء الزلال.

ثم أعرب عن أسفه عن سذاجة مخاطبيه فقال: «لَوْكَانَ ٱلْأَعْمَىٰ يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!». فأنا لم أُقصر في تربيتكم وتعليمكم، وقد بنيت لكم كل ما ينفعكم، ولكن ليس لديكم من استعداد وكان بذور علمي وتربيتي وحكمتي قد صادفت أرضاً قاحلة.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بإبراز تعجبه قائلاً: «وَأَقْرِبْ[٣] بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ٱبْنُ النَّابِغَةِ[٤]!». جاء في الرواية أنّ الإمام عليه السلام قال هذه العبارة مع إضافات حين مرّ بجماعة من أهل الشام كان فيهم الوليد بن عقبة، المعروف بشرب الخمر وقد أُقيم عليه الحدّ، حين سمعه البعض قد شتم الإمام عليه السلام فهمّوا به ونهاهم الإمام عليه السلام[٥].

تأمّلان

١. الفرق بين المعونة والعطاء

قال الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة إنّ معاوية لم يقدم لأتباعه معونةً ولا عطاءً

---

١. «سوغتكم» من مادة (تسويغ) جعلت الشيء سائغاً، ثم استعملت بمعنى، الأذن.

٢. «مججتم» من مادة (مج) على وزن حج، بمعنى رمي الماء أو شيء آخر من الفم ثم استعملت بمعنى كنائي هو إبراز الكراهية من شيء.

٣. «أقرب» بقوم من قبيل صيغة التعجب، حيث يبدي الإمام عليه السلام تعجبه بهذه الصيغة من الأفراد الجهال الذين استسلموا لخطط معاوية.

٤. «نابغة» تعني في الأصل الفرد المشهور والعبقري، من مادة (نبوغ)، وتطلق أحياناً على الفرد المشهور بالفساد، ليس لها داعٍ هنا.

٥. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١ حوادث سنة ٣٧ هجرية.

(طبعاً، المراد الأفراد العاديون، وإلّا فإنّ شراءه لزعماء القبائل بواسطة الأموال الطائلة ما تناقلته كتب التاريخ). والفارق بين المعونة والعطاء، إلّا أنّ العطاء شيء من قبيل المرتبات الرسمية والمعونة ما يقدم من منح ومساعدات لإعداد السلاح أو الدابّة للقتال.

٢. الخدمات الثقافية الأربع للإمام عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة إلى أربع من خدماته لصحبه، وأوجزها في: تعليم كتاب الله، القرآن الكريم، والثانية، تعريفهم بالأدلة العقلية والبراهين الجلية، والثالثة، تعليمهم ما كانوا يجهلونه وكشف أسرار أغلب الحقائق المتعلقة بالدين والدنيا، والرابعة، والأخيرة إعادتهم إلى المفاهيم الحقة وجعلها مستساغة لهم بعد أن كانت ممجوجة، والواقع هو أنّ هذه الأصول الأربعة تشكل دورة تعليمية ودينية وفكرية متكاملة، ينبغي لجميع القائمين على شؤون التعليم، الإلتفات لها، وبالطبع فإنّ النتيجة المطلوبة لهذه اللحظة إنّما تتأتى حين يتمتع الفرد الخاضع للتربية والتعليم بالإستعداد التام لتقبلها.

❊❊❊

اللّهم ارزقنا عيناً باصرةً وأذناً سامعةً ويقظةً ووعياً لتصغي إلى كلمات أوليائك التي تطهّر روح الانسان وتهذّبها وتنظر إلى آيات عظمتك بعين البصيرة.

اللّهم لا تفرّق بيننا وبينهم ولا طرفة عين في الدنيا وفي الآخرة وثبّتنا على مسيرتهم. ياربّ العالمين.

ختام الجزء السادس

كانون الثاني ٢٠٠٣م

محرم الحرام ١٤٢٥ هجري

فهرس

الخطبة ١٥١ .... ٥
نظرة إلى الخطبة ٥
القسم الأوّل ٧
الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام ٧
القسم الثاني ١١
الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة ١١
تأمّل: مميزات الحكام اتباع الهوى ١٤
القسم الثالث ١٥
الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنه الكبرى ١٥
القسم الرابع ١٩
الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة ١٩

الخطبة ١٥٢ .... ٢٣
نظرة إلى الخطبة ٢٣
القسم الأوّل ٢٥
الشرح والتفسير: شمة من صفات الله الجمالية والجلالية ٢٥
القسم الثاني ٣١
الشرح والتفسير: إنتظار الفرج ٣١

الخطبة ١٥٣ .... ٣٩
نظرة إلى الخطبة ٣٩
القسم الأول ٤١
الشرح والتفسير ٤١

القسم الثاني ٤٣
الشرح والتفسير: الموعظة البالغة ٤٣
القسم الثالث ٤٧
الشرح والتفسير: الحذر الحذر ٤٧
القسم الرابع ٥١
الشرح والتفسير: الموبقات الخمس ٥١

الخطبة ١٥٤ .... ٥٥
نظرة إلى الخطبة ٥٥
القسم الأول ٥٧
الشرح والتفسير: أبواب علم النبي ٥٧
تأمّلان ٥٩
١. الفارق بين التّجب والتعريف بالذات ٥٩
٢. الفضل ما شهدت به الاعداء ٦٠
القسم الثاني ٦٣
الشرح والتفسير: خصائص دعاة الحق ٦٣
القسم الثالث ٦٧
الشرح والتفسير: معرفة المحسن والمسيء ٦٧

الخطبة ١٥٥ .... ٧١
نظرة إلى الخطبة ٧١
القسم الأول ٧٣
الشرح والتفسير: درس في معرفة الله ٧٣
القسم الثاني ٧٧
الشرح والتفسير: الطائر العجيب ٧٧
القسم الثالث ٨١
الشرح والتفسير: عجائب الخفاش ٨١
تأمّل: خلقة الخفاش العجيبة ٨٢

الخطبة ١٥٦ .... ٨٥
نظرة إلى الخطبة ٨٥
القسم الأول ٨٧
الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهية ٨٧
القسم الثاني ٩١
الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاة ٩١
القسم الثالث ٩٥
الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة ٩٥
القسم الرابع ١٠١
الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى ١٠١
تأملان ١٠٢
١. الرد على بعض الأسئلة ١٠٢
٢. الشهادة مفخرة لا مصيبة ١٠٤
القسم الخامس ١٠٥
الشرح والتفسير: الحيل الشرعية في استحلال المحرمات ١٠٥
تأمّل: الحرام لا يحلل بالزيف ١٠٧

الخطبة ١٥٧ .... ١٠٩
نظرة إلى الخطبة ١٠٩
القسم الأول ١١١
الشرح والتفسير: انطلاقة على المبدأ والمعاد ١١١
تأمّل: كيف يعيد التاريخ نفسه ١١٤
القسم الثاني ١١٧
الشرح والتفسير: تقلب الدنيا ١١٧
القسم الثالث ١٢٣
الشرح والتفسير: حضور المحكمة الإلهيّة ١٢٣
تأملان ١٢٧
١. الشهود على الأعمال ١٢٧

٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى ١٢٨

٭٭٭

الخطبة ١٥٨ .... ١٣١
نظرة إلى الخطبة ١٣١
القسم الأول ١٣٣
الشرح والتفسير: الكتاب الذي استوعب كل شيء ١٣٣
القسم الثاني ١٣٧
الشرح والتفسير: حكومة الظلم ودولة الطغيان ١٣٧
تأملان ١٣٩
١. وظيفة الحاكم والرعية ١٣٩
٢. فاجعة نهاية دولة بني امية ١٤٠

٭٭٭

الخطبة ١٥٩ .... ١٤٣
نظرة إلى الخطبة ١٤٣
الشرح والتفسير: الدعم المطلق ١٤٥

٭٭٭

الخطبة ١٦٠ .... ١٤٩
نظرة إلى الخطبة ١٤٩
القسم الأول ١٥١
الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمة الله ١٥١
القسم الثاني ١٥٧
الشرح والتفسير: عبيد الدنيا ١٥٧
تأمل: الخوف والرجاء ١٦١
القسم الثالث ١٦٣
الشرح والتفسير: التأسي بالنبي صلى الله عليه وآله ١٦٣
القسم الرابع ١٦٧
الشرح والتفسير: زهد الأنبياء ١٦٧
تأملات ١٧٠

١. مزامير داود ١٧٠
٢. الصوت الداودي ١٧١
٣. زهد الأنبياء ١٧١
القسم الخامس ١٧٣
الشرح والتفسير: سيرة النبي ﷺ إزاء عبدة الدنيا ١٧٣
القسم السادس ١٧٧
الشرح والتفسير: زهد النبي ﷺ ١٧٧
القسم السابع ١٨١
الشرح والتفسير: لم التأسي بالنبي الأكرم ﷺ ١٨١
تأمّل ١٨٤

ﮪﮫ

الخطبة ١٦١ ١٨٧
نظرة إلى الخطبة ١٨٧
القسم الأول ١٨٩
الشرح والتفسير: صفات النبي ﷺ ١٨٩
تأمّل: من قال أم ما قال؟ ١٩٢
القسم الثاني ١٩٥
الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقة ١٩٥

ﮪﮫ

الخطبة ١٦٢ ٢٠١
نظرة إلى الخطبة ٢٠١
القسم الأول ٢٠٣
الشرح والتفسير: علة غصب الخلافة العلوية ٢٠٣
القسم الثاني ٢٠٧
الشرح والتفسير ٢٠٧
تأمّلات ٢٠٩
١. حق السؤال ٢٠٩
٢. الهدف الاصلي من السؤال والجواب في الخطبة ٢١١

٣. بني امية ومؤامرة القضاء على الإسلام ٢١٣

﷽

الخطبة ١٦٣ .... ٢١٥
نظرة إلى الخطبة ٢١٥
القسم الأول ٢١٧
الشرح والتفسير: حادثة مهمّة ٢١٧
تأمّل: الله حقيقة مطلقة ٢٢٣
القسم الثاني ٢٢٥
الشرح والتفسير: العلم الإلهي المطلق ٢٢٥
تأمّل: دور الإيمان بعلم الله على العمل ٢٢٦
القسم الثالث ٢٢٩
الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم ٢٢٩
تأمّل: الدورة الجينية المذهلة ٢٣٢

﷽

الخطبة ١٦٤ .... ٢٣٥
نظرة إلى الخطبة ٢٣٥
القسم الأول ٢٣٧
الشرح والتفسير: إتمام الحجة على عثمان ٢٣٧
تأمّل: سبُل نفوذ الكلام في الآخرين ٢٤٠
القسم الثاني ٢٤١
الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم ٢٤١
أضواء على حادثة قتل عثمان ٢٤٦

﷽

الخطبة ١٦٥ .... ٢٤٩
نظرة إلى الخطبة ٢٤٩
القسم الأول ٢٥١
الشرح والتفسير: خلق الطيور ٢٥١
تأمّل: عجائب عالم الطيور ٢٥٥

القسم الثاني ٢٥٩
الشرح والتفسير: أعجب طير في العالم ٢٥٩
القسم الثالث ٢٦٣
الشرح والتفسير: صورة رائعة لجناح الطاووس ٢٦٣
القسم الرابع ٢٦٧
الشرح والتفسير: صورة دقيقة عن جمال الطاووس ٢٦٧
القسم الخامس ٢٧١
الشرح والتفسير: حيرة العقول في الوصف ٢٧١
تأمّل: غرائب الطاووس ٢٧٣
القسم السادس ٢٧٥
الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان ٢٧٥
تأمّل: غيض من عجائب الحيتان والفيلة ٢٧٦
الحيتان ٢٧٦
الفيلة ٢٧٧
القسم السابع ٢٧٩
الشرح والتفسير: نعم الجنّة ومفاتنها ٢٧٩
تأمّل: أيها أجمل؟ ٢٨٢

الخطبة ١٦٦ ..... ٢٨٥
نظرة إلى الخطبة ٢٨٥
القسم الأول ٢٨٧
الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية ٢٨٧
القسم الثاني ٢٨٩
الشرح والتفسير: المصير الأسود لبني أمية ٢٨٩
تأمّل: ثورات دامية ضد بني أمية ٢٩١
القسم الثالث ٢٩٥
الشرح والتفسير: عامل التخلف ٢٩٥
تأمّل: بنو اسرائيل ٢٩٦

الخطبة ١٦٧ ..... ٢٩٧
نظرة إلى الخطبة ٢٩٧
القسم الأول ٢٩٩
الشرح والتفسير: معرفة سبيل الحق ٢٩٩
القسم الثاني ٣٠٣
الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة ٣٠٣
تأمّل: سلامة البيئة وحماية الحيوانات في الإسلام ٣٠٥

الخطبة ١٦٨ ..... ٣٠٧
نظرة إلى الخطبة ٣٠٧
القسم الأول ٣٠٩
الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبة قتلة عثمان ٣٠٩
تأمّلان ٣١٢
١. معوقات العدالة ٣١٢
٢. إشكال الثوار ٣١٢

الخطبة ١٦٩ ..... ٣١٥
نظرة إلى الخطبة ٣١٥
القسم الأول ٣١٧
الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومة الإسلامية ٣١٧
القسم الثاني ٣١٩
الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة ٣١٩

الخطبة ١٧٠ ..... ٣٢١
نظرة إلى الخطبة ٣٢١
القسم الأول ٣٢٣
الشرح والتفسير: لماذا لا تبايع ٣٢٣
تأمّل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام ٣٢٥

الخطبة ١٧١ .... ٣٢٧
نظرة إلى الخطبة ٣٢٧
القسم الأول ٣٢٩
الشرح والتفسير: الجنّة أمامكم ٣٢٩
تأمّل ٣٣٣

الخطبة ١٧٢ .... ٣٣٥
نظرة إلى الخطبة ٣٣٥
القسم الأول ٣٣٧
الشرح والتفسير: قريش والخلافة ٣٣٧
تأمّلان ٣٤٠
١. العيون المعصوبة إزاء الحقائق ٣٤٠
٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق ٣٤١
القسم الثاني ٣٤٣
الشرح والتفسير: فضيحة أصحاب الجمل ٣٤٣

الخطبة ١٧٣ .... ٣٤٧
نظرة إلى الخطبة ٣٤٧
القسم الأول ٣٤٩
الشرح والتفسير: أجدر الأفراد بزعامة الأمّة ٣٤٩
سؤال والجواب: ٣٥٢
القسم الثاني ٣٥٣
الشرح والتفسير: تعليمات عسكرية ٣٥٣
تأمّل: حوار مع عمار بن ياسر في صفين ٣٥٥
القسم الثالث ٣٥٧
الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم ٣٥٧

الخطبة ١٧٤ .... ٣٦١
نظرة إلى الخطبة ٣٦١
القسم الأول ٣٦٣
الشرح والتفسير: تناقض طلحة دليل فضيحة ٣٦٣

ઋOઊ

الخطبة ١٧٥ .... ٣٦٧
نظرة إلى الخطبة ٣٦٧
القسم الأول ٣٦٩
الشرح والتفسير: الغفلة التامة ٣٦٩
القسم الثاني ٣٧١
الشرح والتفسير: علّمني رسول الله ﷺ كل شيء ٣٧١

ઋOઊ

الخطبة ١٧٦ .... ٣٧٥
نظرة إلى الخطبة ٣٧٥
القسم الأول ٣٧٧
الشرح والتفسير: حفت الجنّة بالمكاره والنار بالشهوات ٣٧٧
تأمّل: عشق الطاعة ٣٧٩
القسم الثاني ٣٨١
الشرح والتفسير: نقد الذات ٣٨١
وصايا ضرورية: ٣٨٢
القسم الثالث ٣٨٥
الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء ٣٨٥
تأمّل: القرآن والشفاء ٣٨٧
القسم الرابع ٣٨٩
الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامة ٣٨٩
القسم الخامس ٣٩١
الشرح والتفسير: الدفاع المشروط ٣٩١
القسم السادس ٣٩٥

الشرح والتفسير ٣٩٥
تأمّل: الإستقامة في مسار الولاية ٣٩٧
القسم السابع ٣٩٩
الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان ٣٩٩
تأمّلان ٤٠٣
١. اللسان اعجب اعضاء البدن ٤٠٣
٢. رصيد الإنسان ٤٠٤
القسم الثامن ٤٠٧
الشرح والتفسير: أخطار البدع ٤٠٧
تأمّل: البدعة ٤١٠
القسم التاسع ٤١٣
الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم ٤١٣
القسم العاشر ٤١٧
الشرح والتفسير: إصلاح النفس ٤١٧
تأمّل: العيش بصورة جماعية أم الإنزواء ٤٢٠

الخطبة ١٧٧ .... ٤٢٣
نظرة إلى الخطبة ٤٢٣
القسم الأول ٤٢٥
الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكمين ٤٢٥
تأمّل: تولّي الحكمين عن القرآن ٤٢٧

الخطبة ١٧٨ .... ٤٢٩
نظرة إلى الخطبة ٤٢٩
القسم الأول ٤٣١
الشرح والتفسير: عظمة الله وكرامة نبيه ﷺ ٤٣١
تأملان ٤٣٤
١. مشكلة الصفات ٤٣٤

٢. أهداف بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ٤٣٥

القسم الثاني ٤٣٧

الشرح والتفسير: صدق النية مع الله ٤٣٧

الخطبة ١٧٩ .... ٤٤١

نظرة إلى الخطبة ٤٤١

القسم الأول ٤٤٣

الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟ ٤٤٣

الخطبة ١٨٠ .... ٤٤٩

نظرة إلى الخطبة وسبب الورود ٤٤٩

القسم الأول ٤٥١

الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار ٤٥١

القسم الثاني ٤٥٥

الشرح والتفسير ٤٥٥

تأملان ٤٥٨

١. الفرق بين المعونة والعطاء ٤٥٨

٢. الخدمات الثقافية الأربع للإمام عليه السلام ٤٥٩

فهرس ٤٦١

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم / ١١٥٢٠٨
التاريخ / ٢٠٠٩/٢/٢١

دار جواد الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

00961 3 13 73 73

00961 70 69 29 12

00961 70 70 45 67